إدمون عمران المليح

آيلان
أو ليل الحكي

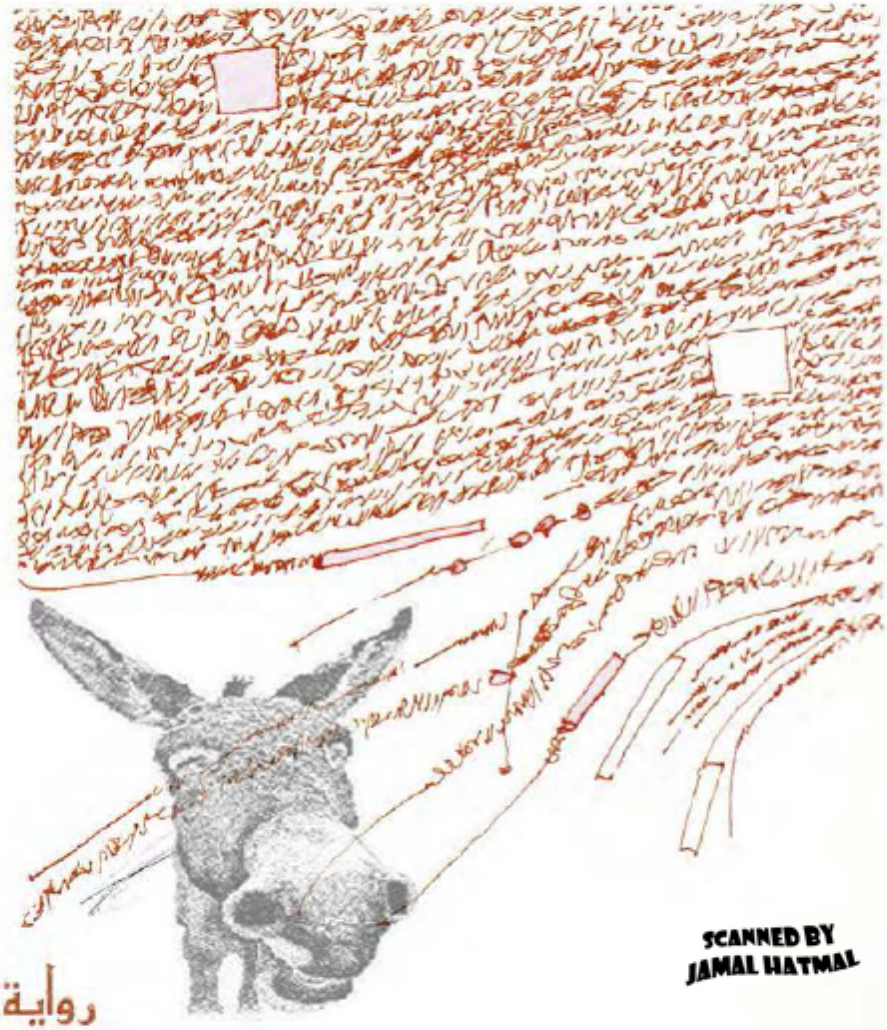

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

رواية

ترجمة علي تيزلكاد

دار ثيقال للنشر

إدمون عمران المليح
آيلان أو ليل الحكي
رواية

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي. ساحة محطة القطار
بلفدير، الدار البيضاء 05 ـ المغرب
الهاتف : 24.06.05/42

لوحة الغلاف : الحسين الميلودي

آيلان
أو ليل الحكي

Edmond Amran El Maleh

Aïlen
ou la nuit du récit
Ed. la Découverte, Paris, 1983

ننشر هذه الرواية باتفاق خاص مع دار لاديكوفيرت، باريس

إدمون عمران المليح

آيلان

أو ليل الحكي

ترجمة علي تيزلكاد

مراجعة محمد بنيس

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار
ص.ب. 2105 بلفدير ـ الدار البيضاء 05
المغرب

تَم نشرُ هَذا الكِتاب ضِمْن سلْسِلة
نصوص أدبية

الطبعة الأولى 1987
جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع القانوني : 1987/351

إلى ماري سيسيل

كثيرون هم الذين حاولوا استيعاب حياتهم في كنهها الروحي، وأولئك الذين توفقوا في هذا المسعى يبدون لنا اليوم عجوزين بشكل غريب. كنت أودُّ لو كشفوا لنا أكثر عن هذيانهم، والهذيان هو المكسب المشترك لكل البشر، كلٌّ يمكنه أن ينهل منه بدون إكراه لجميع ما يعتبره مفيداً.

ولا ينبغي لنا أن نأسف على انعدام وحدة ظاهرة في عمل من هذا القبيل : فالوحدة العميقة لحياة ما تبقى دوماً مستعصية الإدراك؛ وهي في الواقع أنجع كلّما بدت محتجبة.

إلياس كانيتي

موطن الإنسان

التخريب يكمن في حركة الكتابة ذاتها، حركة الموت. ليست الكتابة مرآة؛ إنها مواجهة وجه مجهول.

إدمون جابيس

كُتيِّب التخريب خارج الظن

لعلها الأصوات. لم يكن يفهم لماذا، ولا كان يسعى إلى ذلك. كانت تقول أموراً كثيرة، بعيداً بعيدًا، دون أي علاقة مع ما كان بوده أن يسمعه، أن يعرفه بدقة. ومع ذلك، أجل مع ذلك، كانت تقول الأهمّ. كان متأكداً من هذا. ربما كان في قرارة نفسه يحترس جيداً من أي محاولة فهم، كما أنه يخشى إثارة الانتباه، فض سر مّا. الأصوات. صدى مترددٌ، ضائعٌ، أفق آهل بالنظرات، طريق تيه يستدرجك، يغريك، سحابة تمضي دون التعلق بالشناقيب المدماة. كان يصيخ السمع، إنها لا تقول شيئاً مما يود سماعه بعناء غريب، حمّى تعرف بعض الفتور كلما ألم به الإحباط والعياء. رجال سقطوا في الأزقة برمي الرصاص، وكفنوا بالعبارات الاعتيادية، الموت هذا الشيء الذي لم يعد له اسم ! هو اندمال قديم يحيا من جديد، جرح مفتوح كان يتحسسه بأنامله الثابتة، يعرف كيف يكتشف مساحته في أدق تضاريسها، يستقصيها بأناملٍ كفيف، مطبق العينين كيما يرى من جديد لهيب الرؤى التي لا تنفك تلاحقه. كان عبد الكريم يتكلم. جالسين كانوا إلى سطيحة القَصَبَة، تجاه البحر : زوارق صيد، تسمى هنا الباطلات، تدور حول نفسها وسط الملجإ غير الآمن الذي يشكله السد المخروم من عدة أطراف، ثغرات تتسرب منها الأمواج وتنفجر مرسلة ألسنتها عالياً في السماء. فالإسبان، بدلاً من تحمل نفقات إزالة الرمال، فضلوا تكسير السد وترك المحيط يقوم بمهمة الجرف عوضاً عنهم. لحظة هدوء، عبد الكريم يتكلم، أصوات، صوته هو، صوت الآخرين، كل الأصوات في مهب الريح، عرضة لعنفها، للنوارس التي تستريح فوق حويط قائم متعامد مع الرصيف، على سحنتها ملامح التأمل، متجهة بأنظارها صوب الحوض، متطلعة إلى الزوارق الراسية تعلوها صبغة إنسانية غريبة. أكيد أنها تدري، هي. ينطبق الصمت على أعماقه الكثيفة.

عبد الكريم يتكلم. الحدث هو أنه اشترى مؤخراً مركباً، أو على الأصح طلب صنعه، يكبر ببضعة أمتار المركبَ الذي كان لديه من قبل. حدث، مغامرة. يصيخ السمع : لا لم

أحصل عليه بعد، إن شاء الله، سأذهب هذا الأسبوع إلى مدينة العرائش لآتي به، لاشيء، أوراق للتعبئة، مراجعة للمحرك، ستة أشهر وهو راسٍ في نفس المكان خلال فصل الشتاء، ينبغي الاحتياط مع هؤلاء الناس، عبد الكريم يضحك، تنساب الكلمات غزيرة، عذوبة، خليط من الإسبانية، ولهجة البحارة، لكنة شمالية مبكرة، عبد الكريم يتوجه بالكلام إليه. كيف، أنت من هناك ؟ من ذلك العالم، الجنوب الأرض المجهولة، أرض الخلاء داخل البلاد في اعتبار سكان هذه المنطقة : آسفي ! كريستوف كلومبوس كان يعرف أكثر أين يتجه. عجيب، أليس كذلك ؟ ليسوا برتغاليين ولكنهم اقتبسوا حرفتهم بمجرد المشاهدة، ماذا عساي أن أقول ؟ لقد التجأت إلى «سبع صُولْدِي» في هذا الأمر. الجميع يدعوه هكذا، لست أدري لماذا.. جن، وليس آدميا.. كيف أقول.. شعر كثيف، قامة قصيرة.. ليس قزما.. أظنه أحول. البرق، ميلاد مركب لأول مرة في حياة الإنسان ! عندما ذهبت لرؤيته أول مرة، قلت له إن في العرائش مركباً إسبانياً، بحجم هائل، وطلبت منه أن يتخذه نموذجاً.. عجيب، جن، ذلك الرجل... رأى المركب، ثم بعد ذلك أخذ قطعة طباشير، وهكذا، ذهبنا. بدون تصميم أو أي شيء آخر، رسم على الأرض نفس الشكل.. عفريت.. أحياناً لا يرغب في الشغل فيتوقف فجأة دون أن يقول شيئاً، يرسل شخصاً إلى السوق ليشتري له قوائم بقر أو خروف فيحضر طبق «الهركَمة» حسب هواه.. لا يمكن لأحد أن يقول له شيئاً. لا أحد يعلم أين هو ولا ما هو فاعله.. لكن لا يوجد له نظير. يضحك عبد الكريم ولا يزال إلى حد الآن يبدي إعجابه : ترى الهيكل، الضلوع، المركب، إنسان يرى النور. لقد صنع الهيكل بخشب الأكَاجُو، ثم مدّ الألواح لإتمام القشرة. جلد على الضلوع. عبد الكريم يتقن لغة خليطة، أي سد كل الثغرات لضمان المساكة.. في الماضي كان يُستعمل نوع من الحلفاء يتقوى ويتصلب في الماء، أما الآن فتستعمل مادة «الميكَا». عفريت، لا أحد يمكنه صنع مركب مثل هذا، جن، إنه لا يعير أهمية للنقود، عندما يلم به التعب ينام في الورشة نفسها، لا أحد يعلم إن كان له بيت خاص ولا حتى أين يقيم.. عبد الكريم يمزح كثيراً : كيف أنت تنوي كتابة هذه القصة ! ستة أشهر وأنا لا أعرف أين آكل، وفي الأخير لم يبق لي مال أركب به الحافلة للعودة، ذهب بعقلي سبع صُولْدِي هذا، أقسم لك بالله أنني اضطررت لاقتراض نقود لأنقل المركب إلى العرائش.. لا عن طريق البحر وإنما على متن شاحنة، طار بعقلي ذلك الرجل.. مرة تخلى عن كل شيء، خيم علي الضباب من كل صوب.. لم أكن أدري أين ذهب... فدخلت إلى حانة «الميموزا» وشربت صندوقا من البيرة. ملحمة، ميلاد مركب : الأشخاص، الأشياء، هم اللحظة، ولا شيء غير هذا ! كان ينصت إلى الهدوء والصمت : صدى بلا عمر ولا مكان، تتحدث الأصوات عن انتظام

الأيام، النظام الهادئ للسماوات الصافية، حشرجة البحر العاتية. عبد الكريم يتكلم : أجل، أبوه مات في العام الماضي، رحمة الله عليه، لم ينفع معه دواء، عبد الكريم يتكلم الآن بصوت يخيم عليه الحزن، كان بحاراً وصياداً كبيراً لا يمكن أن يجود الزمن بمثله : كان يعرف كل أعماق الشاطئ، كان بإمكانه أن يقول : من هنا توجد دكة رملية، هنا صخور، وهناك حفر عميقة.. بمجرد رؤية لون الماء كان بوسعه أن يقول إن كانت هناك أسماك. إن كانت ستقضم أم لا.. ليس مثلنا اليوم، إجلال تجاه القدامى، إعجاب بعلمهم اليقين.

كان ينصت : على شفا أمر ما، هو ذلك : من تحت الشاهد الثلجي، تنبعث صرخة في بياض الأيام، أطراف الجرح المحروقة، فوهات بركان منطفئ، بؤرة مفقودة للرؤى التي سبق أن لازمته عام 65، طلقات الرشاشات تخترق الهواء، الأطفال يسقطون تحت الرصاص، بقع الدم على صفحة الشمس، عصّابة رثة لحجب أعين رجال تحت العذاب، لا أثر لما جرى، إذا أخفيتم الجسد الحي : هذه المياه التي تدّعي أنها بدون وَرَم، بدون صخب الألفاظ الجوفاء، القشرة المنخورة التي تسقط وتضيع وسط الغبار. العائلات احتفظت بجرحاها، البارحة كاليوم لأن خط الفصل لا يرحم، لأن الجميع يعلم من أي جهة توجد العظمة، هل يعلم عبد الكريم ؟

ساعة هادئة : «دُونْ فِيرْنَانْدُو» مُنحني الظهر قليلاً، رأسه مُدخل بين كتفيه، يرتدي بنفس اللامبالاة معطفاً رمادياً صيفياً، وغليون في الفم. يعبر الطريق، محنطاً في صمت رصين، على عبّارة مركبه العتيق الذي يشق طريقه وسط الموج. «دون فيرناندو»، الغليون في الفم، على رأسه قبعة رمادية قديمة، يراقب الأفق ثابت النظر في صمت. ريح الشرق، ريح عنيفة، لم يسبق لها أن هبت بمثل هذه القوة وهذا الاسترسال، ريح العنف، عنف مدن الصفيح ينفجر في وجه المحظوظين، رعب عميق ! ريح مجنونة، بذور خيال : أسماء سحرية : جزر السوند، تحت الريح، جمايكا، جزر ماركيز، شعب المرجان، خرج «دون فيرناندو» مُباشرة من صفحات كُونْرَاد، يبحر رغم الرياح والأمواج، في أحشاء مركبه العتيق شحنات نفيسة من التوابل، والعفيون، والأسلحة المهربة، مطاردة مدافع البحرية الملكية التي لن تصيبه أبداً، القرصان الأحمر المنضوي بين طيات الأسطورة ! رحلات بحرية سرية، سر حياة بلا لغز : إنه بكل بساطة أحد الإسبان الأخيرين الذين ظلوا في عين المكان بعد رحيل «الكُونكِيسْتَادُورْس»، أحد الباقين الأخيرين مع أنطونيو، تخاله طائراً بلا ريش، صامتاً، يسهر على الصندوق الحديدي الذي لا يُفتح ويُغلق إلا اللحظة الكافية لإرجاع الصرف، سِينْيُورَا، ربة المكان، ترتدي السواد، شعرها الرمادي ملفوف على شكل كُعيْكَة، قصيرة القامة، وجهها

مزين بنقش التجاعيد، تقوم وسط مطبخها الصغير بنفس الشغل : الـ«شطوف»، سمك مقلي، بايبا، استعمار إسباني عبر ناس بسطاء بين «الزّارْزُويلاّ» والمأساة. كان يا ما كان، يبقى صمت المقابر، بياض القباب، جرأة المسجد الصغير بزواياه الثمانية في مدخل المدينة القديمة، شجرة التين التي تطل على الجدار الممتد طول ذلك الزقاق الضيق المستقيم، في نهايته العسكريُّ الذي عمل في صفوف المحلة والجيوش النظامية الإسبانية، وهو الآن يملك بقالة على قياس بؤس السكان.

كان ينصت للإشاعة الكبرى : رجال ماتوا بالمئات، الموج العالي ينكسر على أسفل القلعة، صدرٌ عَارٍ في مواجهة صلب الرصاص والمدرعات، كان ينصت : يمر الزبّال في الطريق، كان يعرفه منذ عهد بعيد، هذا الريفي الذي تبدو على وجهه سحنة رخوة وهادئة، تشبه سحنة وجه تشرشِيل ـ لا أحد يعلم لماذا ـ وهو ينبئ الأمة بالدماء والدموع، ربما لأنه يرتدي دائماً ذلك المعطف المشمع الأصفر الذي عثر عليه في مكان ما وقبعة العاصفة تلك ذات الأطراف العريضة. أرادوا في العام الماضي إحالته على المعاش، لكنه لم يحتمل ذلك، عاد إلى الشغل دون محاولة معرفة ما إذا كانوا سيؤدون له أجراً أم لا، هذه هي حياته، لم يكن يريد أن يموت في حفرة مظلمة بلا هواء ولا نور، مثل ذلك الرجل البئيس الذي يسكن نفس الزقاق، في الواجهة المقابلة، الذي يعيش على الصبارة، تحيات وديه، عبارات الترحيب : إنهما يتعارفان، كان بإمكان الزبّال الريفي أن يتحدث عن تُشرشيل لأنه كان من نفس الاتجاه، جيريشو : أي نفخ سيقوض الأسوار، قلعة الصمت. المعجزة اليابانية، سيارات سوزوكي، الشاحنات الصغيرة تطوف بين الأزقة بدل العربات، الحمار في عطلة بالريف، الأميرال الإنجليزي ذو القبعة العاصفية خفيف الظل في حينه، إلا أن العام كان فظيعاً بالنسبة للحمير، أتاح لهم الجفاف فرصة القدوم إلى مشارف المدن ليموتوا فيها، البشر أيضاً بالمئات ! غمام أسود من الغربان الجائعة انهالت على بياض المدينة الكبيرة.

أي حزن ! شِيتَا، قرد القَصبَة مات، أو بالأحرى قُتل لأنه كان من الضروري ـ للأسف ـ قتله. الصوت الرزين، الصوت الرزين الذي لا يخلو من تفخيم، يروي هذه النهاية المأساوية. في عهد السعادة كان شِيتَا حراً، لا يربطه إلا عقال طويل يشده إلى الشجرة الكبيرة المغبرة المطلة على سطيحة المطعم المقابل للبحر : سلسلة طويلة كافية لتُبقي له حرية اللعب والجري بين الطاولات وقضم حبات الفستق بعد تقشيرها بمهارة تُسعد الجميع، سلسلة تكاد لا تُرى، حرية محروسة توافق كل واحد هاهنا ـ لكن للأسف ! لا أحد يدري أي مبررات كانت وراء وضعه في قفص كبير، يكفي لإيهامه بأنه حر وسط هذا الفضاء المسيج، كان مستمراً في

دوره التنشيطي، يحك أطراف جسده بتوتر كبير، ينظر إلى الناس بنوع من الاستخفاف، يكشر من حين لآخر، يتلقف الحلويات التي ترمى له من بين القضبان. كان الأطفال يشاكسونه، يتلذذون بالخوف الذي يجعلهم يتبولون في سراويلهم، الألمانيات الثخينات، دمى القنب الإنجليزيات، الفرنسيات المتبرجات، يخاطرن بتمرير أصابعهن بين القضبان في لمسات يشوبها شبق مستمر ومتردد. سعادة في قفص ! عشق الحيوانات : من لا يفكر في أن يؤذي ولو ذبابة واحدة على هذه الأرض المباركة ! لسبب تافه، لكن لا نعرف بالضبط لماذا، ربما عضة لا إرادية. على كل حال اتخذ قرار قتْل شِيتّا، كما ورد في تصريح جاف اللهجة، مع مراعاة ما ينبغي من الشفقة، بدون ألم، انتقال مريح من الحياة إلى العدم. صوت الراوي تعلوه غشاوة من الحزن، ملؤها الانفعال لذكرى تلك الساعات المأساوية. اللحظات الأخيرة من حياة شِيتّا، شيء من عظمة سقراط وهو يتناول السم، هذا الجنس من القردة الصحراوية ـ أصوات إعجاب ـ لا تفنى أبداً.. بعد عدد من حقن السم الزعاف، التي قدمها طبيب الحيوانات بكل لطف مع مراعاة كل الشروط الصحية. نهض شيتّا في عافية تامّة، بل وتزايدت حيويته، مما دعا إلى إعدامه بالرصاص مع كل الشرف الذي يستحقه الأبطال.

تمّ الإعدام في حديقة طبيب الحيوانات، تحت سماء صافية صفاء عجيباً لا يعادله إلا ذلك النور المشع الذي خيّم يوم كانت طلقات الرشاشات تحصد الأطفال في أزقة المدينة. وعهد للطبيب نفسه، إذ لا يمكن أن يعهد بمهمة دقيقة مثل هذه لأي أحد غيره، بالقيام بدور فضيلة الإعدام : بين العينين بالضبط، جبين شِيتّا المنحني الشهم، بين العينين بالضبط، من الأسفل كانوا يسددون الطلقات للناس المطلين من نوافذ بيوتهم. رصاصة في الجبين، الجرحى يحتضرون في المستشفيات، رجال الأمن واقفون إلى قدم السرير، دون سلاح، يوم الأحد، الأصوات متطابقة، كان الجو جميلاً ذلك اليوم من مارس 65 أيضاً. أيام الدم والشمس المتوهجة حيث يذوب الموت، يسيل، ينبري وسط النور الشفاف، أطلقت الرصاص من الأسفل نخبة الرماة : هذا توضيح مهم.

نخبة ! عملية جراحية لقلب مفتوح : أثر جرح على طول الصدر : يتكلم المريض بصعوبة، تستكشف الكاميرا وجهه النقيه، يقول إن حالته تتحسن، وإنه لا ينبغي الخوف من عملية جراحية، لأن سرعة الاندمال مدهشة في هذه البلاد، الجراح التي نخفيها، الجراح التي نبيّنها، النور، الإشعاع ينحدر طول الهوائيات، غابة سحرية على أسقفة الفقر المذقع : جدران من الصفيح، ألواح منفصلة، غطاوات متهرئة، ورق مقطرن، ما إن ينزل مطر قليل حتى تفعم بالمياه، أرض عارية، بالوعات مفتوحة، يقول المريض إن حالته تتحسن شيئاً مّا، اندمال كبير

على صدره، عملية جراحية على قلب مفتوح، يظهر على الشاشة الأستاذ مصطفى جراحي. الأستاذ يشرح بلغة علمية معطرة، لغة عربية ملحمية تضفي صبغة شعرية على تقنيات القلب والشرايين، يشرح نبضات القلب المتموجة، صمت القلب، نوم القلب.

علاج كوني : أطلق على نفسه لقب الحاج، نصب طاولته ومظلته في مدخل السوق، خارج جدران المدينة العتيقة، إلى جنب الأسوار محاذياً للضريح الأبيض الناصع لأحد الأولياء، حراس المدينة، يوم الخميس يوم السوق الأسبوعي، نظارات سوداء، قبعة الدُّوم على الرأس، ميكروفون في اليد، على الطاولة أمامه رتب العلب والقوارير الصغيرة، يقدم نفسه، إنه حاج، وتضيع بقية اسمه وسط الجلبة : جئنا إلى هذا السوق، لنقدم لكم بعون الله ورسوله، مواساة وراحة، سيدتي، للآ.. يخاطب النساء، صوت رنان، أحدث التقنيات، إذا كان لديكم ألم أضراس، هنا نحن لا نقلعها بل نهدئ الألم، إذا تسرب البرد إلى عظامكم، إذا ألمت بكم «الذئبة»، التشنج بربلة ساقكم، إذا كان شعركم ينكسر تحت المشط، إذا كان يسقط، إذا كان طفلكم يتبول في الفراش، إذا كانت الأعصاب تعذبكم ليل نهار، إذا كان الدوار يصيبكم، إذا كان رحمكن في حاجة إلى تنظيف، أقسم لكم، أكررها أمامكم، لم نأت إلى هنا في سبيل المال. بعون الله ونبيه محمد رسول الله، نخفف الألم، وننفس الضرر ونقدم الشفاء، الصوت لا ينقطع، سيل رنان يتعالى فوق صخب السوق، النساء المحتجبات يتزاحمن، يمررن من يد لأخرى القوارير السحرية، الخطيب واقف في زاوية يقبض الثمن بخفة، وعينه لا تغفل شيئاً، يتكاثر الحشد، العلاج الكوني، على الطاولة كتيب مفتوح على مرأى الحضور يحمل صورة الحاج، الغش مستحيل، خاتم مكتب المراقبة الصحية، طابع العلم الذي لا يمكن الطعن فيه ! بالقرب منه، شيخ جميل، جالس على حافة الرصيف، يبيع الأعشاب المنشورة على كيس من الخيش مبسوط على الأرض، أعشاب طبية أتى بها من الجبل، صوت رقيق، مطمئن، يردد في نفس السياق تعاليم القرآن ونصائحه هو : حضّروا نقيعاً من النعنع واخلطوه بهذه الأعشاب الجافة ثم بللوا بها خرقة تضعونها فوق موضع الألم، يخف ضرركم، وتتبدد آلامكم.. هو الواحد الأحد، الذي لا يخفى اسمه عن كل سيرة.

أصوات متداخلة من هنا وهناك، تتمازج خارج أي مركز. الأحداث ! لم يعد يعلم بالضبط لماذا يسعى إلى المعرفة : ما هي تلك القوة التي كانت تدفعه إلى الأمام، تلك الرغبة التي تتعزز أكثر فأكثر وتتنحى أمام النور، تلك الأصوات التي تناديه بإلحاح ! حَكْيٌ يتخذ شكله في جمال ملؤه القسوة والمأساة. كان يلم به توتر كبير وهو يرسم كتابته المتشنجة على صفحات دفتره الأحمر، وحده الاستبطان قادر على تجريد ما يعتبره

المرء علامات للواقع، مؤشرات ظاهرية للبداهة والحقيقة، مسعى فريد : الكتابة موت مطلق وتام لكل شيء خارجها، موجة تنطفئ على حافة الحياة عندما يدفع بها اليمُّ العاتي المقبل من الأفق، نور لا يفنى، رياض مفتوح على الجنينة الصغيرة، في الأعالي سماء مفتوحة على ليل فخم، صدى واسع، انغماس في الأعماق، هدير البحر العتي يلغي الفضاء، خَليلي يغني، يرتل، على نبرات البندير الخفيفة الوئيدة، يروي قصيدة حُمَادْشَة الشهيرة، كلها عبرة ووعظ : قصة رجل كان يرفض أن يزيغ ابنه، أن يقصر في حق شرف العائلة بانضمامه إلى تلك الجماعة الصوفية التي ندد بها العديد من الأعلام المشاهير، قصة ذلك الأب الذي تدخل وسط طقوس الطائفة لينتشل الإبن العاق من وسط الشطحة الجماعية، تصاب اليد المعتدية بالشلل في الحين، قصة محنة مزدوجة، غفران بطيء، والطائفة المهانة تفتح المجال لخلاص الروح والجسد، خَليلي يغني، يرتل وقسمات وجهه تنكسر، تمَّحي النكتة، صوت مطلق غير صوته : على حافة شيء ما إشراقة ساطعة تتخلل الأجفان المطبقة، خَليلي صوفي حمدوشي، رجل ذو قلب طيب حصل له أن شرب أكثر من المعقول، غفرانك يارب، حدث هذا منذ زمن طويل بالدار البيضاء، هاجمه إثر ذلك رجال أقوياء لا يحكمهم شرع ولا إيمان وسط زقاق خالٍ فجردوه من كل شيء، ولم يجد في وسعه سوى اللجوء إلى أقرب مركز للشرطة، عارٍ تماماً، لكن هذا ماض، خليلي يذكر الطريقة، الطقوس في مدينة الصويرة، طرق الارتقاء، الغناء، الإيقاع، الرقص، الجذبة، الصعود المجرد من الزمان والمكان نحو الحال والنشوة، حضرة نادرة لا ينالها إلا القليل من المشاركين. خليلي حضور نحيل يصغي لقلبه ويغني، يرتل، ينفصل عن جسده، صوته يبعث الموسم هناك، في أعالي جبال الريف، في زاوية الولي المبجل، خيام منتصبة على مرمى البصر، تجمع هائل لكل الطوائف الوافدة من كل نواحي البلاد. رجال ونساء يهرعون كالأمواج، وجوههم مشرئبة نحو السماء والنور في نشوة عاتية، الباطن، تلك الخوالج الخلفية للذات؛ خليلي منكسر قسمات الوجه، ينسى صوته وقلبه، صلاة هذه المرة، تلك التي ترافق الأموات، هنا تقضي العادة بأن تؤدى هذه الصلاة غناء، في ابن مسيك وسيدي عثمان سُرِق الأموات من موتهم، على أبواب المقابر وقف رجال الشرطة يحرسون.

الأصوات يغذيها الصمت، النظرة اللا منتهية ! إذن لم يحدث أي شيء. يطبق النسيان فكيه بلا هوادة. التعزيم والفرجة، على الشاشة الصغيرة، مسلسل ظهور الإسلام، أليس شهر رمضان شهر البناء والتشييد، ملحمة تاريخية، أزياء ومناظر الزمن الغابر، هنا الطاغية بوجهه القاسي المصطنع، المنافقون، المتآمرون، وكذلك المتنورون، هنا السم، الخنجر، الطموح، الرشوة، التهافت على السلطة، الحسابات، المناورات السياسية السرية تلوث صفاء الرؤى

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

القدسية الطاهرة والمبادئ الأساسية، هنا فقط صور ألغِيَ مفعولُها ! عشّروا ثروتكم، تصدقوا صدقة حسنة، تلك التي تصدر عن العدل وصفاء القلوب، تلك التي تستلهم روحها مِن تطبيق صحيح وصارم للمبادئ القرآنية السامية، العالِمُ يستوي في درسه، يحدث الحضور ويدعو إلى التقوى، ألا يجدر أن يكون شهر رمضان شهر التقوى وعودة النفوس الضالة إلى سواء السبيل ! أين الشيطان إذن، أين الشر، أين ضحكات الاستهزاء، أين أصوات الغي، تحدي الكافر ؟ الوعظ، بدرة تلقى في وجه النظرة العمياء، البندير يدوي، ريح الغضب تعصف، ألا يقول أهل الأرياف إن هذا ما ينشط نضج الثمار المنتظرة ! سخرية، هزل عتيق، حكمة شعبية.

هو بُعدٌ، مسافة تتسع، أوراق ميتة، غبار متناثر، رؤية عن بُعد، ذكرى لإرضاء الفضول ليس إلا، لحظة يتذكر، تخيل أخباراً يقضيها النسيان، حكاية يتناقلها الرواة في الأسواق، يلتف من حولهم متفرجون معجبون، حيلة، شبكة نصبت في هاوية وشيئاً فشيئاً تقلصت عيونها فأثقلتها أشياء غير منتظرة : ألف زهرة، لسان العسل والنار لإثارة هذه الذكريات، رواية قصة تلك الأيام المحتومة حيث كادت كثافة الذباب الأسود المتجمع من حول الشمس أن يطفئ نورها؛ أنصتوا لما لم تسمعه آذانكم قط من قبل، ما لم تشهده أعينكم، العاصمة، جوهرة متألقة بآلاف الأنوار التي لا تُحتَمل، حديقة عابقة بالعلم والجمال، نور الإيمان الذي لا يُقهر، مدرعة جبارة راسية في سماء المستقبل، كادت المدينة المشرقة أن تغرق في دماء الضغينة، الله واليد الحديدية للوزير الأكبر - أكرم الله - وقفا لحسن الحظ في وجه الخطر تصدياً لهجوم رعاع أثملتهم أكاذيب الحقد، والادعاءات السافرة، عصابات ضللها الرعاة المزورون، الخونة الطامعون، المرتزقة الدنيئون، عملاء مؤامرة مدبرة من الخارج، أيام فظيعة تلهب ذكراها المشاعر : أشجع المحاربين ارتعدوا كالنساء، في داخل القصور الرخامية المرصعة بالذهب والأحجار الكريمة، قلوب أشرف الناس توقفت عن النبضان، ملؤها خوف قتّال، أجهضت النساء، صوت العندليب العذب اختنق فجأة، والمياه الجارية من الينابيع تجمدت في مكانها. آه ! جحافل الذباب تلك، عددها لا يحصى، خضراء وحشية، أي يد شيطانية قذفت بها فجأة إلى موكب الموت ؟ عقوق؛ في أي بلد في العالم يمكن أن نجد مزابل بهذه الكثرة، فضلات في مثل هذا التفنن ؟ كان النظام يخيم على حشرجة الأيام والليالي، العدل التام، كل في المكان الذي أولاه إياه الله والقدر، أي ريح لعينة أتت بهذا الحقد والغضب ؟ ماذا يمكن قوله ؟ كان العدل تاماً، العبد عبد، السيد سيد، الفقير في كوخه القصديري، الغني في قصره، الخبز الأبيض، الخبز الأسود، الحرير، الأطمار، الرخام، الخشب النفيس، الوحل والطين، لحم أبيض، جلد أسود، الماء الصافي، عصارة مزابل البهائم، الوردة والصبار،

ضحك دسم، تكشيرة الجوع، بطنة، بطون منتفخة، بطون جائعة، خبز حاف، مأدبة، زردة معطرة، خروف طري، هياكل هزيلة لأطفال عراة جياع، بطن تنفخه الريح، سيقان تصطك، كان العدل في أبْهَى شكلٍ، زهرة برتقال، عطر حفلة، نوار زُهري، رائحة نتنة، رطوبة قيح، عين مفقوءة في دم مصفر، يتمايل العدل بلا خلل، رجل الفضة والذهب، بورك اسمه، حلّق اسمه في الآفاق، إجلال على الألسن، والآخر عديم الاسم، الصَّلكَوط، الزُّوفْري، العَرْيَان، الْهرَاوَة لا إنسان، لا نبات، لا حجر، الصوت الذي تُسول له نفسه أن يلهج بأسمائهم، يجف مثل واد تراكمت فيه الحصى، ماذا أقول لكم، ماذا أقول لكم، صوتي يرتجف لهذا، صعقني الله في مكاني إنْ كذبت، ابصقوا على هذا الوجه إنْ كان يخدعكم، من أي سماء سقطت هذه الذبّابات السوداء الخضراء، براقع جذام أسود على شمس طالعة، إبليس نفخ في مزامير الموت ! جبال الذهب والكنوز الطائلة أوشكت أن تتحول رماداً ! إن كنت أكذب، مسخني الله تراباً، أنصتوا، أيها المارة الكرام، جناح اليمامة كان حنوناً، وانسجام السماوات محلقاً بالأنشودة الربانية لطيور الجنة، صدى الكون كان يهتز على نبرات اسم أوحد : شرجوماج، الأمير العجيب، سيد الأحلام ذات النجوم الذهبية، من الطفل الساذج إلى الشيخ المبيض في حكمته، شرجوماج، عندما يبتسم يتمتع البلد بكامله ببياض أسنانه البراقة، شرجوماج، عندما كان يرسل نظرة من بؤبئه الأسود، كل البلد يلبس حلية سوداء اللون شاسعة كثيفة، أو تشتعل باللون الأحمر القاني يوم احمرت وجنتا الأمير على إثر إحدى جهوده العظيمة ! شرجوماج أسطورة عجيبة، موسيقى سماوية، لسان عسل يُفعم بالنور ويهدئ القلوب، لحقت بجدودي اللعنة، وانفطر كبدي ورُمِي بي للكلاب إن كنت أكذب عليكم : من كل أرجاء الكون، من الأصقاع البعيدة، رجال من أبسطهم إلى أشرفهم، أدهشتهم شهرته، رحلوا يحذوهم الأمل في الاقتراب يوماً ما من وجهه ! شرجوماج ! بلد العدل التام، أرض السعادة، مهد الإيمان القوي، موطن العلماء الأفذاذ، الرسل ذوي المعجزات وشعب البسطاء الضائعين، جسد إلاهي مجسد في شخصه. آه معشر الأشراف، اسمعوا بآذانكم، لحيتي ترتعد، الحزن، الفجيعة تُبَيِّض صوتي حين أذكر أمام أعينكم تلك الأيام المرعبة، غضب الله، حتمية القدر، جنون أشخاص غرر بهم، استمالهم إبليس، ماذا أقول ! ماذا أقول لكم، لحيتي ترتعد، لساني يتيه : حلت مجاعة كبيرة بالبلاد، الأرض، ثدي نضب لامرأة، عجوز عاقر، سماء لا ترحم، قاسية قسوة الصخر، ولا دمعة واحدة، ولا نقطة ماء واحدة، أبداً لم تحل كارثة كهذه بالبلد السعيد ! لم تنبتْ ولا حشيشة واحدة في الحقول، المحصول الوحيد الذي توفر بكثرة هو محصول الذهب والفضة، لكن في المدن فقط، ولم يستفد منها إلا أولئك الذين كتب لهم الله ـ وكم كانوا شرفاء ـ أن يتلقوا هذا المحصول ملء

اليدين، كانت الكلاب أول من هجر الدواوير، الحمير الفطنة تبعتها بعد ذلك بقليل، هاجرت ـ وقلوبها تتمزق حزناً ـ أسيادها المرغمين ـ للأسف ألف مرة ـ على منافستها على أدنى حشيشة صغيرة هزيلة ومترددة بين الصخور والأحجار ! ليحفظنا الله ! وليَكلأْنا رب السماوات والأرض برحمته، ماذا عساي أقوله لكم ويمكنكم أن تسمعوه من خلال صوت اصطكاك أسناني من الرعب الصقيعي : الذباب بالمليارات، دم الكراهية الأسود، الذباب ! الذباب ! أفاع كانت تزحف في كل صوب تنشر زبد أكاذيبها المسمومة : اضمحلال، قيامة ! سلمت ألف مرة سلمت يد الوزير الأكبر من كل مكروه : لقد سقطوا مثل الذباب، بالآلاف، صعدت حمرة الغضب إلى جبهة شرجوماج، حمرة الخجل والندم فأحنى الوجه الطيب للشعب الطيب !

أسطورة ! خرافات، من يمكنه أن يصدقها باستثناء الطفل الرضيع.

الحقيقة في الفولاذ، الأسمنت المسلح
عيـن الأوس التي تسهر على نبض الأُمة
هلاً أنصتنا إلى «فطّومة»...

الحقيقـة في الفـولاذ، الأسمنت المسلـح، الخطـاب البـارد المـوضـوعي الـلاشخصي للإحصائيات، لمعالجـة المعلومـات : بلـد عصري بمعنى الكلمـة يتعبـأ بـأجهزة عصريـة بمعنى الكلمة «لا شيء من أحدث الوسائل غريب عنا»، عمارة شاهقـة رهـان جريء لمعمـار طلائعي، وما دام إطلاق اسم على الأشياء، فهنـا، أجل هنـا، على بعـد خطوتين من أكبر حي قصـديري بالمدينة، جرأة أخرى يتجاوز حدودها المنطق، إنها مقر «شركة أُوتِيك دَاتَا كُونْتْرُول»، مؤسـسـة شبه رسمية، عين الأوس الساهرة على نبض الأُمة، يقظة في كل حين : صمت، خشوع، لامبالاة موضوعيـة، ينزلق المصعـد نحو مرتفعـات الكفـاءة، عين يقظـة تغـور في أحشـاء الأُمـة، صمت سـائل كمـا في حوض اصطنـاعي، فتحـات كبيرة وراء زجـاج مضبب، ثـابتـة لتحول دون أي محاولة انفتـاح على الخـارج، تصفي الضوء، تحجب لمعـان الشمس، مشهـد قـاسٍ، هواء مـدجّن مكيف يُحتفظ عليه في حيـاد حرارة ثـابتـة، بعيـداً عن النّزوات المنـاخيـة والبشريـة؛ ينبغي للإعلام أن يكون مجرداً من كل ترسبات عاطفية، إيديولوجية، سيـاسيـة، ينبغي لـه أن يكون معقماً، مركباً انطلاقاً من عناصر اصطناعية، مفصولة عن كل تيار عاطفي، وسط القاعة الكبرى المقسّمة إلى مخادع، إننا نعيش على الإيقاع الأمريكي، عملية إفسال قلب مفتوح، نخبة رفيعة على مرأى من «الرب الكبير»، «الأخ الكبير»، المعلم المسؤول الكبير، رجـل بـدأ من لا شيء، سيأتي الحديث طويلاً عنه في حينه، بدأ من لاشيء ليتألق نجمه عالياً وسـط مكتبـه في قمـة

يقال جسراً من ذهب، «لن ينقصك شيء. أنت حر، أنت المسؤول عن كل شيء، هذا الأمر أمرك». «ماذا كان عليَّ أن أفعل ؟ لابد من العودة في يوم من الأيام، أليس كذلك ؟» هذا ما كان يقوله، مدافعاً عن نفسه، للأصدقاء، صباح ذلك اليوم في القاعة الكبيرة غداة «الأمجاد الثلاثة». مناقشة مع رشيد، مساعده الأمريكي لأنه، أي رشيد، تلقى تكوينه بجامعة هارفارد، معهد عال لإعداد رجال الأعمال. كان يكلمه عن الكمبيوتر، لا أثر لأي تأثير باريسي، مناقشة بين الرجلين :

هل رأيت، انفجرت الأُمور بحي بن مسيك، سيدي عثمان، وفي كل الأماكن تقريباً ! أجل أخذتُ سيارتي، كان اليوم سبتاً، لأحاول الإطلاع على ما يجري، حشد ضخم بشارع الفداء، منتهى التوتر ! لم تكن الأُمور قد انفجرت بعد، أجل، لكن صديقاً كان قد أخذ هو أيضاً سيارته، ذهب إلى منطقة الحبوس، على بعد مسافة قصيرة خلف ثانوية محمد الخامس، حديقة مردوخ، لست أدري إن كان المكان لا يزال يسمى هكذا، المهم هناك، استوقفه المتظاهرون، في الطرف الآخر من الشارع كانت هناك سيارة من نوع ڤلسڤاكن تحترق «إذا كنت لا تريد أن نشعل النار في سيارتك عد من حيث أتيت» هم الذين قالوا له هذا، أجل، مثلما جرى بالقرب من المطار، استوقفوا رجلاً كان في سيارته رفقة زوجته، أمروه بالنزول، لكن رجلاً تدخل وبالتالي لم يفعلوا به شيئاً، كانت الأُمور مدبرة إذن ! هذا أكيد ! وذلك الفرنسي الذي قتل بالطريق السيار، صخرة ضخمة قذفوه بها من أعلى الجسر العابر فوق الطريق، إنها الصدفة، لا أحد يعلم متى وكيف تندلع مثل هذه الأُمور، أكيد أنهم قصدوا تكسير الإضراب، أوامر وتهديدات من أول يوم عندما أرادوا إرغام الحافلات مثلاً على السير، إذن كان من الطبيعي أن يُرمى رجال الشرطة بالأحجار، إنهم الأطفال الأكثر ضراوة على الخصوص، وعلى كل فقد أُشبعوا ضرباً، أطفال عمرهم عشر سنوات يبدو أنهم رموا بالمسدس الرشاش، كيف السبيل لمعرفة ما جرى، لابد من انتظار الصحافة الأجنبية، «لوموند». أنت تعرف، لن يدعوها تدخل، ورغم ذلك، تنتشر الأخبار بسرعة، لكن لاحِظْ أن هناك مناطق لم يعلم السكان فيها شيئاً، إلا أموراً عامة، هكذا، لأن أشخاصاً حكوا، كما ترى، انظُرْ، هنا بدأوا يمحون في نفس اليوم آثار الرصاص على الجدران، ينظفون الأزقة، يخفون الأبناك والدكاكين المحروقة المبقورة وراء الحواجز. ورغم كل هذا، رغم كل شيء، لن ينسى الناس هكذا، الأُسر التي أُصيبت في موتاها، كما في سنة 65. المخطوفون، المعطوبون الذين احتضروا في بيوتهم ليفلتوا من الشرطة، لن تمر الأُمور هكذا، جنون أن يعلن إضراب عامٌ هكذا، ثم ماذا، سوف تعود الأُمور إلى ما كانت عليه من قبل، الصحف ممنوعة، الزعماء، مئات الأشخاص في

السجون، ماذا عساهم أن يصنعوا، ومع هذا لاحِظْ لو وقع كلام فطُّومة في آذان صاغية، ربما لم يكن قد حدث شيء من هذا كله، يطلق الرجلان ضحكة مدوية رغم كل شيء، فطُّومة، يالها من آلة عجيبة ! على حدّ تعبيرهم، تواطؤ معلوماتي، التعريب، المغربة تنتشَر بسرعة، حاسب إليكتروني مغربي الاسم في الحالة المدنية، فطُّومة بدل «إيريس» أو «كونيجوند»، متقدمة بجيل كامل عن أخواتها في كبريات المدن، بلد عصري، أليس كذلك ! لو تمّ تزويدها بكل المعطيات، لتوقعت بكل تأكيد أن الأُمور ستنفجر ! بلى !

أيتها الإحصائيات ! اركعن خمس ركعات، الجبهة في التراب : لاشيء يخفى عن عين الأوس : معطيات صارمة، ثقل الشبيبة، ديمغرافية متسارعة، عدد، أطفال ممدرسون، في كل دقيقة يبزغ فصل كامل، طفل من بين اثنين، من بين ثلاثة، من بين أربعة، من بين عدد لا نهاية له، أطفال في الشارع، الراسبون في الباكالوريا وقبلها، الأطفال الذين لا يتعلمون، ما العمل، طفولة، شباب منحرف، إسهال ينتشر بسرعة، عاطلون مسجلون غير مسجلين، مجهولون، نزوح قروي يومي، كوليرا، التهاب السحايا، أوبئة غير مصنفة مجهولة، إجمالي الدخل الوطني متواضع جداً، لكل ساكن، ساكن من بين عشرة، من بين مائة، من بين مليون حصراً، عدد السكان، إحصاء لخير الجميع، لنعرف أخيراً كم أنتم في كل كوخ، في كل غرفة يتيمة، في كل سنتمتر، في كل ميلمتر مربع، فوق كل فراش، فوق كل حصيرة، فوق الأرض، عدد المسافرين في كل حافلة، في كل سيارة أجرة، على كل دراجة، مشياً على الأقدام، ثمن الإيجار في الدقيقة بمعدل خمسين ساكنا لكل سنتمتر مربع، طول الاطمار لكل ساكن، نسبة نمو القمل دائماً لكل رأس ساكن، جدول أسعار اللحم الذي لم يستهلك أبداً، الخضر أحياناً، الأزبال، فضلات الاستهلاك اليومي، إنتاج النفايا بالأطنان، حسب كل دبور فردي عائلي، منحنَى المواليد الطبيعيين، اللقطاء، الحاملات لبذرات العنف، منحنى جَرَسي لسرعة المني في محيط مغلق، منحنى طبيعي للاغتصابات، اللواطات، المضاجعات غير الشرعية، الشرعية، المحرمة، العائلية، التجارية، ويازائه رسم بياني لتطور البغاء الجسدي، الأخلاقي، اللا يسمى، رسم بياني على لوحة ضوئية وإشارة طوارئ لتزايد عدد الشرطة، شبَكُوني، المخبرون، إنهم يصعدون من الأرض بمعدل واحد في كل ثانية، لوحة بيانية مجهزة أيضاً بمنحنى وأرقام خاصة بالمشبوهين، المكشوفين، غير المكشوفين، الممكن كشفهم، الذين ستثبت على كل حال إدانتهم عند الضرورة، ماركسيون حُمر، أشباح أرثودوكسيون رسميون، غير رسميين، يساريون، اتحاديون، نقابيون، إسلاميون، خمينيون، غير مصنفين، أبناء الصدفة، العشوائيون الذين تُشتمُّ فيهم رائحة المؤامرة، الخديعة، المس بأمن الدولة الداخلي والخارجي، ويازاء هذه

اللوحة البياناتُ التحليليةُ للتدابير القمعية الضرورية في كل ثانية، كل دقيقة، كل سنة، الجداول المتناظرة للاعترافات ووسائل الحصول عليها، خريطة وطنية منقوشة تبين مناطق الرّشوة، انتشار مهول محسوب وفق مقاييس مبتكرة، مُرفَقٌ ببيان يوضح الرموزَ المستعملة في التمثيل، خانات تناسب كل نشاط من الأنشطة اليومية للسكان، دليل موجز للنمو الاقتصادي، باعتبار حد الفقر المطلق قسيمة لا تُراعَى في الحسابات، بمليارات اللترات من العرق المبذول فردياً من قبل الطبقة العاملة إجمالاً، ضياع الطاقة القابل تحويلها، بلترات المني، وبجانبها مؤشر تطور الإمساك المرجو، الضروري، القسري، المرغم، نسبة التضخم المالي، الكلامي، الديماغوجي، لا شيء، لا شيء البتّة يفلت من الاستقصاء الموضوعي للمستقبل، فالمستقبل خاضع للفحص في كل جزئياته، والصدفة طبيعية خاضعة، أي حبة غربية تسبُّبت إذن في خلل الآلة ؟

فطُومة تلزم الصمت ! حديث في القاعة الكبرى : لنور الدين صديق، كان قد ذهب إلى شارع الفداء يوم السبت، كان الناس يبدون وكأنهم ينتظرون شيئا مّا. لا أحد يعرف شيئاً بالضبط، ثم كان هناك في الشارع رجل يبيع السجائر بالتهريب على حافة الرصيف، أقبل أحد «مَرْدَا» (على ذكر هذا هل تعرف أصل الكلمة ؟)، قلت إن هذا «المَرْدَا» أمر بائع السجائر بإخلاء المكان، وبما أن هذا الأخير رفض نجمتْ عن ذلك خصومة، تدخل المارة وخصوصاً الأطفال الذين رموا بالحجارة، وبسرعة أصبح هؤلاء «المُرُودْ» والبوليس في وضع سيء، وامتدت الاضطرابات إلى الأحياء الأخرى، وجاءت قوات التدخل السريع، إنها الآن مجهزة مثل الفرق الفرنسية للأمن الجمهوري، هل كنت تعلم ذلك أنت ؟ لاحظ حسب ما قاله هذا الصديق أن الأزمة بلغت ذروتها عندما أمسك الجيش بزمام الأُمور، كل من مر بالشارع إلا ورمي بالرصاص أو اعتقل، كان الخوف في منتهاه، الخوف الذي يجمد الدّم في العروق، على أن المدرعات جاءت بسرعة لتحمي الأحياء الراقية، وسط المدينة، وأخيراً انتهى كل شيء، سوف يذهبون إلى شاطئ طُوري مُولينُوس ليقضوا بضعة أيام مع عائلاتهم، تعرف أول شيء فعله عندما بدأ كل هذا، لقد سارع إلى إخفاء سيارته ! كلما اندلعت مظاهرات (قالها رشيد بالإنجليزية، كان يلذ له أن يخلط كلمات انجليزية في الحديث)، في أي مكان في نيويورك، لوس أنجلس، أحداث خطيرة، أموات، معطوبون، حرائق، نهب، اعتقالات، بل في أغلب الأحيان يتم اغتيال السود، ثم تعود المياه إلى مجاريها بشكل طبيعي، أما هنا فتجري الأُمور كما في فرنسا، تحشر السياسة في كل شيء، إذا كنا نرغب في أن تزدهر الأعمال، لابد من تجنب هذا !

طاولة على شكل هلال مغطاة بلباد أخضر، إنهم كلهم هنا، لقد تمّ جمعهم، استدعاؤهم سياسياً صباح ذلك اليوم، أو بالأمس، مدرسون بمختلف الثانويات، أساتذة مصريون، سوريون، مغاربة، بما فيهم المدراء، مساعدوهم، الطلبة، لأن مذكرةً، قراراً صادراً عن وزارة التربية الوطنية يهدد مدة دراستهم ومستقبلهم، خرجوا إلى الشارع في مظاهرات، إذن كان لابد من توقيف يد الخارج، الأساتذة حاملي بذرة التخريب، من الأهمية بمكان مشكل حركة الأفكار، إنهم إذن هنا في تلك القاعة الكبرى ذات النوافذ الزجاجية، يخدعون الأنظار بمناقشات أدبية تافهة، غريبة في هذه الأماكن المخصصة لبرودة الإدارة، يفتح الشرطي ذو الرشاش الباب، حشرجة، همس، حركة أمل، عز الدين، نظارات سوداء سميكة، رأس أصلع في وسطه، وجه رخو، أبيض، مشمع، يتوجه بالكلام «لضيوفه» : «أنصتوا، إني زميل لكم، فقد حصلت على التبريز في الإنجليزية، (لكنه لم يكن يهمه أن يضيع عمره في التعليم من أجل راتب هزيل)، أنصتوا، أنا آسف، لكني مضطر لتنفيذ الأوامر، أتمنى أن يتم كل شيء بخير، من حيث الإجراءات الإدارية، على كل لا يمكنني أن أُضيف شيئاً آخر. سأُعطي الأوامر لكي يأتوكم ببعض الغذاء، خبز، جبن.. آسف، لكن مع هذه الأحداث كل الدكاكين مغلقة، فاجأتنا الأُمور، إني أفهم تماماً، أنا زميلكم، لكني مضطر لتنفيذ الأوامر، لست شرطياً كما يمكنكم اعتقاد ذلك !» الهاتف على مكتبه، صوت لن يعرفه أحد أبداً يعطي الأخبار، التعليمات، سيأتون بدون أي كلمة تبرير، ليأخذوا بعض أُولئك «المدعوين» معصبي الأعين إلى تلك الفيلات الشهيرة، مارس 65، ينقشع الظلام سنوات بعد ارتسام زهرة هشة في سماء مريبة !

ترقية : عز الدين يستقبل الصحافة الأجنبية، وجه سمن، نظارات أكثر شفافية، صلعة أكثر اتساعاً، بدانة تدل على التوفيق والاستقرار، شوهت الصحافة الأجنبية الحقيقة، بالغت في الأُمور، أليس كذلك يا مستر جون هاريسون، نطق أنجليزي سليم، عز الدين مبرز في الإنجليزية، كان بوسعه أن يكون أستاذاً لولا بؤس الرواتب، مهماز الطموح، أجل، الصحافة الإنجليزية على الخصوص، وليفربول ما رأيكم فيها يا مستر هاريسون ؟ إننا لسنا وحوشاً، بلادنا ليست دكتاتورية من ديكتاتوريات أمريكا الجنوبية، القانون والنظام لابد أن يُحترما، شاهدوا ما حدث في روسيا، بلد الاشتراكية كما تقولون، لا يمكن أن نترك مجالاً للفوضى، للنشاز، إنه الجنرال ديغول، من عندكم هو الذي قالها، (يوجه الكلام هذه المرة لمبعوثي الصحافة الفرنسية، وبصفة خاصة لهكتور بوتيرون، نجم الصحافة الباريسية، خبير معروف بالعالم العربي الذي خصه باستطلاعات كان لها صدى كبير)، عز الدين مزهو بوقع كلامه، لا يخفى عليه شيء، مطلع أيّما اطلاع، أجل ما معنى الزيادة في أسعار المواد الضرورية

الأُولى ! أكيد حادث عابر، طفح الكيل لا أثر له عندنا، النـاس وطنيون عنـدنـا، هنـاك فوارق مؤلمة، نعم، صحيح، هؤلاء الأشخاص الـذين يريـدون صب الزيت على النـار، أقولهـا لكم، لا تفرحوا لأعداء الوطن، ينبغي أن يشمر كل واحد منا على ساعد الجد، كمـا قـال السّيـد «بـار»، أليس كـذلـك يَـا سيـد هكتور بوتيرون ؟ عز الـدين يضحـك، مزهو بوقـع كلمـاتـه، أنصتـوا، بصراحة، إنكم لا تفهمون شيئـاً في وضع البلاد، إنكم كلكم أجـانب، لستم على اطلاع بخبـايـا الأُمور، عـز الـدين يختنـق في نقيقـه، اسمعـوا، إني شخص يسـاري الاتجـاه، في شبـابي كنت شيوعياً مناضلاً، انظُروا إذن ؟ أجل صحيح، هناك دائماً بعض الانزلاقـات كمـا يقـال عنـدكم، أليس كذلـك يَـا عزيزي هكتور ؟ بصراحـة، إنكم تقعون في شبـاك تسميم الأعـداء، عز الـدين مزهو بوقع كلماته، ابتسامة وغمزة عين، إننـا بلـد ديموقراطي، شـاهـدوا البلـد العربي الوحيـد الذي يملك حزباً شيوعياً مسموحاً به، شرعياً، بل أكثر من ذلـك، إن سكرتيره هو الـذي يحمل حقائب الوزير الأول خلال تنقلاته، ضَحِكٌ مدوٌّ لعز الدين، بصراحـة ! عز الـدين يضغـط على زر الجرس فوق حافة مكتبه، يدخل البواب، صينيـة بيـده، مبردات، كوكـا، شـاي بـالنعنـاع : اعذرونا، أنتم تعلمون أننـا مسلمون، المشروبـات الكحوليـة محرمـة علينـا حتى لتقـديمهـا إلى ضيوفنا، بصراحة، هل رأيتم كل هذه المشـاكل حول استهلاك الويسكي، مـاذا تشربون، شـاي، عزيزي هاريسون ـ قالها بالإنجليزية ـ نطق سليم، عز الدين أستاذ اللغة الإنجليزيـة مبرز لولا بؤس الرواتب، كوكا، عصير برتقال، عزيزي بوتيرون !

إبليس، لفافة حشيش، جوانات، معجون، نعيم الآلهة ! من يمكنـه أن يقول من أين جـاء الانزلاق العذب. الناطق الرسمي المحترم، المتنكر التائه في دروب الطموح، يطفو حـائراً على سطح أقواله، بالإنجليزية : أجل، ليفربول. القيامة، أليس كذلك، عزيزي هـاريسون، القيـامـة، شيء لا يتصور، من كـان يتوقع هـذا، لو كـان هنـاك ثوريـون لانـدلعت الثـورة، طهران على ضفاف الطاميز، إنه نائب محافـظ، ليس عمـاليـاً، هو الـذي قـال هـذا، أكيـد، بسبب ملاحظـة البوليس، طوال النهـار، السنـة، القرن، واستفزاز المواطنين السود، الصفر، المسـاكين الملـونين، من كل الأجنـاس، هؤلاء البـوليس «مُرُود» حقيقيـون، بكـل تـأكيـد، تتخلـل كـلامَـه عبـاراتٌ إنجليزيـة، كـانت الأُمـور ستنفجر لا محـالـة، خمسـون شخصـاً في حُجرة، نفس القسـاوة التي نشهدها تقريباً عندنا، ربما بالإضافة إلى انعـدام المـاء، انعـدام الكهربـاء، لا شيء يؤكل، براز، نفس الوضع عندنا، على ذكر هذا، كيف تترجمون الصلكَوط، الزوفري، «باسْتَـار» «فـاكِينْ آس» أليس كذلك ؟ بسمة رضا، ينقر الممثل المحترم الجرس مرة ثانية، يدخل البواب وبيده صينية، وقفـة عسكريـة صـارمـة، غُريبـة، حلـويـات. إبليس، قنينـة «شيفـاس»، مسلمـون نحن !

ـ بالإنجليزية ـ ضَحِكٌ مدوٌّ، إنكم لمحظوظون، زملائي، برلماننا ديموقراطي بحيث إنه لم يعط لنا الترخيص بإطلاق الرصاص، رهيب ! قهقهة تكاد تهتز لها الجدران ! رأينا هذا على شاشة التلفزيون، كان ذلك مؤلماً جداً، لقد سمّتهم أوباش، دمويون، كانت بعد هَذا رافضة أن ترى وجوههم الوقحة، لكن زفاف الأمير شارل شفع لهم، كما ترون سادتي ـ تصبح اللهجة صارمة لحظة، إنجلترا مهد الديموقراطية، ما رأيكم ! ذلك ما كان ينبغي استعماله، أربعة مسحّلين ومجزوزان، مجزوزان وأربعة مسحّلين، هكذا تقولون عندكم، أليس كذلك هكتور بوتيرُون ؛ ضجيج كبير، شيكسبير، قرقرة في «الشيفاس»، لا ينسى شيئاً، صديقي العزيز، اليد الرشاشة تكنس الأفق فوق الرؤوس، طاق، طاق، طاق، شلال ضحك في «الشيفاس»، رصاص من القطن ! انتهى كل شيء، نظفت الساحة ! قالها بالإنجليزية ـ مهد الديموقراطية، ليفربول، الدار البيضاء، مغامرة مغربية ـ بالإنجليزية ـ سطوب ! أوباش دمويون، مؤخرات مدماة، نُظّف كل شيء ! أضعكم على متن أول طائرة إذنْ... أصدقائي الأعزاء، إذنْ... وجه الشر، عاصفة من «الشيفاس» ! أو إليه الله... مهد الديموقراطية.

مُنِيـــر

أصوات، قطع لحم ممزق، كلمات عِظام مُبْيَضّة، مجهولون منسيون، كلمات تائهة عمياء، وسواس قلق مُلِحّ يجري تحت الأرض، ينفجر فجأة في صورة شواطئ غير منتظرة، وجوه مرايا حائرة، أفخاخ ظل وضوء، مصائر تنغلق على العبث، اللا معنى، لعب !

كيف يمكن توقيفهم، يأتون من رِيُو مَرْتِيل على طول الشاطئ، لكن هذه السنة، لا يعرض النادي إلا نهوداً ذابلة، مهترئة، ثمار الشيخوخة، فصل سيء ! كيف يمكن توقيفهم رغم ذلك : حواجز، قطع زجاج على الشاطئ، على الحافة فقط، شيء مروع. لكن ما العمل إذا كان ممتنعاً على المرء أن يتمتع بالهدوء ؟ فصل سيء، البحر لا يهدأ، يوم آخر بدون خروج، كان بوده مع ذلك أن يجرب أخيراً محركه الجديد، من سطيحة الفيلا يتطلع منير بقلق، لم تهدأ الأمور بعد، تبدو الأمواج عالية جداً، هم، لا يوقفهم هذا، إنهم وصلوا إلى هنا مثل الذباب، منير يترقب، يمسك بيديه الرسالة التي توصل بها اللحظة، هل يقرأ، يتابع حواراً مع نفسه لا نهاية له، متجدداً باستمرار، صعب قوله، يحمل الظرف خاتم مركزية القنيطرة، لكن لم يكن في حاجة إلى هذا ليعرف مصدرها، سعيد يكتب، غريب ! يتساءل لماذا، كانا يلتقيان من حين لآخر فقط، منير، ستفاجأ دون شك. كان من الممكن أن أبدأ رسالتي هذه بعبارة : عزيزي، صديقي العزيز جداً، أوه، لم كل هذا ؟ كان من الممكن كذلك أن أفتتح بالعبارة التقليدية : «الحمد لله» لكن هذا سيبدو ناشزاً بالفرنسية، هذه اللغة التي نستخدمها ! منير يقرأ دون أن يقرأ : من جديد أنا في السجن، أتَعْرِف هذا، كان يعرف، بالطبع يعرف،

كيف كان يمكنه ألا يعرف، منذ الإعلان عن الأحداث، لماذا هذا التذكير، منير متضايق، خانق، يتطلع إلى البحر، لم يهدأ بعد، أي حاجة في أن يكرر دائماً نفس الأُمور، نضال لا شفاء منه ! كان منير يتوقع أنك في يوم ما سترى بجلباب أبيض، بَلْغَةٍ بيضاء، بزي تقليدي تماماً، للذهاب إلى صلاة الجمعة رفقة كل الأعيان، أين ذهب سروال «الدجين» بلونه الشاحب، المناشير، بلهجتها العنيفة اللهجة التي كنت توزعها على باب الحي الجامعي ؟ ببذلة «الدجين»، مسعور، قبضتان مشدودتان، أمل عنيد ! عندما رأيناك، تعرف أننا دخلنا وراءك، في دور المتملق الطامح إلى منصب وزاري، ظننا أن الأمر لا يعدو أن يكون هزلاً ! مائة مرة نفس الأمور، منير يهز كتفيه في حركة تدل على ما يشبه اللا مبالاة، كما لو أنه يريد التخلص من شيء يضايقه، بصره شاخص إلى الأُفق مترقباً فترة هدوء، ماذا حل به حتى يكتب ولماذا ؟ لم يكونا يلتقيان، وعندما كان يحدث ذلك، كانا يتعانقان كعادتهما، لكن هذا لم يكن ليعني شيئاً، وسط العبارات الساخرة. أعرف أنك لن تفعل شيئاً، حتى مجرد خطوة حذرة، سرية إذا أتيحت الفرصة السانحة، هناك ربما حظوظ إذا كان صوتك مسموعاً، لكن الخوف يحجمك، إننا نعيش جميعاً بالخوف، الطمأنينات، من خلال الخوف، التوازن، إذن يمكنك أن ترى هنا. هؤلاء الأموات. هاته الاعتقالات دون حراك ! قبضة مشدودة على الورقة المكمشة، منير يشعر بحنق أصم يتصاعد داخله : اعتقالات، أموات ! ظل محمولٌ من قارة غائصة لَبِنَات قلعة منهارة، منازل الليل السرية، مرة أخرى وللحظة يعيش من جديد تلك الأيام الخطيرة، أيام التوتر، الانتظار الحائر، الأحداث المعيشة من باريس، إلى جانب الرفاق، منفى محمد الخامس، عمليات المقاومة الأُولى، تلك الصرخة الطويلة وسط الليل التي أخمدتهم رعباً : أول وجه، أول منظر لتعذيب مُمَارس بصورة متقنة من قِبل أحد قدماء «الكَيستابو» الذي أتى لتعزيز الشرطة السياسية للحماية، كان يرى من جديد صديقه، رفيقه، أحد عناصر الجماعة، معلقاً من رجليه، مخنوقاً بالإغطاس في مخلوط البول والنفايا، تعذيب بالمغطس، منكسراً بفعل وجع الآلام بحيث أنه، لما أخضع لشحنات كهربائية مثبتة تحت خصيتيه، حاول بين استنطاقين أن يرتمي من خلال إحدى نوافذ المخفر، مشهد رعب مضاعف مئات، آلاف المرات، نبأ النفي الذي يتناقل بين الأسر، الأب أو الإبن، ابن العم، القريب، المجهول، المعتقلين، المعذبين، المغتالين، سلسلة ألم يعود تاريخها إلى 44. رجال أعدمهم جنود لُوكْلِير بتمارة، بفاس أيضاً، أماكن عاتية، بوتقة الشجاعة والإباء، ثم كان فجر الاستقلال، من لم يعشه لن يعرف شيئاً. منير وسط ضوء عار كثيف، يستعيد ذلك الوصول إلى معسكر «كازس»، أرضية مطار الدار البيضاء العتيق، حينذاك، كانت التجهيزات بسيطة، يستعيد ذلك

الاستبطاء لحياة جديدة، الابتداء في الحياة، صدمة العودة، فجوة الضوء في نهاية ليل طويل، ومنذ اللحظة، أجل منذ اللحظة، وسط هتافات الاحتفال، علامات إرهاصات المأساة: المقاومة ممزقة، تعالج في الدم، في المجابهات والاغتيالات المرتجلة، تنافساتها تناقضاتها وخلافاتها حول الأشخاص والطموحات، خوف، فتنة لا اسم لها، منير يرتعد، يفكر في سعيه، هل كان عليه أن يذكره بكل هذا. منير مجمد الأوصال من أثر الرعب والألم : مرأى هذا الصديق، أحد مسؤولي الحزب، الذي كان يُكِنُّ له الكثير من الإعجاب والعطف، اغتيل ببرودة في أسفل سكناه، على يد قتلة مقاومين، عدة رصاصات في الرأس، محمود النجار أُحرق حيّاً داخل دكانه، منير شعر بالخطر يترقبه، كان القلق يبرم فؤاده، أخفاه الرفاق في المستشفى في غرفة صديق طبيب، كان لا يخرج إلا قليلا، دائماً تحت حماية حراس غير مهيئين ولا مسلحين بما يصلح لهذه المهمة. منير يجري الاتصالات تلو الاتصالات. يحاول ربط الصلة بمسؤولي الطرف الآخر لضمان إنقاذ حياته مقابل مساومة لا يعلمها أحَدٌ كأنْ يحفظ السر، في تلك الفترة من الإجماع الوطني، لم يكن في نية أحد أن يؤاخذه على احتلال وظائف رسمية، حتى ولو كانت بإدارة مصالح الأمن، وعلى كل فقد كان العهد عهد استقلال، ثم إنه من المركز ذاك كان بوسعه أن يقدم خدمات لرفاقه، سعيد يعلم كل هذا، لم يكن منير وحده الذي تصرف بتلك الطريقة، لماذا إذن إثارة كل ذلك الماضي، من يمكنه أن يهتم بذلك، يشدد منير، يشدد قبضته على الورقة المكمشة، مترقباً تحسناً في الأفق، كم هم الآخرون الذين ساروا على الدرب نفسه، كلمات قاسية جارحة، أصوات، حسابات مالية جافة، التوفيق، الإغراء، جاذبية السلطة الفاتنة، العام الأول من الاستقلال، العام الأول من السذاجة الكريمة، شبان تخرجوا لتوّهم من المعاهد العليا، من الجامعات الفرنسية، تقف من ورائهم شخصيات سياسية محنكة، يحتلون مكاتب الإقامة العامة، يحولون المصالح إلى وزارات، يتدربون بحماس على أسرار الدولة، على فن الحكم، براءة، بيت زجاجي، حلم على نواصي الرياح، مختبئاً في ظل ليفْيَتَان ينتظر بصبر أن يأتي إليه هؤلاء الأطفال التائهون ! كانت الآلة الكبرى قد انطلقت : السلطة تفسد، لِمَ كل هذا إذن، لِمَ يكتب إلي، ليذكرني بماذا ؟ حركة فجائية، تنفتح اليد، الورقة المكمشة تسقط على الأرض المعشوشبة، حميد والرجل المسخر لكل الخدمات، يقود المجزة الميكانيكية، العشب المقطوع يتطاير كالمطر، الآلة الكبرى انطلقت، الشوك العنيد، العشب البري جُزٌّ، قُطع من جذوره، سُحق، سعيد ! لم يفهم بعد، لن يفهم أبداً، دائماً ذاك الهوس، تلك الهلوسة، أن ينصب نفسه حكماً كلما كانت هناك أحداث، منير ينتظر، حائراً، قلقاً، أصبح الشاطئ في الأسفل الآن أسود من كثرة البشر. إنهم جاؤوا،

عجباً، كيف السبيل إلى توقيفهم، ذباب، هاهم ببطّيخهم، عندما لا يكون صباراً، أوساخ في كل مكان، نفايا، قنينات البلاستيك، منير يجتر وميض أمل، ربما ستهدأ الريح، إن شاء الله ! منير ينظر، هذه المرآة التي يمدها له سعيد، إن كان ينوي بعث الاضطراب داخله ! هدأت الريح، مضت السنوات، بداية تجاعيد دون أية حيرة، الوجه، قناع الامتثال، يقارب الخمسين، بل أكثر، علامات مقروءة، لا مقروءة، معارة محتملة، نضج، منير، صباح ذاك اليوم بالذات، تتحسس الأصابع الوجه في حيرة، غزا الشيب رأسه علامة على النضج، لكن هذا بدأ لديه مبكراً جداً ! سمنة، ثخانة، تحاتّ، ربما أيضاً كثرة الويسكي، الآلة الكبرى منطلقة، حميدو يدفع بكل قواه، المجزة تهيج، صوت النعارة الأبح، يتساقط العشب المجز مثل الغيم ! لعبة مرايا، منير يرتعد، لماذ يفكر في هذا الآن، ربما بسبب رسالة سعيد، لا يعرف لماذا فكر أمس في ذلك، كان قد ذهب إلى مطار النواصر ليودع أحد الأصدقاء، لا يعرف لماذا توقف ينظر بإمعان مرح إلى مجموعة أشخاص متجمعين بقاعة الذهاب. إنهم بدون شك أشخاص معروفون، كما يقال، إذ استطاعوا الدخول إلى هذه القاعة الخاصة بالمسافرين، كان منير يبتسم، مشهد يذكره بشيء ما، أسرتان بلا أدنى شك، أصدقاء، حديث بين النسوة، العالم الخفي للنساء أعيد تركيبه في مجهولية هذا المكان العمومي، كلمات حنان، ضحكات، عتبات على طول الغياب، وصايا، متمنيات، والرجال من جهتهم، أبهة، حرارة، عناق، ضحكات عالية قوية ظاهرياً، أجيال متمازجة، تلبس الحاجّة رغم سنها جلبابها، وجهها مكشوف مع ذلك، تمشي بصعوبة وإباء، لكن كان عليها أن ترافقهم، حفيف الزمن، جو صفاء، جو باهت، أضواء، هذيان الشبان، تباشير الارتياح تعلو سحنتها، سراويل «الدجين»، جاكيتات جلدية، مسافران، باريس بدون شك، هو وسعيد، أي انفعال هذا الذي فاجأه بغتة ولماذا، لماذا الآن، الذهاب ربما، هو وسعيد، قيل لهما ينبغي أن يرتديا ملابس لائقة، بذلة، ربطة عنق، أحذية جلدية، زمن آخر ! منير يترقب، هدأت الريح، كلاهما كان شديد التأثر، فالرحيل، فراق الأسرة، مهما قيل، لابد أن يكون له أثر في النفس، خصوصاً في ذلك الوقت، متأثران، صامتان، متطلعان أحدهما في الآخر، تائهان شيئاً مّا، محرجان تقريباً وسط ذاك السيل من القبل، من الدموع، من الأدعية، من الابتهالات إلى الله، من الوصايا الأخيرة، من النظرات، من بسمات الخبث الصادرة عن فتيات الأسرة، تواطؤات صامتة، علاقات غرامية لا تجرؤ عن البوح بها، مسافران متأثران يحملان معهما القوة الجديدة، عمر رغباتهما، يرحلان وأعينهما متعطشة إلى الكسب، إلى الاكتشافات، على ضفة كون جديد، منير يرى الآن حجم التغيير، متسللين كانا أيضاً، منير وحده يضحك الآن على هذه السطحية وهو يراقب البحر. آه ! تلك الحقيبة

الشهيرة، التقاليد، فأل الخير، التي ترافق سفر كل شاب شريف المولد، رواية، ملحمة الحقيبة، الصندوق، الطلسم العائلي حافظ التقاليد، الحامي من عين السوء، من إغراءات إبْليس، كان الاختيار خطيراً، أبوه وأبو سعيد، سوياً، ألف بينهما القدر إلى جانب صداقة قديمة، ذهبا إلى السي المختار، رجل ثقة، صاحب البَزّار، هو الشخص الملائم في هذه اللحظة الخطيرة، الله يا ودّي ! كيف لن أعطيكما أي شيء، مسافران، رافقتهما رعاية الله، السي المختار، إنه لأمر هام، إنهما مسافران إلى الخارج، ينبغي أن تكون الحقيبة متينة، أن تنفعهما لمدة طويلة، أن تكون واسعة بحيث تسع الملابس، الكتب، إنك تعلم جيداً، الدراسة أمر جدي، الله يا ودّي، لن أعطيكما أي شيء ! تبيعنا بسعر مناسب، حاجة مليحة يمكنكما أن تثقا فيها، رائحة الجلد الجديد، الصندوق ـ التوثيقي، مغلق على النسيان، الذكريات المنطفئة، التراكم، الفوضى، التغيير الذي ينفذ إلى القمصان، الملابس، الرسائل، الأشياء البكماء، عطور وأيام مختلطة. كانا يضحكان لهذا المشهد المعلن للسفر القريب، ينطفىء الصوت الأبح في تأوه، تتوقف المجزة، يتساقط العشب المجز مثل ريش رهيف، يخيم الصمت، فجأة ينتبه منير، ينصت بعيداً، بعيد، جداً، في أغوص أعماقه، همهمة هائلة تتشكل من آلاف الأصوات، صوت واحد، سعيد، تكتنفه الموجة العاتية، تفيض من حوله، لا لم يكن يريد أن يرق، فخ التأثر والأسف، من يمكنه أن يقول كيف تتطور الأمور، ذينك الشابان المسافران، منير يتذكر أنه كان يتطلع إليهما كما لو كان يسعى للنفاذ إلى سر فيهما، لكن غداً، مع مضي الزمن ! سعيد لن يتغير، سيبقى دائماً سجين ذلك الحلم، حلم شبابهما، صداقتهما، سجين ذلك الوعد الذي لا يقبل الفساد، الوعد العنيد، الذي لا يأخذ أي شيء بعين الاعتبار، منير يتأرجح بين شعور باعياء وإحساس بالضيق في الآن نفسه : انظروا إلى هذا، كان يتطلع بغضب إلى الحشد على الشاطئ، كتلة متلبدة من كل ما كان يكرهه، الأوساخ، النفايا، قشور الدلاّح، الأوراق الوسخة، قنينات البلاستيك، الفوضى، كان يكره الفوضى، هؤلاء الأشخاص لا يحترمون شيئاً، يكفي النظر إلى ما صنعوا : بنوك منهوبة، حتى الصيدليات، محطات البنزين أُحرقت، سيارات كذلك، لو لم يتم اعتقالهم فالله وحده الذي يعلم ما كان سيحدث، الشعب، الشعب ! منير يمقت الشعب، الكلمات، الكلمات، ثم لماذا يؤاخذونه على نجاحه، ماذا يعرفون عن السلطة، حتى سعيد، منير يتذكر، مزيج من الأنانية والرضا، يتذكر، أمس لم يطبق له جفن، حائراً، محموماً، ممزقاً بين العديد من الأحاسيس، ماذا سيعتقد الأصدقاء، رأسه يطن، لم يكن يعرف إن كان حلماً أم لا، أصوات تتحدث بصوت خفيض، كان يرى قاعة استقبال كبيرة، جوق موسيقى أندلسية على منصة، طاولات دائرية الشكل، مشاوي، خرفان كاملة رائعة،

هضاب من الكسكس، خدم بُكم بطربوش أحمر، صدرية مطرزة، سروال تقليدي وارف، صامتون، هيئة فخمة، عمليون، المأدبة، عرايا، أموات، متسولون هزيلون باطمارهم يهيمون في الممرات، يجمعون البقايا في أوانيهم القصديرية، يحملون إلى أفواههم المتلمظة قبضات من الكسكس، أيديهم ترتجف، يتساقط الطعام على الأرض، هؤلاء الأشخاص بهائم، كان وسط قاعة الاستقبال، هل كان يحلم، كان هو أم شخصاً آخر، جلباب أبيض، بُزيوي، صوف منسوجة بيضاء دقيقة ومرهفة فوق قلب مفعم بالسواد، طاعة، قرون من التقاليد، اليد التي قبلها تأمره بالنهوض، أَبَويا، كلمات تندفع، تتصادم، لم يكن يعرف إن كانت تصدر عن ذاكرته أم كان يتلفظ بها الآن لِتوِّه، هبة، صوت السلطان الأبوي، تحدي الغرب، الرسالة، تشييد أمة عصرية، لابد من كفاءات، أُطر مؤهلة، تربية الشعب، الديمقراطية مسألة تربوية، منير يوزع المناشير على باب الحي الجامعي، الشعب المناضل من أجل العدالة والديموقراطية، هبة الصوت الفخم، المادية والإلحاد تناقض تام مع مبادئنا، الإسلام هو الثورة التي تسمو فوق كل ثورة، «باسم الله الرحمن الرحيم» العبارة المقدسة «نحن» تفتتح الظهير، الظهير خاتم على حياة، منير تمّ تعيينه، منير وزير، ليس اسمياً فقط، ولا استعمارياً فلكلورياً، وزير على طريقة ألف ليلة وليلة، بل وزير : حلقة السلسلة تلحم من جديد، تلحق بمتانة بالتقاليد عبر القرون، تنغلق الدائرة المطلقة، الكلام تحت الحراسة المشددة لن يضيع بعدُ في الهوامش المطعون فيها، من يمكنه التفكير في مؤاخذته على نجاحه، نجاح الأعمال، الأبناك، شركات عديدة أصبح اليوم الرئيس المدير العام عليها بعد أن تخلى عن مهامه الرسمية، يدير منير مفتاح محرك سيارته من طراز «بي إيم دوبل ڤي» لينزل إلى الشاطئ، سيضطر للذهاب إلى باريس لفحص المحرك، ماذا كان سيحدث لو لم يعتقلوا، يقهروا ! ذلك الخوف الذي يقبض بالأحشاء، هذه المرة راوده الاعتقاد بأن الساعة دقت، معلنة نهاية ذلك العهد الذي كان فيه كل واحد يتمتع بالحياة الرغيدة التي كان يرضاها.

«الله أكبر، منير، لا أكاتبك كي تتدخل، أعرف أنك لن تفعل على كل حال شيئاً، لقد ولّى زمن كنت تتوسط فيه لصالح رفاقك، لن تذكر، الله أكبر، صرخة طهران العاتية التي زعزعت العالم تتقدم مثل موج عال، بصورة لا ننتبه لها الآن، لا نشعر بها بعد، هي من بعيد آتية، لكن عندما تدق الساعة سنغرق كلنا، أنت، أنا، نحن رجال الماضي». ألمت بمنير رغبة في التوقف، والعودة على أعقابه، ليحرق تلك الرسالة المكمشة التي قذف بها على العشب من أعلى السطيحة، أجل ليحرقها، ليشعل فيها النار كي لا يبقى منها شيء، كي يذهب الريح برمادها، حميدو دفع بآلته، العشب مُجزٌ على مستوى الأرض، نقياً، متساوياً. لن يسأله أين

ذهبت قطعة الورق تلك، منير ينزل نحو الشاطئ، وراء مقود سيارته الفاخرة، يُرفع الحاجز، يحيي الحارس الرجل العظيم، باحترام، منير يرد بعجرفة، عينان محتجبان وراءِ نظارات داكنة، قميص صيفي رياضي من «إيف سان لوران» أو «سالطو». شك ممكن، ابتسامة متعجرفة تتصنّع الطيبوبة. يضغط على البنزين يقفز محرك الفولاذ الأزرق، سياقة رياضية، متوترة، صليفة، آه من هذا الرعاع، ضغطة بنزين ويُسْحَقُون جميعاً ! كل حواجز العالم، لا شيء يوقفهم، سراق الزيت، هكذا هم، يخرجون من كل فج.

احتفال بربري !
بوجمعة، الرجل ذو المعطف الوبري
يوم السبت الدموي ذاك، نشيد الأطفال الموتى

ألم نقل لكم هـذا من قبل، في أيـام يـونيـو هـذه، شمس شـديـدة الحرارة، ثمـار الصيف والغضب تبـدأ في النضج، في أسفل الحـداثـة، ربمـا كـانت إحـدى تلـك العمـارات الجميلـة، المشيدة من الأسمنت المسلح والصلب والزجـاج المضبب، يقف رجل : بوجمعـة، بـالقرب منـه عربة يدوية، من صنعـه بـدون شـك، عصريـة بكل تـأكيـد، لأنهـا تسير على عجلتين من نوع «ميشلان»، طبق خشبي عريض مملوء صباراً، مدية في اليد، بوجمعـة يترقب أن تبعث السماء بالزبون الموعود. بوجمعة ! هو دون شك أحد أولئك «الصلاكَـط» «الزُوفريـا»، وصمـة عـار على جبين الحـداثـة، شـامبـو، كرمـوس النصـارى، هنـديـة، تين الهنـود، هـديـة من الأزطيـك، من الأمبراطـوريـة الإسبـانيـة إلى الشعب المغربي، عـودوا إذن إلى القرن التـاسـع عشر، أقنـاري، الأصالة البربرية، أسماء سحرية للإشارة إلى هذه الفاكهة العسلية، من دم وذهب، ذكرى احترام وعطف للأجيـال التي كـانت تعرف كيف تستغني عن المـديـة لتشق قشرتهـا : لـلاَّ مْبـاركـة، رحمها الله، كانت تعرف كيف تمسك ملء كفيها بالفاكهة بعد أن تغمسها في سطل ماء لتلين أشواكها الدقيقـة التي لا تُرى، وبغرزة من ابهمهـا تشق القشرة، تضغـط بـأصـابعهـا على طرفي القشرة الغليظة المشقوقة وبضغطة واحدة تقذف في فمها اللب اللذيذ، حركة خبرة أكيدة، من عمق التقاليد، مذاق، احترام الأزمنة السالفة، أقناري، شامبو، هندية، فاكهة صيفيـة، لـذة الفقير والغني أيضاً، لكنه يتستر من الخجل، فاكهـة الصخر الجـاف، بفضل أشواكـه الخضراء العـاريـة

يحمي الزريبة البئيسة، الضريح المبجل، بياض مشرق، صديق الكلاب الهائمة، البشر الهائمين، فاكهة العشق والغضب المشروع، نسخ حكايات المغامرات، قصص الحصر الأسطورية، مؤشر أكيد على مستوى المعيشة : أمس كان يكفي المرء استعارة المدية كي يملأ بطنه كما شاء، أما اليوم فينبغي تأدية الثمن بالقطعة، هندية شامبو، أقناري، كرموس النصارى، فاكهة القدر، فاكهة ميتافيزيقية عند مقارنتها بالتفاحة، اختراع سمج لخيال فقير، أنظروا إلى علامة القدسية هذه، سعائف خضراء مفتوحة منتصبة نحو السماء، متعانقة في حركة ورع، ساهرة على الزاوية، علامة المعذبين في الأرض، نجمة منقوشة على جباه أهل الدرجات السفلى، هناك حيث ضربت الرصاصة الرجل العريان، صاحب الهراوة، الصلكَوط، الزوفري، المتضور جوعاً، ذلك الذي ظهر ذات يوم مثل سيل حقد أسود من بَرِيَّته القاحلة حيث لم يكن في وسعه مصارعة الحيوانات من أجل أدنى نبتة عشب، غيوم غربان مفقوءة الأعين، تحلق عالياً في سماء ليل عنيف. هندية، شامبو، بوجمعة، مدية في اليد، يترقب الزبون السماوي، حظه، الرّزق، بضعة دراهم إذا أراد الله، لها شأنها في الكف، في الصبر اللا منتهي طوال أيام بلا خبز، ذاك اليوم، وسط الشارع العريض، «المُرُود»، وحوش في بذلات رسمية، قبعة سوداء، حذاء عسكري، هراوة معلقة بالحزام، كانوا يمشون جيئة وذهاباً، بعضهم كان مسلحاً بالبنادق، كان المارة أقل سرعة في حركتهم من المعتاد، يتوقفون منتظرين شيئاً لا أحد يعلمه، الحافلات أقل عدداً من الأيام الأخرى، كلمات تتناقل همساً : إضراب، الأنظار الحادة، ثابتة تقريباً، تتساءل؛ تذكّر، طيور الزمج على الرصيف الصغير المتعامد شاخصة في سماء بكماء، في زمن آخر، في مكان آخر، «المُرُودُ» يعبرون الشارع، وبوجمعة يلاحظ في هدوء، يتذكر : حدث ذلك قبل خمس عشرة سنة، ربما أكثر، ليس للذاكرة عمر، كان قد دخل لتوه من الورشة، فرصة شغل لبضعة أسابيع، كان يسكن بحي كاريان سانطرال، كان هذا اسم أول وأوسع حي قصديري، إكليل جنائزي للمدينة العظمى في عهد الفرنسيين، كان يطلق عليها أيضاً اسم «الشَّابُّو»، القبّعة، يعلم الله لماذا، بوجمعة يدخل مبكراً على غير عادته، لأنه سمع بوقوع اضطرابات، طفله كان يلعب أمام الكوخ مباشرة، في التراب ومجرى الماء المفتوح، تجري فيه المياه الوسخة والنفايا، بحنان كبير يحمل طفله بين ذراعيه، يافرحي، يا سعدي، يطلق عبد الرحيم ضحكات عالية بين ذراعي أبيه، بضع خطوات لبلوغ دكان مُوحَا البقال، وشراء حلويات، قنينة كوكاكولا. إن فرص العمل لا تتكرر كل يوم، عادَا من الدكان الصغير لصاحبه مُوحَا، عند مدخل ذلك الخندق العريض المحفوف بالأكواخ، حينئذ بدأت الرصاصات الأولى تصفر بالقرب منهم، بوجمعة لم يعد يذكر بالضبط ما حدث، كان قد سقط على الأرض، بَشَرٌ كثير يرفسه، دم

على معطفه، معطف عجيب مصنوع من وبر الإبل، كان اشتراه بسعر زهيد، لباس ثري، ما انتهى به المطاف وسط ذلك البؤس المذقع، أوديسيا عجيبة، دم لا يزال فاتراً على يديه، أين الطفل ؟ لم يكن يعلم شيئاً عن هذا، حيرة مؤلمة، كان عبد الرحيم قد سقط من بين ذراعي أبيه، تمرغ في التراب كطائر جريح، حظ كبير أن استطاع بعض الجيران إنقاذه وسط الفوضى والفتنة، وإلا كان قد مات، بوجمعة لم يكن يعلم شيئاً من هذا، عينان كفيفتان بسبب هجوم البوليس، موج البشر المتزاحم هرباً من الرصاص، وجد نفسه مع آخرين، عشرين، ثلاثين قذف بهم في أقبية مركز الشرطة مكدسين على بعضهم بعضاً بلا شراب، ولا أكل، ولا نوم، لِكَمْ مدة، ليس في وسعه معرفة ذلك، الشيء الوحيد الذي كان متأكداً منه هو أن أطرافه كانت جامدة صقيعاً رغم المعطف المدفئ، ترف غريب في هذه الزنزانة المرتجلة، ثم توالت الأحداث بسرعة، وجد نفسه مقيداً إلى آخرين، وسط قاعة كبيرة، قاعة المحكمة، بضع كلمات همهمها بسرعة شخص بزي أسود، جالس وراء منصة : شهران سجناً ! لم يكن قد فعل شيئاً، لكن الشرطي قال له : كنت في الشارع، الأبرياء من الناس الذين لم يفعلوا شيئاً كانوا داخل بيوتهم، لكن أنت لماذا كنت خارج بيتك في الشارع ! خديجة اتخذت مكانها وسط الطابور الطويل للنساء اللائي ينتظرن في صمت، في صبر، على باب السجن، قفة في اليد، شيء من الطعام، مرطبة ما للرجل السجين، بواسطتها عَلِم بوجمعة أن عبد الرحيم، بعناية من الله، لم يُصب إلا بجروح طفيفة. إن الجيران ـ لحسن الحظ ـ تعرفوا عليه، أنقذوه وسلموه لأُمه، وإلا ماذا كان سيحدث له ؟ أجساد أطفال خرقها الرصاص، جثث أطفال في التراب، أعين مقلوبة وسط احتضار مهول، دم أطفال على وجه الشمس، كان الطفل مسمراً على صدر أبيه، فرحة منطفئة، صورة، نشيد الأطفال الموتى يلاحقه، يمزق تلك الأصوات التي تحكي تفاصيل القصة، تفيض طفحات متأججة : كان ذلك خلال ربيع بارد، مارس 65، هو نفسه لم يكن يتخيل، كان يرى أمام عينيه بوجمعة، صباح يوم السبت ذاك، اليوم الذي كُتب له ألا يكون مثل غيره من الأيام، كان بوجمعة ينتظر أمام عربته الزبون السماوي، يدير بوجمعة في رأسه سيولاً من الصور : أزيز الرصاص، حرارة الجسد الطري لعبد الرحيم على صدره، ثم فجأة، برودة القبو، الحيرة، الخوف الذي يعقد الأحشاء، «المَرُود» يمرون ويعودون، يلتمس بوجمعة يتلمس محفظة جيبه البالية المخبأة بعناية كبيرة في جيب معطفه الملوكي الملقى فوق قميص متعب، كل شيء على ما يرام، أوراقه كاملة، ضريبة مؤداة، رخصة بائع متجول، لكن تلك الحشرات، دين الكلب، أولاد القحاب، لا أحد يعلم، بوجمعة يمطط عضلاته القوية، في حركة غضب مرتزع، تراود الذكرة الحلزونية ذهنه، حتى ولو كان بسبب، ذلك سيقضي عمره في

السجن، لكن لا، هناك الطفل، الزوجة، كان بوجمعة رجلاً وديعاً، يتكلم بهدوء، بدون عنف، لكن كيف السبيل إلى إقناع تلك الوحوش. أفضل مخاطبة الكلاب، خصوصاً يوم لا أحد يعرف لماذا لا يرضون بالرشوة، بضعة دراهم تعطى لهم مرة في الأسبوع على الأقل «يَا اللّه زيدْ ليمَّاكْ» ركلة في العربة التي تتبعثر في الطريق، شتائم قذرة في حق الأم أو الأب لا يمكن أن يصمت عنها أحد، مع أنه أدلى بأوراقه، يسأل لماذا يأخذونه، كما لو كان الكلام موجه إلى كلاب، يدفعونه باللكمات في ظهره نحو سيارة السجن، الشاحنات الشهيرة ذات اللون الأبيض أو الرمادي، حين انذلعت المشاجرة دفعة واحدة بعنف الإعصار، قدّور، بائع السجائر المتجول، أقل صبراً من بوجمعة، يسدد الضربات بجنون إلى «المُرّود»، يتسارع البشر من كل جهة، يتكون الحشد كما تتكون أمواج البحر، من الأفق. من كل الآلام المتراكمة المكبوتة تصل الأمواج أكثر علواً، أكثر اتساعاً، أكثر عنفاً، ضربات تيس على القلعة، البحر، يغور الحشد، أكثر فأكثر عمقاً. من أعماقه العاتية تطفو إلى السطح طاقة لا تتصور، هو لم يكن هناك، بشارع الفداء الذي كان يعرفه في زمن لم يكن يحمل هذا الاسم بعد، تلك الأيام حيث كانت مجموعات المقاومة تنظم صفوفها في صمت السرية، لم يكن هناك لكنّ وقعَ الكلمات كان يخترق الصمت والنسيان، أيام الربيع النيرة تلك، مولد رقيق لحياة متجددة، تلك السماء الساطعة التي مُزّقت، جُزّعت بطقطقة الطلقات، تنفس الرشاشات المرتجّ، مقاطع عابرة، ذبذبة قوس متوتر، خوف ملء الأحشاء، كتلة سوداء كثيفة للمصفحات الرشاشة التي ظهرت بغتة وسط الشوارع. مجموعات الرجال والأطفال الصغار تجري، تتراجع في فوضى، أمواج عالية تصيح هائجة، حائرة في اندفاعها، طقطقة، بعيداً قريباً، تمزق نسيج متوتر، دم على الإسفلت، على الطيف، الأرض الجافة لأحياء القصدير، الفراغ الأبيض بلا آثار، وراء الموتى الذين سيعتبرون عما قريب منسيين، الموت، توهج سام، ظِلٌّ يكتنف الكون. أين يمكن تسجيل الحدث، فارق صغير لا يترك أي طية ؟

أصوات ! حياة تحْكي ذاتها، وتُرددها.
تستدير الأحداث مثل محاجر العُمْي.
لا شيء ينتهي، لا شيء يتوقف تماماً.

لعلها الأصوات ! إنها تتكلم، أحياناً تلتقي، تتصل ببعضها بعضاً، ثم فجأة تفترق، وحيدة تواصل المنحنى اللامنتهي لمصيرها. كان قد استيقظ باكراً كعادته. هادئ، رزين، متأمل، منتبه في الإنصات. جلس على المرتبة الموضوعة بالمقصورة المطلة على حديقة الرياض، والجدار المقابل له أبيض، ينتصب عالياً جداً، يتجاوز السطحية. كان، وهو ينظر إليه، يشعر بهدوء، بمتعة لم يكن يحاول تفسيرها. صباح ذلك اليوم كان يريد أن يسجل بزوغ الشمس بدقة حادة، صارمة، مجردة من كل شيء، بين الزمن وذاته، كان يسعى إلى إلغاء الكتابة : بأبهة أو يكاد، على أطراف أصابع رجليه، على عُرف الكلمات الصامتة فتح كراسه الأحمر، واثقاً من حكمته، متخشعاً في طيات صمته، ينتظر : بداية حشرجة حبيسة ذلك الرياض، لا تنفتح على خارجه، طوع إيقاعات مختلفة، مضبوطة. بكل صرامة، بكل عنف كان يتفحص باهتمام أديم السماء الذي لايزال داكناً، شاحباً. على الجدار الأبيض، ديكة، صياح، يترقب، متحكماً في فواصله وصمته حدث هذا اليوم، دجاج تُقوقق، لا يهم ! لولا الدقة، علامات بمقياس الأشياء، صوت أصم، أول أثر بشري غير مرئي، لعله بائع المثلوجات يُحَضِّر عربته في الزقاق، نبرة أعلى، تنقشع السماء، الآن، بكاء طفل، أصوات نساء مبحوحة، أعلى منها، وأقصر، صوت رجل، لهجة آمرة تصدر عن السيد، وضح الشمس، خشخشة الأجنحة والأصوات الحادة لأفواج الطيور تلهو من خلال أوراق الأشجار، نهيق حمار، لم يتبعني شيء. ارتدادات على

شكل أصداء بعيدة، يخيم الصمت، صوت آمر، بحر مهول يقبل نحوه عابراً الجدران والفضاء، كان غائصاً في الأعماق، مأخوذاً مسكوناً بالبحر، لم يعد يمسكه أي شنقب ولا أي انبثاق، كون مبتلع، صوت بلا وجه يمر قريباً في الزقاق : النخال ! بائع متجول ينتقل من بيت إلى بيت لشراء النخالة المستخلصة بعد طحن الحبوب، صوت خشن وراء باب الدخول، بائع المثلوجات يدير صفائح القشدة الونيلية في أواني الثلج المهروس، هناك في ردب الزقاق، وسط بعر الكلاب، كلب واحد في الواقع، وسط بُرك المياه الوسخة المخضرّة، قاذورات، ملذات، الناس يموتون هنا بشكل آخر، وهج الشمس كثيف على وجه سماء صافية مذهلة، تمضي الساعة، نَفَس هائل يهز العالم، الريح تتعالى مهيمنة على هذه الأرجاء، متربصة تتحايل وتتظاهر بالخمود لكي تفاجئ أكثر، يكتب في أعلى صفحة كراسه الأحمر، كان يحاول التحكم في الاعوجاج، الفوضى المتشنجة، التهديد الفوري للامقروء، سديم هي الكتابة، عدم لما ليس هي، انغلاق عنيف على المطلق، بُعد وحيد لتلذذها الخاص كما لنبذها، طاقة خلاقة لا يُعادِلها شيء أو هي تعادل قدرة الله، كلام تدنيسي حتى عندما تخدم النظام الإلهي، أين، وفي أي هامش غائب يمكن تسجيل الحدث ؟ الأصوات الملساء تنغلق على الأهم : ينهض للخروج، يمر الزقاق تحت المنازل، في الطرف الآخر ثغرة ضوء، الشارع، مقهى يفتح أبوابه، مجرد دكان في الحقيقة، بضعة طاولات في القاعة الداخلية، زبناءٍ يأتون للعب الورق، شرب كأس شاي أو كوكا، في المدخل مبسط المقهى، يدخل لطلب براد شاي بالنعناع، حديث مع صاحب المقهى، صياد بحري بدون شك، بضعة كلمات متبادلة، كان يتكلم قليلاً بصوت بطيء جداً : يتأخر الماء في الغليان، لو بقيت أنظر إليه لن يغلي، يكفّ عن الغليان، غريب، ينبغي التظاهر بنسيانه، عدم مضايقته، «خليها عْلَى خَاطَرْهَا»، كان الرجل يتحدث بصوت بعيد وحاضر بصورة غريبة، حركاته مضبوطة كثيفة متناسقة منسجمة، كان ينظر إليه وهو يحضّر الشاي، ذلك الطقس المألوف الذي يعثر عليه كل مرة يمنحه نوعاً من الهدوء. البراد في اليد، يعود بخُطى وئيدة، يمر تحت المنازل، تستطيل الأبواب المنحدرة المغلقة على الأصوات، أصوات نساء لا مرئية، لدغة اللذة تفاجئ بلذة أكثر، كيف السبيل إلى الاطلاع على جمالهن عندما يمضين ملفوفات في لباس الحائك البني الذي تسري عبره رشاقة قامة جسد متوقع، بياض عَقِب عارٍ، صم أبيض، موجة منطفئة تحل في جسد بُنّي. كان عزيز يقول ذلك، هنا يقرأ النظر الدليل المحرقة للجمال المتخفي، يعود بخطى وئيدة إلى ضوء الظل، أطفال متشاكسون يلعبون كرة القدم، يلتصقون جماعات صغيرة إلى الجدران للعب الورق، برك ماء وسخ، أخاديد يلتوي فيها القدم الحائر، يمشي بخطى وئيدة في عالم يعثر عليه من

جديد، يمشي بخطى وئيدة داخل ذاته. «حياة مستظهرة، تتردّد، ذِكْر !»، كتب ذلك في كراسه الأحمر، ذِكْر، ترديد اسم الله، دَنَس ! وتيرة منسجمة مع بهاء ضوء خالد صاف، ترديد، إلغاء الزمن المدنس، نشوة، لكنه هو عمَّ يبحث في هذه العودة اللا متناهية ؟ قدماه تمسان الأرض الأليفة، يداه تتلمسان تضاريس قريبة معروفة مجهولة، تدوّي الأصوات، تقول شيئاً آخر، الأهم مع ذلك، يمضي للقاء ما يحمله بداخله : «إن المرء يحمل في داخله نهائياً مشهداً طبيعياً وحيداً. ليس هناك أي حياة حية خارجه، لو أني أقبلت من أرض أخرى، لن تفهمني أبداً، كما لو أننا لا نتكلم نفس اللغة، كما لو أن اللغة المتبادلة ليست إلا سوء تفاهم جذري». تنتسب الجملة الصادرة عنه ملحّة على صفحة كراسه المفتوحة، كلمات أخرى ليست من صلبه تتدفق، نهرٌ تضخم فجأة. «كل الأحداث دائرية بمراكش مثل محاجر العميان. لا شيء انتهى، لا شيء انتهى، لا شيء يتوقف تماماً؛ أشد الأشياء تحدّراً تستمر بالترداد...، لجلجة أذنك عندما تسمع الكثير ولكنها لم تفهم شيئاً. تفكر أنه منذ رحيلك لم يكفوا عن الصياح كل يوم؛ تفكر أن العميان يصرخون في هذه اللحظة بالذات بينما أنت هنا جالس : الله ! الله ! الله ! إنهم يحكمون، هؤلاء العميان الذين لا يضايقهم أي تأمل. ماذا يشاهد الأعمى في داخله، وخلال أي مدة ؟ هل تتغير رؤاه بوتيرة أقل ؟» أصوات مراكش، صوت رتيب، قريب حميم، ذِكْر، ذِكْر، عمَّ كان يبحث في داخله، تائهاً عبر الكتاب المفتوح، شوارع وأزقة، مدن، بلدان، أسفار، حكايات مترابطة، هادئة، متقطعة مشطورة، مندثرة، عصابة وحشية غير خاضعة، بدون ذاكرة، مركبة مثقوبة من جديد مخترعة، كتاب مقبل، مكتوب غير مكتوب، لقاء آني ظاهرياً؛ بصدفة قراءة هاوية، تعرف في الحقيقة، يقين لقاء موجود هنا منذ ألف عام، كل الأحداث دائرية ، يشعر الآن بالدائرة تنغلق كسجد غريب تنبذ اللا متوقعَ، الوفوضويَ، الشنقبَ، تمزق ما هو آني، محاجر العميان المنطفئة على مشهد العارض، لماذا كان يرغب في اختراق الضوء، لماذا تلك الرغبة العمياء عن ذاته، في صحو أناني، ماذا كان يريد أن يعرف، لماذا يحتفظ على أثر حدث الأمس واليوم من غير محوه، هناك حيث ظن أنه يلخص حياته ! الله أكبر ! وصل الآن إلى نهاية الدرب، المؤذن، آذان يدوي من صدى إلى صدى مثل استفهام، حجرة ترمي داخل الهوة، الآذان يثيره هو الغير المؤمن، الآتي من ديانة أخرى، لماذا ؟ لا يطيل في محاولة الفهم، الصوت، النداء، غير أن المنافقين شوهوه، ليبتاعوا لأنفسهم وجهاً يريح ضميرهم، سمة الشرف ملقاة على مزايدة شنيعة، لقد عبأوا الصوامع بمكرفونات، شوهوا، تلاعبوا بالكلام القدسي؛ سيعود ذات يوم يصدمهم بأصالته المسترجعة، بتشدده الصارم، الله أكبر، لم يُدوِّ النداء بكاريان سانطرال، بسيدي عثمان بنمسيك، هدأت الريح تراجعت الموجة تاركة أمواتها،

سجناءها، والجغرافية ألقت ورقتها، طهران، الله أكبر، تصلبت النار في الأحشاء، توقفت في عَدْوها، قال أحد الأصوات هنا تفرق المتظاهرون عند أولى طلقات النار.

الأحداث، عُرف المعرجة اندثر، زبد متقزح يرتعد من غضب مضى، كان يريد أن يستمر في اعتقاد ذلك، لكن الصمت استقر بداخله، يكشفه الصمت بضوء كثيف، طي الأيام، الساعات، ورم الكائنات، الهمس اليومي، الألم، الفرح، كل شيء يمّحي، قطع الليل شوطاً لأن الفقراء يعبرون الأزقة الفارغة، هو وأصدقاؤه، كلمات نادرة لامبالية، إشارة مقتضبة لصوت صديق، خطوات صدى بعيد، تتقدم على هيكل أصم ، اكتشاف متجدد، نشوة، الليل محتضن في بيوته السّرية، تحمل المنازل العالية آثار الزمن والإهمال، المدينة مَحَتْ هنا سِمَاتِها، علامات ما يشبهها : لا مدينة قديمة، ولا مدينة عصرية، الأزقة تضيق، الفضاء يتقلص ويتسع، نبرة غريبة، نافذة خارجية على واجهة، غرفة عمياء بلا نوافذ مخصصة ربما لبيت الماء، يختلط التصميم هنا قبل أن يسترجع سطريته المستقيمة التي تمتد بإزاء الأسوار، منعرجات، زقاقات، ممر تحت البيوت، انغلاق، ممر ممنوع على الإبل، الضوء الخافت، لمُبَات شبه منعدمة، يحفظ الحساسية، من بيت إلى بيت على ساكن الأبواب الصغيرة أو الضخمة، أياد مجهولة ممحاة من كل ذاكرة، لا اسم لها، نقشت على الحث المسامي رسم لذة، زهوراً، جمال أشكال هندسية مجرّدة، ترفاً غير منتظر على عتبة فقر قاس، آثاراً تعبر تاريخاً مضى، شرايين عشق انطفأ، هنا فرضت الأسوار مساراً مستقيماً حبيساً من إحدى جهاته، جدراناً عالية داكنة محيطة بالرياض، جمال حديقة، استبداداً سعيداً، امبراطورياً، ملذات رقيقة، انحداراً، يذوب الزمن انحداراً بطيئاً غير محسوس، حاداً، كان العاشق الملهم، المجذوب، يردد لنفسه في همس، لا يسمع، وهو يسير وراء أصدقائه، ما وراء كل هذه السنوات الماضية، يوم يدخل المحيط المدينة، يأتي البحر الشاسع من ورائه ويبتلع المدينة، كان الناس يقولونها بيقين سعيد، هادئ، كانوا يؤمنون بالميعاد، إن الرباطات قد قطعت، والصور، الرؤى تجري، حمقاء، أشباحاً حائرة، هلوسات ذات حسكات لاذغة، صفوف الدكاكين المغلقة تلك، باشات مطوية، سلل مثقبة، أكياس ممزقة، مراكب مبعثرة معطلة، انحدار، كان يذكر صبيحته في الميناء، انشطار عينيه، صدره، تلك الغابة الكثيفة من أعمدة الحبال، تجهيزات صيادي السردين، غابة كثيفة، كتابة على سماء صافية ترسم نداءً آمراً، «رأسه انفطر مثل رمانة ناضجة، مع أنهم حذّروه سابقاً، لقد وضع هناك من الأشياء أكثر من اللازم. خسارة ! كم كانت حمرتها. جميلة» ! كان يحب الإحالة على أقواله، يحب ترديد ذاته، يمضي الليل، إنه هو المركب، وكان ذلك المسافر ذو النظرة البريئة، فزعاً، معجباً باكتشافاته، بتلك الآفاق غير المنتظرة، سحر اغتراب على

أرض أليفة بصورة جميلة، تيه يتحكم فيه، يخضعه لترتيب هذه الأماكن، هذه الأزقة، هذا المسار المعروف، هذه الأصوات الصديقة التي تتحدث، تكلمه، إفلات، تيه، لقد انفصت الأوثاق رأسه يتعبأ بالرؤى، بالصياح، بالحكايات المشعة، بالاستفهامات المَفتوحة المشطورة تحت وهج الفولاذ، يده تنقبض وهي تحاول التحكم في الفوضى، تنظيم فيض كلامه الغامض، كان يحب هذه المدينة، كان يعشق المدن، لكن هذه على الخصوص، كان يقول لنفسه بسذاجة، لأنه كان يأمل أن يتحدث عنها بدون المبالغات التي قد تُقَوِّضها، كان يقول لنفسه بسذاجة، بسذاجة مثيرة، إنه يعود إليها كل مرة ليركز خطاه من جديد، ذلك لأن البداية ربما - يتسرب الشك بسرعة - انطلقت من هنا، سذاجة بريئة لهذا الرأس المبيض، بياض كبياض النسيان، كما لو كان من الممكن المسك بطرفي حبل حياة ما ! الليل، هذا المركب الكبير، أجنحة لمّاعة لزمج الماء المتأمل فوق المرفإ المتعامد، في مدخل الميناء، هناك حيث تخلى «صام» عن التجوال عبر السيركات الأوروبية وبنى شاليه مطعمه، الأنين الخشن لهذه الطيور الكبيرة، تعبر مجتمعة على الشاحنة المكتظة سمكاً، سرعة النار عبر نثار بارود، كان بعيداً وراء حدود الغياب، متحركاً في اللحظات المتباعدة، النادرة التي يعود فيها إلى نفسه بوخز رغبة واحدة : ألا يموت مع ماضيه، إنه لم يعد رجل الالتزام السياسي، الأمر الذي عرفه خلال فترة طويلة من حياته، كان يقول لنفسه، يبوح لها بنبرة إفشاء سر دون أدنى ندم، لماذا إذن هذا الإنذار القلق، هذه الرغبة الغامضة المضببة في معرفة ما جرى بالضبط، مظاهرات ثم ماذا ؟ الخبرُ اليومي لبلدان عديدة، الخبرُ الذي يعطيه جسداً لفترة ثم يلغيه في نسيان لا يمكن تجاوزه، ماذا إذن ؟ اجترار شيخ مسن : لا ينسى «سيزار بيروتو»، المعجب ببالزاك، أنه سقط على رأسه على عتبات قصر يوم اندلاع ثورة 48، أثر، وشم لا يمّحي، جرح يحيا من جديد ! برق عنيف في مقتبل حياة تغير مجراها وانتشر على شكل طبقات جوفية في تراكم الرمال، أي الرموز يرغب في فكها ؟ يتساءل بكل قوة عن الحدث السريع للأيام الثلاثة، لم يكن يدري، ومن دون شك أنه لم يكن يأمل أن يدري، منذ الخطوات الأولى، مفتوناً بالأصوات التي تتصاعد من سماء إلى سماء، من أُفق إلى أُفق، بالنيران المشعلة على المرتفعات، تهرع الموجة العاتية من بعيد، من نهاية العالم، تنشطر في صورة نشيد وهاج، إنه يغرق في الأعماق، في فراغ قلبه، منذ الخطوات الأولى كان ضائعاً، محكوماً عليه بالضياع، مركب ليل تعبث به العاصفة، تلك الصور التي كان يتضد بها كبلسم مهدئ لاجدوى منه.

كان من المفروض أن تنذره العلامات المشؤومة الأولى، تعيده إلى الطريق السوي، تعيد له رأسه في موضعه، عندما وصل إلى طنجة، كان أول ما أثار انتباهه خصومة تافهة

نشبت بسبب قنينة حليب، كان جالساً إلى طاولة بمقهى باريس، محل قديم معروف لا يمكن تحديد صبغته، هو ما بين السياحة المزركشة، والشذوذ لدى المسنين أو الشباب، وتكاسل وجوه محلية معروفة، والموعد العادي لأُناس يأتون هناك ليلتقوا، يتناَولوا قهوة، ينظروا إلى المارة في الشارع بعين عائمة، وسط رطوبة وخمول ذاك الزوال من شهر رمضان، المسلم متناعس بدون شراب، بينما يتلذذ في خبث ذو الديانة الأُخرى بقهوته، يتمدد الزمن عبر العياء الكئيب والانتظار الذي لا ينتهي. تغفو العصبية، مشهد كلاسيكي، سيناريو معروف جداً : رجل وقور، بالنظر إلى نوع ونسج جلبابه، ينبغي التخلي مؤقتاً عن البذلة العصرية، في هذا الشهر من التعبد والورع الديني، شخصية محترمة ذات وجه متهجم ينم عن معاناة الإمساك، بصوت رمضاني، ضعيف، متخشع، يمسك على حافة الاحتقار البشري بزجاجة الحليب التي ناوله إياها بائع الجرائد، احتفظ هذا الأخير ببؤسه، بؤس لباسه، هيئته، لم يستطع اتخاذ وجه الخشوع، زجاجة الحليب النفيسة التي ستعوض عن الأتعاب المرهقة هي موضوع النزاع هذه المرة، يخرج نادل المقهى ليطالب بحقه هائجاً، إنه هو الذي كلف بائع الصحف بالاحتفاظ له بالزجاجة النفيسة التي طلب من أحد أصدقائه أن يأتيه بها، ينشب الخلاف وفق تدرج محكم التنظيم : احتجاج، كل واحد يقسم بالله، محشورون في الضجيج، تسيح الميتافيزيقا على الرصيف، تلعن امرأة مسنة هذا الزمن، زمن المآثم، الانحراف، التفسخ، زمن الكفر، كافر بالله، تتعالى الشتائم، الشر، الخير، البرجوازي، السوقي، الخلاف يعمق التناقض، لم يسفر النزاع عن شجار لأن الطرفين ليسا من نفس المستوى الاجتماعي : يدّ صديقة تربت على ظهر البروليتاريا، تهدئ من غضب نادل المقهى، يستحوذ الرجل الوقور على قنينة الحليب بغير حق، إنه معروف وله اسم مشهور، ينتهي النزاع وسط ضجيج الأصوات، لا يهم ! لا يليق التهجم على سمعة الشخصيات المعروفة، ثم لابد من أن نفهم : في هذا الشهر المرهق، شهر رمضان، تحتدّ الأعصاب بسرعة، ينبغي التسامح في الكثير من الأُمور، لا، لن نطلب مجيء الشرطة، فالأمر خطير بالنسبة للجميع ! حادث تافه.

انظر : إنَّها أجساد مُرَضَّضَة

جزئيات صغيرة، تافهة، هكذا تمضي الحياة، صدف صغيرة : لو لم يبعثر «المَرْدَا» معروضات بائع السجائر المتجول، «كازا ـ سبور»، «الرياض»، «فافوريت»، «الزرقاء»، أسفي على الزمن الغابر، علبة رمادية، زرقاء تتوسطها النجمة الشريفة، معروضة للبيع سيجارة سيجارة لصعوبة اقتناء علبة بأكلمها، لولا، «مَرْدَا» إذن ! لا، إنه ليس بصدد ابتكار نظرية تاريخية، كل شيء هادئ الآن وقد مضت بضعة أيام فقط، في الواقع لم يكن يأمل غير هذا، إن سرعة التئام الجرح مدهشة في هذا البلد، يلاحظ بتفخيم غير منتظر، بتشدق، بلداً في حالة تمرد ! أكيد أن هذا غير ما كان يتوقعه، ربما مناخاً ثقيلاً شيئاً ما، يتوقف، كان يكره هذا النوع من الجمل، يتوقف عن محادثة نفسه، لا عن التفكير، إذا أمكن إطلاق كلمة تفكير على هذا : كل ما يجري بوتيرة سريعة في الرأس، لحظة، ربما أكثر، مَنْ أدراك ؟ بصره يتهرب، ينحصر، ذباب متكاثف، مختلط، يتخانق عند عنق زجاجة، عيناه تلتهب برؤيا واحدة، متعددة : هناك أيضاً حياة الناس بسيطة هادئة، أطفال، على الشاطئ، عطاء الحياة، شمس ساطعة في سماء بلا خليط، نفس اللذة التي تفك وثاق جسده المحنّط بالبرد، رجال، نساء، أطفال عندما تنهار فجأة من السماء، صورة طائر كاسر، طائرات إسرائيلية، يحْمل الموت خاتم سليمان، الرشاش، الدم، الفتنة، الألم المتعذر على الوصف، تُسْحق البراءة ببرودة، والرؤيا تنشب مخالبها بعنقه مثل وحش كاسر، ومن الجرح المفتوح، يبزغ عالم مبعثر بأكمله، محروق، مكسر من قبل غضب أخرق : عاصمة الألم، بالمفرد والجمع ! جملة تافهة، غدير، لم يكن يرغب في تسميتها؛ كان قد وُلِدَ بها، حياته بدأت هنا، إنها المدينة التي كان يغذيها في قلبه دون اضطرار إلى القول بأنه يعرفها، كان ذلك الأعمى الذي تقوده يد ناعمة، تسري عبر

النظام المعماري من خلال الأطلال، أسماء تبرز في ليله، مناطق مرور، معابر من الحياة إلى الموت يقطعها المرء طبيعياً عند ملتقى الطرق، كان يعرف سماءاتها المتبدلة، يخترقها الضوء والأوجاع، عطاء الحياة، الصفاء، التشدد، أفاق اللهيب والعشق في فجر الشباب، الأصوات، المصائر الحميمة تعبر ذاكرته، أمواج ضوء، انصهار، تآلف، طيات الوجود الدفينة، عطر أناقة رقيقة يكتنفه، كان يعشق عبره كل النساء، واحدة فقط، عشق صامت يختلط بنبضات قلبه، لم يكن يدري أي شيء كان عليه أن يفك اشتباكه في هذا، لم يكن يرغب في ذلك، كان يفضل حدسياً، وبدون أي تخطيط، ترك الأمور كما هي، «سُدّ أُذنيْك» ! الكتابة استقرت، اندرجت مثل قطيعة في قلب الكلمة، كانت تحادثه كما تحادث نفسها، كانا جالسين جنب الموقد، في مشهد ثلجي آخر بارد، في قفر أخضر لغابة كثيفة، لا يزال يراها، احتفظت بصدارتها وهي خارجة من المطبخ، كانت تحب الطبخ، صوتها ملتحم بشبقها ! يتراءى الانفعال، يداهمه، يمنعني من الحكم، كان في أغْوار المأساة، كانت تتحدث كما لا يتحدث المرء إلا مع نفسه : على حافة اليأس، الفناء، مصيرها ملتحم بمصير شعب بأكمله طُرد من أرضه، كان يَرى نفسها ضائعة عندما بدا كل شيء ضائعاً، حين أوشك الحلم على الاندثار تحت ضربات قوة لا تقهر، فجأة وُلد الأمل من جديد مقابل شراسة لا توصف : أيلول الأسود ! الفظاعة ! يصطدم الموت بالموت، كانت تتحدث في تلك الليلة الهادئة، أمام اللهب المتراقص، أبداً لم يسبق أن أحس بنفسه قريباً منها على هذا النحو، أبداً لم يرفض، إلى هذا الحد وبكل ذاته، العنف، القانون الوحشي : القتل من أجل الوجود ! كان يعرف أنه لا ينبغي له أن يقول أكثر من هذا، يحتفظ لنفسه وإلى الأبد بنعومة حرارة يدها التي أمسكها لحظة وبتلقائية، بينما كانت تسوق سعيدة، مبتهجة، ذات يوم وهُمَا مسافران معاً بين أشجار الزيتون.

انظر ! أجساد مُرَضّضَة ! كانت مجتمعةً، كان هذا، ذات مرة، على حافة الجرف خارج أسوار سَلاَ، هناك حيث ينتهي الطريق، جزء من السور ينتصب طللاً وسط الحقول، وحيداً بلا مجد ولا صدى تاريخي، مهترئاً بالتآكل، بنوائب الزمن والرياح، أجساد مرضّضَة، مدينة مرضّضَة ! انظر ! كان الصوت يتحدث، صوتها هي، الفضاء ينفرج داخله، المقارنة ملغاة، أجساد مرضّضَة، هنا في الحقل، هذه البقعة الخلاء على بعد خطوتين من حي صفيحي، هذا الحقل المزروع بقطع بلاستيك بيضاء، «الميكَا» كما يقال هنا، البلد كله في عصر الميكَا إلا هذه الأكياس، عليها علامات متاجر حديثة، عصرية «أُنْيِيسْ»، «دُورُوتِي»، أناقة وقحة في مهب الرياح، شبق مُصَفّى، مذاق مشوب بالغرابة المدجنة من قبل بقال شهير، صورة مسلية لثور عائلي أحمر على أبيض، مجزرة منسجمة الألوان، لكن الميكَا البيضاء، شفافة، جلد رخو

يتمزق : هناك، في سوق الأسماك، كانت المرأة العجوز قد أقبلت في الصباح الباكر، بضعة أكياس ميكَا في يدها، التقطتها من مكان مَّا، راجية أن يبتاعها منها، بمشيئة الله، أحد أولئك الذين يشترون السمك وليس لديهم ما يضعونه به، نهار طويل من أجل بضع سنتيمات أفضل من التسول ! أجساد مرضّضَة، جلد شفاف رخو مُخرّق، حقل ميكَا مزروع بضوابط بيضاء، آثار، تركيب صمت متقشف، قطع قماشات بلا حياة أنذار معلقة بالعراء الشرس، المقارنة ملغاة، كانت تتحدث، بصوتها المضطرم، الفخم، وهج، وانتصار، وصفاء حميم، وخز مبرق يعبر النص حيث كان يحاول حبسه، انفساخ التمركز، هجرة إلى أجواء أخرى، مشهد آخر، نفس المشهد، مدينة محطمة على شاطئ البحر، أجساد مرضّضَة، لم يكن ينبغي له أن يقول أكثر، لم يكن يقوى على أن يقول أكثر، «عين ميكَا» كما يقول الناس هنا، عين اصطناعية تنظر جنباً ولا تبصر، نظرة مزورة، خادعة، كاذبة، جزء السور المبعثر يعدو عبر الحقول، يرسم الحد، يتجهان نحو السيارة : أكيد لا، لم يكن رجل الالتزام السياسي، بات الأمر في عداد الماضي، كانت القأقأة النضالية تضايقه، ممزق بين اللامبالاة ونوع من التسلية التي تتحول بسرعة إلى تفاهة، كان يعرف أن تلك الأشباح التي عرفها منذ زمن طويل، كانت ستصعد فوق الخشبة وأعينها مجبّصة، وجوهها مقنعة بطلاء نفس الخطاب، احتفاء جماهيري من ورق هش، لغة مسطحة، مجزأة إلى قطع جافة، مرآة مزورة لمحو التجاعيد، ما إن دوّت الرصاصات الأُولى حتى هرعت الأشباح إلى الظل، مختبئة وراء ورق جرائدها.

الرحلة الكبيرة

كان وافداً من بعيد، من بعيد جداً، نفض غبار الماضي، كان يشعر بأنه مشى طويلاً، طويلاً جداً، إلى ما لا نهاية، كان جسده يحمل آثار العناء، اللولب ينحفر عند كل ضربة صنج، كان منبهراً، ذاك السور، تلك الأجساد المرضّضة، حقل كآبة غريبة، يد، أيادٍ مجهولة، منهمكة في العمل، الشغل، مُخلّفة للصدفة قطع الميكا البيضاء تلك، آثار عري، إرهاصات حياة يومية لا ترحم، معجباً كان يشخص في الموجة وهي تهرع، تنكسر، تتبع منحنى الحاجز الصخري في حركة مباغتة متسارعة، تلفظ أنفاسها لتتكون فوراً في الأفق وتتعالى، كان في فناء تَاغَارْت، بعيداً، مطلق البعد، تحت سماء وضاحة الجبين، لحظة إنعام حار، تائهاً، ضائعاً وسط صحراء من الرمال اللا متناهية، الصافية، نحلة ترطب شفتيها الملتهبتين بعُذوبة ماء صافٍ، بها التقى صباحاً، وسط زحمة المارة المتسارعين المنشغلين، في طريق سوق لَغْزَل، لم يكن يعرفها، كانت مارة، قلبه رفرف في صدره، ألمّ به جنون الخوف من أن تضيع منه، من أن يضيع، لم يكن يدري كيف يوقفها، يتكلم عنها، عن جمالها، إذّاك لجأ لحيلة يائسة، أطلق عليها اسماً عابراً ليخفي أيضاً كل تلك النساء التي لم يكنْ يجرؤ ولا يقوى على تسميتهن، لحظة إنعام حار، رعشة، ينبوع يبزغ في اندفاع عنيف من بين الصخور الجافة، كان يتحاشى شطر كلمة مقطوعة :

«وها هو التبادل، المجابهة مع تعقيدات لا يمكن التنبؤ بها، لعبة، القوى التي تُصهر الكتابة، الدقة التي تمضي تدريجياً حتى تصبح مدعاة هدم لا يتجسد، تضاعف اللغز المعلق بقمم التوازن، مفضلة حرية الآفاق على حدود البصر. تخرج الكتابة عن ذاتها، تتعدد لغتها ويتضاعف هذا التعدد بدوره إلى

ما لا نهاية : ما جُبلت على قوله، ما يقرأ في تجاعيد حضورها، خطر الانقراض، صوتها المبتور يتيح الكلام، وفي نفس الوقت تعكس صمت الخط المرسوم، غزو اللون الذي يفتض المجرّد، يعلن المرور إلى الضفة الأخرى، يُحوّل سلطتها إلى قصور».

كان يشخص ببصره في هذه الصفحة من صُلبه، من كناشه الأحمر، يشخص فيها ليوقف تموجات الرمل، كان يحدث له أن يكتب لأن دمه ينزف بشدة، لأن الجرح الذي كان يحمله في جنبه لا يكف عن الإيعاز ! كان وافداً من بعيد، لكن من الغريب أنه كان يمحو بخطاه آثاره على الطريق الذي قطعه، كان وافداً من بعيد، من بلدان، من أصقاع، من أراضٍ جموحة لم يكتشفها بعدُ، منبهراً بألفتها العجيبة تماماً، الغريبة، التعب، ثقل تعب عالمٍ دفين يلازم جسدي، كان يرغب في الرحلة في الغياب الفرح كان قد اتخذ احتياط التجرد من كل ما من شأنه أن يثقل سيْره. في مفترق وملتقى طرق عديدة فقدت رسمها الأولي عند التقائها، وقف الرجل حائراً، يبحث بنظرة قلقة لكنها غائبة عن كيفية توجيه خطاه. يتغذى التردد بأرجحة الشعور، بالتعرف على شي ما، بالتعرف على الذات، باحتضان أليف لبعض الإشارات. تُواصِل أصوات متعددة قريبة وبعيدة، أصوات، في دائرتها المدوية، في ذبذباتها المغلقة، بلا تضايق فيما بينها ولا تفتح الواحدة على الأُخرى، تواصل نموَّ ونضج كلمة وليدة، تعلن عن المستقبل. كل واحدة تقول وتتضاعف بما لا تبوح به، مما تكشف عنه في ممرّها دون أن يتوقف بصره عليها. كان قد وصل عشية ذاك اليوم إلى سمارز ـ طهران أو بالأحرى تمنى الوصول إليها. سبق له أن ظن أنه سافر من قابُول إلى تَرْولْ ! كانت هذه الرحلة تندثر في الأسرار، في بذرات مغلقة تنبت وسط الصمت في تناسبات جوفية، مُلغمة بإحالات لا يتوصل هو ذاته إلى السيطرة عليها. في ممره قال له أحدهم، وهو حكيم بدون شك، إن هذا التيه يعرّضه لأهوال المخاطر، إن هناك خطراً جسيماً في أن يهجر الطرق المعروفة، والاقتراب والتلذذ لا يقلان جسامة عن قمة العدم، حافة ليل جبار. ويقول الرجل الوقور أيضاً، إنه لو كان على الأقل يؤاخذ نفسه على عدم الإنصات إليها لو كانت على الأقل حيلة كتابة، إحدى حيل الفكر تلك التي يأمل المرء بواسطتها أن يتدارك في الواقع قصوراً فكرياً ! مع الأسف لا، يضيف وفي صوته نبرة حزينة، نراك تطلق العنان لهذيان غريب، تهيم في هالة من القدرة على الرؤيا وأنت وحدك الذي تنسب هذه القدرة لذاتك، فالأفكار لا تُعيَّن مثل صخور غرانتيكية، أنهار، جبال، نباتات أو مآثر متوارية تحت الرمال، ثم تتعمد خلط كل شيء، كما تفعل، حبة حقيقية، أو تتسبب علم النباتات والحفريات في أكبر فوضى ذهنية، أضف إلى ذلك أنها

مجاملة، ومجرّدة من حلي السذاجة. غريب، أجل، غريب مطلب كمطلبك الذي يرفض التحيز في مكان محدد، يطرد الأحداث، إغاثة المصادر، شهادات البشر، ليقطع ـ فِي جنون ـ الرباط الوثيق الوحيد برؤيا إيجابية للأُمور، لا يا سيدي العزيز، انتقل الآن إلى لهجة الرجاء المتأثر ـ لا شيء يفيدك، سينال هذا من صحة جسدك، لا شيء يفيدك إذن إن أنت وهبت منخاريك الكريمين لريح سارز القوية، أن تعير قلبك وأُذنك لصوت المنفي الكبير ـ رجل هنا، شعب هناك، لهدير طهران العاتي، لصُبح كابول، لنشيد ترْوَل الجنائزي : لا ! سيدي العزيز، صديقي العزيز، اسمح لي أن أدعوك هكذا، ثق بي، أترك إذن كل هذا. عد إلى الكتاب، إلى يقين فضائه، لاشك أنك انصرفت عنه عاجزاً خشية معرفة مقدار ضعفك، ربما أيضاً ـ لا أحد يُكذّب هذا ـ بسبب تعب مشروع. عد إذن إلى الكِتّاب فستجد فيه من جديد كرامة فكر محكم البناء، نظام خطاب سابح لا يسقط في رذيلة الأزقة بزي يبعث على التهكم، إنه حريص على هيئته، حريص على صرامة لا تنازل فيها ! النظرية لا تقبل ضجيج الشارع ولا إشاعات العالم. عُد إذن إلى تلك الأرض المعطاء، إلى مصدر ارتباطك، بدل التي في هذه الأماكن الملتبسة الرمزية : سارز ـ طهران، قابُول، ترْول، لا تتهرب من الحوار مع الأرواح التي تعرف أكثر مما تعرفُون بهذا الصدد، والتي تَحْسُن استشارتها. أنصت إليها بذلك التواضع ـ كِدْتُ أقول بتلك البساطة ـ الذي تفتقر إليه. اترك عنك هذا، ثق بي، إني صديقك، اترك عنك هذه النزعة الاغترابية التي تنسبها للآخرين، ولكنها تقذف بك إلى الأمام، بعيداً عن إقامتك المألوفة، في حضن متاهات الاستكشافات الخيالية، الخرقاء، الغامضة، اصطدامات تؤاخذ عليها منذ الآن، نوع من الكَلَب البدائي أو السخيف الذي يدفع بك إلى تكسير الكلمات، الرؤوس والخطابات المحكمة البناء. اترك عنك كل هذا، لا خير لك فيه ! لم يراع هذه النصيحة، هذا الإنذار، يا للطيش !

استراتيجية، حيلة ! كان مرتبكاً في عقد اللغز، السهم الذي اخترق الحدث لينغرز في صدره، الإنذار الذي كان قد كتبه، خطّه بيده، صوت الرجل الذي اعترض طريقه، كل شيء يبدو له الآن آتياً من الخارج، مثقلاً باليقين. كان قد فتح دفتره الأحمر مثلما يفتح المرء صفحة على المجهول : باب، فصل، إغراء التعجيل بالاطلاع على الصفحة الأخيرة للتعرف على نهاية كل هذا. كان يرغب في إقامة تركيب من المرايا حيث يمكنه في نهاية المطاف النفاذ إلى ذاته دون أي مجاملة، لكنه تنبه بسرعة إلى أن هذه المحاولة النرجسية الجموحة تميل لاستدراجه إلى إرهاق ينجم عن جري عقيم وراء اللذة. المغالاة والورم يهددانه بالاختناق وهو ينتبه إلى أنه يأسف على سلاسة ورقّة الحكمة، صفائها العفيف. زخم الحياة، قوى الموت،

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

كان قد انزلق خارج المواضع المتوفرة لتأمل هادئ محروس، تكسرت الحواجز الواقية، وفي انتفاضة متهورة أراد أن «يلوي عنق هذا القرن» لاقتباس كلمة رجل أصبح الآن لصقاً به، ومضات طموح، آخر محاولة لإزاحة النقاب عن وجهه ! كان يكره ذلك الورم، ذلك الانتفاخ المسموم، كان يفضل التمسك بحد الشفرة الشرس، قطع عقدة غورديوس الوثيقة، تبأ لغورديوس، ذاك الملك المغمور الذي صنع هذه العقدة المعقدة ليربط النير بمَجرّ عربته، لكنه بأي عربة كان هو مربوطاً ؟ أي أوثاق معقدة كانت تعلقه وتربطه بعد، لكن لأي شيء ؟ شياطين شبابه، ذاك الماضي الملتصق به، عمر ذاكرته التي تنتفخ فجأة مثل كرة ضخمة كلما انهال ضحك الأصوات الشابة على قدم الأسوار القديمة : فخ، تناظر خادع، ذاك الماضي فقاعة هواء تتفقئ على السطح.

الضحك، الصياح، الحيوية، الصوت الهادئ، الرزين، أصوات شابة تحيط به : كانوا جالسين بمقهى فرنسا. كان يرتدي كعادته كل صيف معطفاً قطنياً أزرق من نوع مَاوْ، صنع حقاً بجمهورية الصين الشعبية، أصبح الآن لباسه الثوري الوحيد. فالماوية تتناسب وبساطة الأيام، زهد حياة اجتماعية ذات أفكار بسيطة لكنها مانعة النقوش. الملصقات الكثيرة شاهدة على هذا، الاقتناع راسخ بشدة، وبقي متجذراً حتى بعد موت الزعيم الكبير، خسارة للأسف، إبان حياته النضالية عند المنعطف الحاسم، كان قد أودع مدخراته، مثل الكثيرين غيره، إبان القلق الكبير، في بيكين، سويسرا الثوريين، بنك حصين، خزائن متينة. خسارة أو للأسف ! على سطيحة المقهى، وثيقة خصبة، لا تنضب، تحمل اسم فرنسا على لوحة مهترئة إجحافاً، كان بوده لو بقيت الأمور على حالها، أن يمدّ على اتساع تلك الساحة التي يزيد من شساعتها موقع ذلك المقهى الشريف الوجداني الجدودي، ملصقاً واقعاً : وجه الخميني المبجل، عبارة «الله أكبر» تعلو ملايين الرؤوس، صدور عارية منتصبة في وجه الرصاص، أيادٍ ممدودة نحو السماء، منطلقة نحو غزو مطلق، انزلاق، وتجاور لا مرئي : راية حمراء، ترفرف في الهواء، مصير يتموج في طياتها، حشد هائل يتراءى في الأفق في صفوف لا تحصى، يتقدم ويطأ الرمل، أيادٍ مثل غابات عاتية تُشهر الكتاب فوق الرؤوس : القرآن ! مسيرة خضراء ! فسّر المفسرون ! أضفوا على الأمر حلّة من التفاهات، لبيب الكلمة يختبئ في الصفحات، اطمئنان فوهة البركان محكمة الإغلاق : صورة مقفرة، نشوة دابلة في الواجهة المظلمة لكُتبي، بائع الصحف في الشارع الكبير، إلى جانبها صورة امرأة عارية، نجمة الروايات المصورة، شبه عارية، صدر مكتنز، شعر مبعثر، كثيف، فم شبه مُوجه بِشَرَهٍ نحو وجه جِيمْسْ بُونْدْ بأحاسيسه الهادئة ، إلى جانب كتاب في الإيكترونيك. عدوى، تلاقح،

تقنية محايدة ! إنها المسيرة العظمى : شرب الرمل الصدى، مرّ الزبالون في نفس يوم الأحداث ومحوا آثار الدم على الإسفلت وضوء النسيان. لم يتحرك الرجل الصغير، لن يقوم بشيء، لن يعلق المنشور، كان يشد على كناشه بحذر شديد، كناش أسود أحمر الحافة من النوع الصيني. جمهورية الصين الشعبية، دون أي علاقة مع الكتيب الأحمر، ولا أدنى علاقة مطلقاً، إذا استثنينا «ريحة الشّحمة فالشّاقُور» كما يقول أحد الأمثال الشعبية التي يعشقها كثيراً.

جالساً بسطيحة مقهى فرنسا، محفوفاً بأصدقائه، كان يطلق بصره يجول عبر أرجاء تلك الساحة، مقابل أشجار الراتنج الوارفة، ذات الجذع العريض، كان يشعر تجاهها بنوع من العطف، كان يعرفها شخصياً، كانت رفيقة سفر، على الساحة الصغيرة الأخرى، في أسفل الساعة الكبيرة التي نبلغها عندما نأتي من شاطئ تَاغَارْتْ عبر بابين متواليين، باب السَّبْعة، أول الأبواب التي تتحكم في إحدى مداخل المدينة، على تلك الساحة، يقف الصديق القديم، جدّ هؤلاء الرفقاء، شيخ مسنّ يظلل بقامته الطاولات الثلاث للمقهى الصغير داخل دكان سابق، كان يأتي إليه طلباً للراحة، لحرارة الصداقة، صداقة رفاق الرحلة الذين يعلو غبار خفيف على سحنتهم هم أيضاً ! بصره يجول، هناك مدن عتيدة، متنطعة، تتعنت في الاكتفاء بذاتها، هناك مدن متموجة تقشعر على حافة الصدى، البصر، بصره يجول، يقف وقفة تأمل على تلك الأقواس المنحوتة، صخر الحثّ المثقب ابتلع الزمن، على سطيحة مقهى فرنسا يرتشف أصدقاؤه جرعات صغيرة من القهوة بالحليب، كان لابد من انتظار أن تسخن الآلة، ملذات سرية لاَ ضجيج لها، على سطيحة مقهى فرنسا تُرشف الحكايات، جرعات صغيرة في كؤوس عادية. أخرج السيد الصور من الحجم البريدي، كومة من الصور البريدية، من جرور الخزنة القديمة المغلقة بالمفتاح، ها هي سطيحة مقهى بديع، منضدات رخامية، كراسي من أعْراش النخيل، في مقدمة الصورة معطف الكولونيل السيد بَاوْلِي، بكل شاراته، عنق القميص منكسر، شوارب نافرة، معطف مدني أبيض صيفي، والسيدة بَاوْلِي وسط لباسها الفاخر، وجه ناعم يبزغ من بين الدانتيل الرقيقة، حضور فائح، باريزية كما تتراءى في الأحلام، والأطفال بشعرهم الناعم البراق، يلبسون صدارات بيضاء، قمصان مَنْشِية المقدمة، ربطات عنق فراشية، صدريات سوداء، يقفون أمام الصورة لتخليد اللحظة، يوم مجيد، يوم تدشين مقهى فرنسا، صورة سمراء داكنة على ورق مقوى، وجه التاريخ، رغوة الشمبانيا، زبد الأيام، اندثرت فرنسا غباراً بكل إجحاف «طاق، طاق، طاق، يا حبيبتي، آه يا جميلتي» لازمة، ما يبقى، بَادِني بَادِني، حفلة باروكية، بَادِني يمسك كمنجته عمودياً إلى صدره، ضربة قوس على الماضي

«طاق، طاق، طاق، آه يا حبيبتي، يـا جميلتي»، بَـادِني يقفز، يرقص، يثب، رأس يتقلص إلى أن يصبح شبيهاً بقبضة يد صغيرة، تبتلعه العينان البراقتان بشكل غريب، مشهد مضطرب، ثم فجأة وجنتان مكورتان، انحنـاء، غور، فم أدردُ، تخرج الأُنشودة الشجيـة، موميـاء تتراءى وسـط شرائطهـا، يصـاحبهـا أنين انـزلاقـات الكمنجـة الحـادّ. «طـاق، طـاق، طـاق، آه يـا حبيبتي، يا جميلتي». كان ذلك زمن الفرنسيين، دفعة بنزين، كما لو حدث ذلك قبل ألف سنة.

مجاز يوم القيامة

على سطيحة مقهى فرنسا، ترشف جرعات صغيرة من القهوة بالحليب في كؤوس عادية صغيرة، قهوة نهاية النهار. أين وُلد الحكْيُ، من أي منبع بزغ ليقبل مُتقاطعاً، متداخلاً ليضيع أخيراً في حكايات أُخرى ؟ كان ذلك زمن الفرنسيين، كان أبي راعياً، كان يرعى الغنم في مراعٍ تبعد كثيراً في بعض الأحيان عن الدُّوار، عن الخيمة التي كان يسكنها مع أسرته. الحكي العاري، الصافي يتقدم. فصل الصيف، ليلة هائلة، كان قد بقي مع قطيع الغنم صحبة رعاةٍ آخرين، بقي في المراعي، مدثراً في جلبابه، متكئاً على تل صغير، كان ينظر إلى النجوم حالماً، فجأة سمع الكلاب تنبح في جنون، صراخ، نهض واقفاً ليرى ما حدث، لهائب عاتية، كانت الخيمة تحترق، لكنه ما إن رأى ما يحدث حتى انهالت على رأسه ضربة قوية. سقط إثرها بلا وعي. عندما أفاق كان الفجر، والشمس بدأت في الطلوع. لا أثر للغنم التي كان يرعاها. كان الناس ينظرون إلى بقايا الخيمة المحترقة، كانت النار لا تزال خامدة تحت الرماد. وكانت نجاته من الحريق أعجوبة الدوار كله. كان الكل يتجنب الكلام، يلتزم الصمت، لكن الجميع يعلم من فعل الفعلة، من أي دوار أقبل لصوص الماشية. كان عُمْر أبي حوالي خمس أو سبع عشرة سنة، حسب ما قال لنا هو نفسه، لكن كيف لنا العلم اليقين بعمره إذ أنه في تلك الأزمان لم تكن هناك مصالح للأحوال المدنية، وعلى كل، فليس لهذا أهمية. كلا، لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة، ولم يذهب حتى إلى الكُتّاب (لَمْسيد)، كان قد ترعرع وسط الغنم، كلاً، ولا حتى آية من القرآن، ما كان يعرف منه حفظه مباشرة بسماعه الآخرين يرددون سوراً منه، لكن ليس أكثر مما تقتضيه الصلاة. كان جواد يتكلم، أبسط الكلمات

مُفعمة طعماً، تسري الحكاية العارية عبر الحقول العاريـة، من بين الصخور البيضـاء، خصلات الشوك الأزرق، خضرة أشجار أركان العريقة، رشاقة الماعز السوداء، يالطيف، يـالطيف ! كـان الناس يتأوهون أمام الكارثة، شفار، قطاع الطريق، كـانت الكلمـات تنتقل من فم لآخر، يعلم الجميع ولا أحـد يتكلم، كـان عمره حوالي خمس أو سبع عشرة سنـة، كـان ينظر إلى بقـايـا الخيمة المحترقة، كانت النار لا تزال خامدة تحت التراب، وكان أعجوبـة أن نجـا الـدوار كلـه من الحريق، كان ينظر، يفكر في غنمه الضائعة، يلزم الصمت، ثقل كبير يضغط على صـدره، هما اثنان، أقبلا تلك الصبيحة بـاكراً ليقبضـا عليـه، دركي فرنسي ومخزني، حـدث ذلـك زمن الفرنسيين، جاءا ممتطيين فرسين، لم تكن هناك طريق معبدة ولا محج للوصول بالسيـارة إلى الدوار. قيّدَا يديه بحبْلٍ طويل، ركبا من جديد على فرسيهما وهو يمشي وراءهما مقيداً. كان أهل الدوار قد تجمعوا جماعات جمـاعـات صـامتـة، كـانوا ينظرون إليـه دون أن ينبسوا ببنت شفة.

سِيقَ إلى المدينة بعد ساعات طويلة من المشي، مقيداً، يعـدو أو يكـاد وراء الفرنسيين، سِيقَ إلى المدينة وقضى ليلة أُولى بالسجن، في يوم الغد قُـدّم أمـام محكمـة، كـان البـاشـا في القاعة الكبيرة، كان المخـازنيـة يـدفعون رجـالاً آخرين مثلـه، والخليفـة جـالسـاً وراء مكتب، يتلفظ ببضع كلمات بعجلة، الضابط الفرنسي في زيه العسكري، كوميسير الحكومـة كمـا كـان يدعى في ذلك العهـد، هـادئ، مهجم الوجـه، يوافق بهزة رأس. مرت بضع دقـائق، حُكم عليـه فوراً بسنتين سجناً. كـان قـد أشعل النـار في الـدّوار من حيث أقبل الأشخـاص الـذين اغتـالوا والديه، سرقوا الغنم وأحرقوا الخيمة. بالسجن المدني، أُلبس الزي النظامي، سروال قصير وشبـه قميص صوفي رمادي وسخ. وحده رئيس الحراس كان مبشور الوجـه فرخّص لـه أن يخرج في النهار ويعود في المساء إلى السجن. كـان يقضي الصبـاح والزوال بنـادي كرة المضرب، يجمع الكرات، يكنس المـلاعب ويسقي الـورود ونبـاتـات الإبر الحمراء على الحـواشي. كـان الآلهـة يلعبون كرة المضرب، في لباسهم الأبيض البراق، يمرحون في الأناقة، العرق، عطر الحسنـاوات ذات الأفخاذ العارية ما تحت الجوبات القصيرة، واحدة منهن فاتنـة بقلـة مهـارتهـا، بصرخـات صغيرة، صوت الحَكَم «الكرة خارجة، خمسـة عشر لثلاثين» وهو في بـذلتـه الصوفيـة الرمـاديـة الوسخة يقضي مدة سجنه، يجمع الكرات «أيـام في بورمـا»، صورة استعمـاريـة مصغرة، حـدث هذا زمن الفرنسيين. قصة يعود تاريخها إلى ما قبل عدة قرون !

جواد تجاوز بالكاد سن الثلاثين، كان يتحـدث عن أبيـه بخليـط من الاحترام والعطف، يتخـذ الحكي كل مرة مجرى غير متوقع، ضحكـة الحـاج بـوشعيب عنـدمـا يتـذكر الآن هـذا

التاريخ، يحكيه لأطفاله : إيوَا سيدي، ما أزال أتذكر إلى الآن يوم خروجي من السجن، أقارب وأصدقاء نظموا لي حفلة بمناسبة خروجي، حول طابق كسكس كبير. جواد يقلد صوت أبيه، الحكي الحيوي، المفعم بالطعم يمر بعيداً عنه، يذوب في داخله عند بعض الانعَطافات، من حين لآخر، عندما يغيب بصدره في حلم عميق ويهم به صمت كثيف. كان جالساً على سطيحة مقهى فرنسا، محفوفاً بأصدقائه، يقفل أزرار معطفه الأزرق من نوع مَاوْ الذي هو الآن لباسه الثوري الوحيد، كان الجو قد بدأ يبرد، تسطو الريح، أميرة هذه الأراضي، بقوة نَفَسها على المدينة، تستولي عليها. كان يفحص كؤوس القهوة بالحليب الصغيرة، الحكايات، كان يعبر الفضاءات، يبحث عن نقط مرور، بين الرصائف، بين مياه الأمواج المتعالية بسبب العاصفة، كان يغامر بحياته، كان يعتقد أنه يعثر على الآثار، يبتهج وجهه، إنه يطأ أراضيَ مألوفة، حبات الحياة، عنيدة، وحيدة، عمياء ومنغلقة بشدة على نفسها، تتفتق وتنصهر في لهائب متوقدة عاتية : وهْم ! كان ينصت لجواد، يلتف الكلام حول ذاته، كان عندئذ مصوغاً من لون الأشياء، من ضوء السماء، من هدير البحر المدوي، من حضور الوجوه، من الجسد الكامد، من الشعر الحريري، من الرغبة في تلك المرأة التي التقاها في الصباح، من الطعم القوي الذي يتكاثف بين الأسنان، من خبز الشعير هذا، المَحْرَاش، الذي كان يفضله وهو يطقطق عند المضغ، كان ينصت إلى جواد ! انقلاب، جواد يعشق هذه اللفظة، يجد لها معاني غير متوقعة، لم يكن يتكلم عن أحداث الدار البيضاء، كان قد اهتم بها، ذهب إلى عين المكان ليرى ما حدث، لكن خوفه بلغ أقصاه يوم الإثنين عندما أمسك الجيش بزمام المدينة، وأصبح من الممكن اعتقال أي واحد من المارة دون أي مبرر، كما كان يقول بصوته الهادئ، لكن الأمر لا يتعلق بهذا، انقلاب، كان يتكلم هكذا، بنوع من اللامبالاة تجاه حياته، قطيعاتها الظاهرية، أصبحت الحياة مسرحاً، شخصيات غريبة مجهولة، مستبدة، لامتناهية الطموح، تتطاحن، تسعى إلى تثبيت إمبراطوريتها، وجوه رقيقة، وديعة، تتطلع ببراءة أعينها إلى هذه الوحوش المقنعة، تنحني الزهرة على الحلم الجنين، انقلاب، هل كان قد تغيَّر، أأصبح شيئاً غير ما كان عليه ! الأطفال يلعبون في الزقاق وسط الصرخات، الاحتجاجات، السباب الفاحش، ينفرج باب ذاك البيت المنخفض. أصوات تتهامس، كان قد عثر في شيء ما : كان هو ذلك المراهق الهزيل، يرتدي فوق «الدجين» جلباب أبيه، تلك التي حصل عليها يوم إطلاق سراحه، كان يذهب إلى المسجد، في وقت السحور خلال شهر رمضان حالماً متخشعاً، ليؤدي صلاته، ينحني على يد الفقيه المبجل الذي كان يقدره، يحب صوته الفتي عندما يتلو القرآن، بحزم لا تنازل فيه، يعتني به، يحذره كل مرة من مخاطر وإغراءات الحياة العصرية.

يوم نزل بمطار أُورْلِي ليتابع دراسته في باريس كان يسمع هذه الكلمات الجليلة، على حافة الجحيم، انقلاب، كان في غرفته، بالحي الجامعي، وقد بدأت لغته تفسد، أمام الطاولة التي يعمل عليها، نظرته شاردة، تلاحق ذبابة، قلم القصب يستعصي، ألف، باء، الصمغ يفقد من قدرته، ينزلق دون أثر، ضحكات مجاورة، كان ينظر إلى ذبابة ضخمة سوداء، قضيب الفقيه يصفع الهواء مثل الحية، هوى خارج اللوحة القدسية، كان يمسك قلم بيكْ جافاً ومستعصياً، أتساءل إن كنتُ لا أزال قادراً على استظهار سور من القرآن، أو حتى قراءتها، في الأيام الأُولى لم يكن يأكل إلا قليلاً، لم يكن يشرب الخمر، كانت نفسه مريضة، ثم شيئاً فشيئاً تعمقت الهوّة، تعلم كيف ينظر لنفسه بسخرية كإنسان متوحش يكتشف باريس، لم يكن يعتقد أن الأمر بمثل هذه السهولة، أُودِيل فتاة طيبة، جميلة، كان مضطرباً تدفعه رغبة جامحة، ركبتاه تصطكان، عندما أمسك يدها شعر بالحمى تلهب كل جسده، لم يعد يذكر كيف جرت الأمور بالضبط، إن كان يحلم أو لا، ما لم يحلم به أبداً، كان لا يزال يستحي أن يتحدث عنه، كان يتحاشى الكلام البذيء، وجوه نساء تتراءى له، سُعَاد، شهور طويلة من الانتظار، من الخوف، من الرعب، ذلك اللهيب الذي كان يودي بهما، تلك العضة التي لا يزال يحتفظ بعلامتها فوق كتفه، رأسه يجن، كان عاجزاً عن تحديد الفرق، سُعَاد، أُودِيل، انقلاب، هل أصبح الآن أكثر حرية في نهاية الأمر، متخلصاً من عقده، كان يفاجئ نفسه وهو يبتسم من العبارات المفخمة لشيْخه العزيز، كانت صورة الجحيم وزبانيته تبدو له سخيفة، كان قد بدأ في تحصيل الآداب، المعارف، فكره يتقوّى ويصبو إلى أنوار العقل، ينسلخ الإنسان المتوحش عن حشائشه الساذجة، عن عريه الأصلي، عن طلاسمه، عن الأشباح التي كانت تخيم في رأسه، كان جواد يحب وصف نفسه بهذه الكيفية، أخيراً ستبدأ الأُمور الجادة بالنسبة إليه : ولوج مملكة الأفكار، الأشغال، الدراسة، التبريز الجامعي، انقلاب، ترفرف الراية السوداء فوق قبة السوربون، العالم الثالث، الكاتنكَيون يحتلون الضريح المقدس، جواد لا يصدق ما تراه عيناه، ريح الفوضى الخصبة، نسغ جديد يسري عبر الشجرة اليابسة المبيضة، تتشقق القلعة، احتل الخيال السلطة والجدران والأرصفة، إنها الثغرة فُتحت في غرفة الأموات حيث كان شيخ الغرب مريضاً يملي، وسط احتضاره، آخر وصاياه، شبيبة طائشة، وليدة ربيع متمرد، تكسر كل شيء، تقذف من النافذة بإرث «الأب»، تتوج الرأس الخبير المحترم لدكاترة الشرف بقمامة، أيتام ماركس ينتشرون في كل الأرجاء مشهرين سعادتهم بوقاحة، تاركين دموعهم للغازات المُبكية، قوات الأمن تعطي البرهان على وجود الدولة، الحوافر تقلب العوائق، بابل، كلنا يهود، كلنا عرب، لكننا ألمان، تتعرى الكلمات، تعدو عارية عبر الشوارع، كل واحد كنّر

لُعَبـه، كلنـا نلعب بزوارق الورق فـوق برك المـاء، الشيـوخ المـدارون المحمـومـون يتعـاطـون للسْتريبْتيز بجنون، والنظرية، هذه العانس التي تُهدي نرجسيتها مثل بسكوتة فتنـة، قررت أن تنسحب وارتمت من النافذة على الرصيف، تعلن العانس الأُخرى حانقة لكل من أولادهَا سمعة بكارتها الجديـدة : ثورة، مضـاجعـة، كـان كل شيء شبيهـاً بكل شيء، كـان كل شيء في كل شيء، جواد يحمله الإعصار، كان قد تردّد على كل الأماكن الشهيرة حيث ساد الجنون الكبير، شارك في احتلال الأُودِيُون، كان في باب ڤرْسَاي ليلة المجـابهـة مع قوى الأمن : تلـك الليلـة كانت المعركة رهيبة، دموية، عنيفة إلى أقصى حـد، كـان جواد يتحـدث عن كل هـذا بحرارة حادة : كان معه رُوبير، لم يكن أحد يعرف الأسماء العـائليـة، يهودي مغربي من فـاس، مـاوي متطرف، سبـق لـه أن اشتغـل في مصنـع، كثيراً مـا شـارك في عمليـات السّطـو، مُـدْمن على المخدرات، وجه قبيح لكنه قبحٌ فاتن، مضطرب، يهز قسماتـه هـذيـان مستمر، هلوسـات رغبـة جنسية جموحة مشوهة تقذف به من سلبية لواط يخضع فيها لنزوات عشاقه إلى نزعة سلطويـة متشنجة تجاه صديقاته. جسـد مفكـك يسبح في صورة خطـاب طوفـاني لاهث، كـان يكتب نصوصاً مكسرة، متاهات يصهرها طموح عشق وحشي، كان روبير قـد نـاهض بعنف قـاس كُلاً من أبويه وجدّيه اللذين كان ـ بالرغم من ذلك ـ يشعر بنوع من الحنان تجاههما. كان يحتقر التقاليـد، ذاك الفولكلور، يكره تلـك اللغـة العربيـة التي يجهلهـا، يكره الـدين. وبحنق كـان يسعى إلى محو كامل لأُصوله، وعندما بدأ يلتقي بجواد ويدخل في نقاشات لا نهـائيـة، أصبح يتراءى له عالم شاسع كان متواريـاً في الأعمـاق، مجهول ينكشف لـه بقوة لا نظير لهـا. كـان يجـد نفســه بتلقـائيـة وعفويـة متحيزاً إلى جـانب جواد، هـو نـوع من الاعتراف، من التـواطئ الضمني الذي يستحيل الإفصاح عنه. دخلت الحسناء النائمة في الغـابـة من جـديـد في سبـات عميق، تلِج الساحرة الشمطاء، ذات الذقن المستطيل، فراش فارسِ الأحلام في قهقهة مـأتميـة : عرس البشاعة والرطوبة المُقرفة، نهاية لعبة، الأطفال المتمردون اتخذوا زيجات، وخلفوا أبنـاء، رتبوا ذكرياتهم فوق الرفوف، واحتفظوا بقطعة من قطع رصيف شارع كَي لُوسَـاك، جمع جواد حقائبه للعودة لقد حاٰن الوقت لذلك.

في المطـار، ألمّ بـه الخوف، كـان الشرطي يفحص جوازه، يطرح العـديـد من الأسئلـة، يسأله لماذا بقي غائباً كل هذه المدّة، ماذا يحمل في حقائبه، والكتب التي معه من أي صنف هي... لكن نظراً لعدم التزامه سياسياً أُخلي سبيله من غير مشـاكل. الآن ألم بـه الانفعـال، هو الذي كان يعتقد أن المدة التي قضاها في باريس، أكسبته مناعة تجاه كل أنواع الانفعال عادة إلجام الأحاسيس، تشويهها وتقديمها كرفاهية مبتـذلـة اصطنـاعيـة، ينبغي للمرء تجنبهـا كـأمر

مشين، كان يجهد نفسه في السيطرة على نبرات صوته، الدموع المندفعة في مآقيه، يقبل يدَ وكتفَ والده، يرتمي في حضن أمه كما لو كان دائماً ذلك الطفل الذي بقي في أعينها هي، ذلك الذي تحتفظ به دوماً في حجرها، في بطنها، ذلك الذي تحمله على ظهْرها، في جسدها، في حياتها، حب يرفض التجزئة. توقف مذهولاً، أمام سعاد. تبكمه المفاجأة، لم يكن يدري ما السبب في ذلك، بالرغم من فراق بضع سنين فقط. سعاد في سروال «الدجين»، لكن ليس هذا مصدر دهشته، سعاد يظهر عليها الارتياح، سعاد طليقة، مبتهجة لرؤيته، تطلق ضحكات عالية أمام اندهاشه. «ماذا بك، كأنك آتٍ من كوكب آخر !» كانت تشاكسه، تعانقه بحنان لا حدود له. باسم الله، له الحمد والشكر، حرارة العبارة الأُولى، العبارة القديمة، تخترق حدود المنفى والإقصاء المؤقت.

على سطيحة مقهى فرنسا، جواد... صوت بعيد يكتنفه الصمت، صوت متباعد الكلمة على حافة الغياب، قريباً، قريباً مما كاد أن يفقده، مما بدأ ينتعش الآن، حياته التي ينبغي له أن يخلقها، سرّ النور الباطني الذي لا ينبغي له إفشاؤه، الفجر المنبجس من الليل كنبع، سيل عارم من أوهاج نحاسية.

لكنه هو الذي لم يكن يريد الإدلاء باسمه خوفاً من الموت، كان ينصت إلى جواد، ينحني على ركبتيه، وبجبينه الموسوم بنجمة يمس الرمل، حبة عنيدة، صحراء حارة، آيْلاَن، هكذا كان يطيب له الآن تسميتها، وخوفاً من أن تضيع منه كان يضيعها في الأسماء، آيْلاَن، قد تأتيه، بكفيها الملتحمتين، ترطّب شفتيه الملتهبتين بعذوبة ماء صاف... كان يعشق هذه الصورة ويتشبث بها كما تتشبث الذبابة بزجاج نافذة مغلقة. ازدادَ الجو برودة، كان يشد بطرفي معطفه المَاويّ كما لو كان يفرض على نفسه نظاماً محدداً، في قاع كؤوس القهوة الصغيرة، ترتسم معالم المنظر : لكن مخلوط الحليب يشوه معالم الرسالة الملقاة هناك، يقترب الليل آيْلاَن، يكتنفه النور، إنها هي ! عيناه تنغلقان، تنطفئان، وبأصابعه العمياء كان يتلذذ بسعادة تلمّس جمال وجهها، الزهرة، العذوبة، كان يتمتم بكلمات صماء، هذه ... الشفرات المهنّدةكانت قدماه، يداه، قلبه كلها تنزف، بيده المقطوعة، اليد المذنبة، كان يحاول إبعاد أرواح الشر فوق كناشه الأسود المحفوف بالأحمر... وجه ابن مُقْلَةَ الأعور، الخطُّاطُ الفذ، المذنب، عوقب لأنه اعتدى على النص المقدس، بُتِرتْ يدُهُ.. كانت الرؤيا تتمثل لعينيه بإلحاح لا يطاق، سمفونية باروكية، ربما بسبب أرضية السطيحة، أو القوة الجبروتية للرياح العاصفة، آلهة الكون، أصبحت سطيحة ذاك المقهى المتواضع الجدودي التكراري، عنوان الماضي، خشبة لمسرح شاسع يتحكم فيه الزمن، حيله ملغاة، فضاء مُعزّم عليه مدجّن بحيث

أصبح ذا بعد متحرك، يُرفع الستار : حشود كائنات تملأ الأرض والسماء بصرير لا يُطاق، حشود في الشوارع، نيران أحلام وهذيان، قطبية العواصم متغيرة، انهيار الإمبراطوريات، سقوط التاريخ، أطلال، ممثلون يتسارعون إلى مقدمة الخشبة مقنّعي الأوجه، أقنعة بلا وجوه، ظلال أجساد، أجساد، أجساد بلا ظلال، كانت الهزلية تعرض في نفس الآن في كل مكان، مشاهد مترابكة، مترادفة : رجال بكمامات سوداء، ظلال سوداء ترقص من خلال دخان شموع مشعلة وسط معبد عجائبي، تحاكم بئيساً ممزق الأطمار، القدمان حافيتان، سوداوان، كثيفتان..

جريمته : حاول في لحظة جنون، سحق قلب الزمن، بصخر ثقيل تناوله على حافة الطريق. خطوة، وانزلاق نظرة أمام أعينكم المندهشة : مسرحية هزلية، مسرحية ساخرة، مأساة قديمة، ملحمة، حكاية ألف ليلة وليلة، لعل ترادف الأجناس لا يخل بمتعتكم ! المشهد : هذا المساء اختار ماركس أن يموت هنا في مدينة البندقية جنب كازانوفا : تمزقات، نائحات يهذين، رهبان مترنحون بابتهالاتهم، عاشقات متيمات تائهات، متسولون يلتقطون النفايات الإيديولوجية، مفكرون متمردون، إنها مدينة العجائب.

موت أسطورة : كازانوفا أمام عيني فيليني، رجل فظ، زير يتمتع بكل الإباحات، آلة خشنة للمضاجعات وسط عالم من المتاهات والهذيان، حيث تتزين الشيخوخة المهترئة ببراعم الروحية الهندوسية، حيث تجمدت الحياة في حدبات الورق المقوى وفقاقيع الديكور المبتهج ! ماركس، ماركس، المتفرجون وقوف يهتفون، يكسرون الكراسي : استنساخ مسرحي خشن، فضيحة. لا ! لا تصرخ، صدور عارية مستباحة للرصاص، لسنا هنا في البندقية، يلطم المحيط طليقاً أسوار الصُّقّالاَ بمياهه اللامتناهية، هنا في الصويرة، الحرية الجموحة، لا، قطعاً لا ! هذه المياه الميتة الآسنة، حبيسة القنوات، مكتفية بتجديفات زوارق في مدار مغلق ومكرر باستمرار... يحاول مواجهة الوضع، تفريج الحكي ببعض الانقشاع : «أعزائي الصويريون، إخوتي في الدم، رفاقي من أهل الرؤيا النبيلة، لا مجال للارتياب، أنتم تعلمون هذا، أنتم الذين تقيمون في المد المتواري بين العتمة والنور، لا يستحيل التلاعب بأنساق الأدلة المتحركة، الجبر للتاريخ القادم، هذا الرأسمال، ذلك العطاء المتميز الممنوح لبعض المدن، راجعوا الدليل الرسمي واعذروا هذه الإحالة المبتذلة، ستجدون فيه أن الفينيت، سكان البندقية الأولون، لينظموا حماية المدن...»، فجأة قاطعه الصراخ، الصخب، تضيع كلماته وسط الضوضاء : جنون، جنون اللجوء إلى الماء للهرب من البربر، جنون جزر النجاة هذه سرعان ما يبتلعها اليمّ.. جنون ! سعادة العابر، بطانة ناعمة لنسيج الأبدية، تملّكْ نبضات قلبك !

الصويرة ! الصويرة ! الصويرة ! ذِكْر ! ذِكْر ! ردّد ! ردّد ! اهتف إلى ما لا نهاية، إلى أن تكتنفك النشوة، إلى مقام النسيان، الجرح، فجر ميلاد الطفل ـ الصويرة، الصويرة، همس باطني يمحو الكلام، يتدبّر وسط امتداد عرش الصمت السائد. أنصت أنصت إلَى دقات نبض أراضي الأسلاف هذه. أنصت ! إذا كنت عشيق هذه المدينة، فتخشّع، تخشّع : أقبل حافي القدمين، مطهّر القلب، هيا تخشّع... بإشارة من يدك اطرد الذباب، الثرثارين، الباعة الوقحين، العاهرات الشبقات ! أنصت ! لقد دخل البحر المدينة، انغمست جدران مدينة وميناء في المحيط الذي تُقبل فرسانُه مُطْلِقةً أعرافها في مهب الرياح. إنه المجذوب، العاشق المتيم بين ظهرانينا. لا تقذفوه بالحجارة، لا تقابلوه بالسخرية البلهاء. أنصت إلى كلامه السامي، المستقيم : أنصت، أنصتوا إلى حُمرة صوت الغاطسة، إلى رنين الليرة الهادئ، دقات البندير الصّماء. يتعالى البحر ببطء، وتمحي الأرض هناك في الأُفق. يبتلع البحر خطوات المشعوذين، يغسل بهرجة البغيات الصارخة، واقذفْ إلى النار بالأقنعة الكاذبة... لم يستطع أن يختم، اختلط الحابل بالنابل، انهارَ الديكور، تمزّق الستار، تكسرت الخشبة، تقوضت، إنها الفوضى، هو الخيال عرضة للتدنيس، العرض مثل نهر عارم عنيف خرج عن حصنه، يجرف في اندفاعه الكائنات والأشياء. من أين ظهر فجأة مَرْدُوشي مع أنه جالس إلى الطاولة المجاورة، على سطيحة مقهى فرنسا، منزوياً شيئاً ما كما لو أنه باق في الكواليس منتظراً دور ظهوره على الخشبة ؟ مَرْدُوشي، أصلع تقريباً، يحمل نظارات داكنة سميكة، يبتعد عن طاولته، يتقدم بخطى مترددة، مرتجفة.

يكلمه ليجيبه، يذكره بالقرابة العائلية، بالمعرفة القديمة. مَرْدُوشي رؤيا، ذكرى مضببة، شخصية كتاب منسي، رجل بلا عُمر، كائن من لحم ودم، مَرْدُوشي قناعُ رمزٍ، يقبل فجأة، يفصم الحياة الجدية، يقطع صوت جواد، يوقف الحكاية، مَرْدُوشي ممثل غريب يلعب، يقلد الموت المزدوج، الحياة المزدوجة، يأخذ الزمن عقبه، قدم خطت المسافة نحو الضفة الأُخرى، يشير، يشير إليه كما لو أنه يناديه، يريد استدراجه، مَرْدُوشي ورفاقه العشرة، عبور يوم القيامة، في وسط اللوحة، على سماء منبطحة خلاء، بعيداً، بعيداً، آخر الأعداد المتعددة : إنهم آخر من بقي، ذهبوا مثل نفَس حياة ينسحب وينطفئ ببطء، مغامرة، مسار، معرفة من خلال المغارات، غياب وفراغ : هذه الأحياء، هذان الملاّحان، هذه البيوت حيث استقرت حياة جديدة، جاهلة سابقتها، هذه المعابد، هي الآن بنايات خالية، أبواب مغلقة على صمت إيمان قوي، نوافذ مغلقة على أنوار ناصعة. بسست ! بسست ! في صمت الظلمة، شارع الملاح القديم قفر، بسست ! بسست ! دعوة العاهرات للزبون المتأخر. بسست ! بسست ! هنا وفي هذه الأماكن

الأُسطورية كان المستقطبون الصهاينة يغرون المارّة. الأُسطورة الكبرى أشعلت النار في السماء والأرض، اجتثت الأرض الخالدة، دفعت بالرجال والنساء إلى حافة نهاية الدهر.

مَرْدُوشي ورفاقه العشرة، تمّ رميهم والإلقاء بهم إلى رمال النسيان، رجّة عارمة تسري في كيان المدينة كما لو أنها تكشف دفعة واحدة، قريباً، قريباً جداً منها، علامة موتها المحتوم. رجّة عارمة : شعر بلسعة البرد، فشدّ إليه أكثر معطفه المَاوِيّ، كان مَرْدُوشي يتكلم، يكلمه، صوته يتمدد أصداء سيول، هاويات تنفرج فجأة، موجة عاتية تهرع من الأفق، والبحر يهدد بابتلاع كل شيء، مثلما حدث ذات يوم، يتذكر فجأة، كم مرة حكى له والداه، ذات يوم، عندما داهم النادي اليهودي مفاجئاً لاعبي النرد الجالسين من حول طاولاتهم، كان ينظر إلى مَرْدُوشي، يتأمله بإمعان، كان ينظر إلى اللوحة، استعارة يوم القيامة. أيادٍ خفية تمزق الإطار، قماش اللوحة يتحرك طليقاً، كان يحاول رسم خط فاصل، يفكر في خط فاصل بين المياه : هنا أصدقاؤه الشبان، جواد المنبع النابض، وهناك المياه الميتة، الجسد النابض، النهر الجاف، منحدر الجبل، لكن الاستعارة تشخص فيه بعين ثاقبة، متفرسة لا تلين، تشل أدنى حركاته. يتفكك الإطار، تفلت اللوحة طليقة، تتضاعف، تتعدد، لعبة مرايا تتفرق، صور تهوي مثل أسهم في ليل الأزمنة، ليل صور نجمية، نقطة التّماسّ، الكسر. تعال تتغذى، يوم السبت !» مَرْدُوشي، صوته المهموس، اللكنة، النطق المُعدي، العربية تنطق من خلال تلك الفرنسية المستعارة، تعبرها بنبرات لا تُقلد، من العالم الآخر، من الضفة البيضاء للغياب، مَرْدُوشي يدعوه جواد. يستدرجه ! يتوقف الحكي على حافة اللا متوقع، قريباً وبعيداً، مسافة بلا قياس، عقد خيوط متشابكة، توافقات بلا آثار، كُرَيّات مغلقة على حفيف الحياة والموت على المائدة.

كيف السبيل إلى النزول عبر السلم في هذه الحياة المختزلة، المتعجلة، المصحوبة دوماً بطنين نافذ الصبر ؟ مستحيل ! فحصتك من الزمن قصيرة بحيث أنك بتضييع ثانية واحدة تكون قد ضيّعت حياتك كلّها، لأنها ليست أطول، فمدتها ليست في الواقع إلا تلك المدة التي تضيّعها ! هبك انطلقت في اتجاه ما، استمر مهما كلّفك ذلك، حتماً سيحالفك التوفيق، إنك لا تقوم بأي مخاطرة، ربما تصادفك الكارثة في نهاية المطاف، لكن منذ الخطوات الأولى تكون قد نكصت على أعقابك ولو نزلت السلم من جديد، تكون قد أخطأت منذ البداية، هذا محتمل أكثر، بل إنه أكيد، هكذا لا تجد شيئاً خلف هذه الأبواب، لاشيء ضاع منك، اندفع نحو سلالم أخرى ! طالما أنك لا تتوقف عن الصعود، فلن تكف الأدراج، عن الصعود إلى اللا نهاية، تحت قدميك المتسلقتين.

فرانز كافكا

كـان اليوم إذن يوم السبت، البيت العتيق المحتضن في الجـانب الـداخلي للأسوار، نقرة صغيرة على البـاب، أصوات من فتحـة النـافـذة العلويـة، سلم حلزوني، أدراج عـاليـة محفوفـة بالخشب، نكهـة القرون، في ألفـة سماء يرتقي نحوهـا السلّم. هـذه البيوت العتيقـة تتيح حركـة الزمان والفضاء. الموت من حول المـائـدة ! وجبـة السبت، كـان قـد قبل دعوة مَرْدُوشِي، لكن الغذاء سيتم عند بَابَا. بَابَا ! كما كان يناديه المقربون، بَابَا بنْ إيتَاح حلاق إنزكَان. هكذا كان يدعى، لكن في الواقع كان دكانه في أكَادير وهناك عرفَ أوج أيامه. كانت السنة البارزة في حياته، سنة العشق العـارم، المجـد والحبور... ودارت الأيـام دورتهـا : طـويل القـامـة، نحـاسي السحنـة، فمٌ أدْرَدُ، نـاب وحيـد في ذاك الفراغ، أصفر، مرتج، حـاضر كل الحضـور، كـان بَـابَـا يتكلم قليلاً، ينهمك في التلذذ بالسخِينة، السبت، وجبة التضحيـة، الموت من حول المـائـدة : پيپي، ضيف السبت، وجهـه مفعم بلادة، محمرّ من أثر الكحول، آليـة رهيبـة، يكرّر في اتجـاه بَابَا «ستموت بعـد قليل، غـداً !» «أنت قبلي، سـأحضر تـأبينـك».. النـاب الوحيـد يضحـك في ارتجاج. بَابَا يردّ «انتظرْ وسَتَرى !» نظرةُ بَابَا تلتقي بنظرة الانتصـار على تمثـال الحريـة، متر ونصف من البرونز، هنـاك في ركن الحجرة، شمسُهـا اللامعـة تضيء العـالم. ثقـل سمـج. «جـاتْ مَزْيَانَا»، السّخينة نـاجحـة، تيتي، حتى في سن الواحـد والستين لا تزال تُـدعى بهـذا التصغير، تيتي ربة البيت تسعد بإطراء تمثال الحرية، تمثـال البرونز. إنـه إرث سِيرْ هَـارُولْـد سِيمْبْسُون، الملحق القنصلي بالبيوت العتيقة، مات قبل عدة سنوات «الله يرحمه» ! بضعة كراسِي من طراز شيسترفيلد، مبقورة، وأسلاكها عارية.. إنه إرث المرحوم سِرْ هَارُولْد. ديكور قـاعـة الأكل في يوم السبت ذلك. تيتي وُلدت في الملاّح، لا في القصبة، حي الأثرياء، أبوهـا «المسكين. اللـه يرحمه» كـان صبـاغـاً وخيـاطـاً، لكن لا يهم «سويرتي»، نصيب، عـائلـة موزنيمو من القصبـة، تبنتها تقريبـاً، تلقت دروسـاً في الإنجليزيـة على يـد ميسِيزْ سِيمْبْسُون... انظروا إلى جـدران

قاعة الأكل تلك في يوم الضيافة السبتية ذلك : لوحات الزمن القديم، شوارع لندن، حافلات على الطراز الأوربي القديم تسحبها خيول منمّقة، رجال بالزي البريطاني التقليدي، بَابَا هو الآخر وضع القبعة الإنجليزية للذهاب إلى البيعة يوم الاحتفال بزفافه، أما سيرْ هَارُولْد سِيمْبْسُون، الملحق القنصلي لصاحبة الجلالة، فكان بقبعة على الرأس، يمسك بها بإحدى يديه خشية أن تطير بها الريح، اليد الأخرى تقبض بعصى فاخرة ذات رأس فضية، صورة المناسبات طبعاً، هادئ مبجل، وجه مدبّغ بالويسكي وجو البحر، تيتي تتحدث عنه، تيتي تستعيد ذكراه كما لو حدث ذلك بالأمس، يعبر باب السبعة أو دار العاصور، صور خضراء لفتيات في زي وردي، قبعات محشّاة، على ضفة نهر التاميز، صور العائلة الملكية، إمبراطورية خالدة... تيتي تزرع حديثها بكلمات إنجليزية، تنطقها بغنة تحمل أثر البربرية، لا شيء تغير، لا شيء من هذا الديكور تحول عن مكانه، ساعة مانشستير الحائطية، نظيرة تلك المعلقة في البيعة، لا شيء، حتى الطاولة التي يتناول فوقها بَابَا الآن سخينته، وبصره يبرق، طاولة من الأكاجو الكثيف، نفس الطاولة التي كان المرحوم سير هَارُولْد سِيمْبْسُون يتناول فوقها فطوره البريطاني. پيپي يابس مثل الخشب، يسرع عندما يذهب نحو الميناء، لأنه يشتغل في السردين، يردد إثر كل ملعقة حمص : «ستموت» في فم بَابَا الأدرد يرتج الناب ارتجاجاً خفيفاً «عزرائيل، ملك الموت، سيأتي ليقبض روحك قبلي. عزرائيل سيطردك من الجنة... ستذهب إلى النار لأنك تجهل حتى قراءة اسمك على اللوح، لذلك سيقذف بك المَلَك في جهنم !». پيپي، كان قد قدم من المنطقة الإسبانية سابقاً، يلتهم مخلوط الأرز ويتلمظ اطراء في اتجاه تيتي : مَرْيَانَا، السخينة ناجحة، تيتي ترتدي صدارتها، على عتبة المطبخ.. كانت قد تعلمت الإنجليزية، لاينبغي نسيان هذا... تيتي تستقبل الاطراء ببسمة ارتياح عميق..

إيَحَسْرَا، إيحَسْرَا.. آسفي على الأيام الماضية ! كم بقي من اليهود ؟ واحد وستون ! أموات أكثر من الأموات المدفونين في المقبرة القديمة جنب البحر. إيجيرا ! پيپي أبله السردين يتعنت : ستموت، غدا ندفنك ! خلاص، إيوا كُلوا، كُلوا ! تيتي تخرج من المطبخ، ضجرة تنفجر تحت الطلاء الأحمر المطبق على وجنتيها. واحد وستون ! السبت، عندما يذهب الشيوخ لزيارة أبنائهم في الدار البيضاء، لا يبقى العشرة، «مَنْيَان» لإقامة الصلاة. أموات أكثر من الأموات.. إيحَسْرَا، إيحَسْرا.. دارت الأيام ! كان العام عام الخيول السوداء. جاء السيد جُويرَا خصيصاً من باريس مع حقائب جميلة وأكواب من البلور مليئة بالدهان، لماعة، بشهب الأغراء. ذاك العام كان بَابَا قد فتح محلّه بأكَادير، أدُولْفُو مُويَا هو الذي علّمه الحرفة. قبل ذلك كان يأتي إلى بيت الزبون بحقيبته القديمة، والمقص والزجاجة، والموسى. والمشط..

إيَحَسْرَا ! مئات الأيام ! انقضى ذاك الشيء ! أين ذلك الزمن ؟ كل ذاك فات وانتهى، كان المحل رائعاً.. بَابَا، بفضل صداق تيتي، استقدم من اسبانيا بواسطة أدولفو، أريكة مزينة بالنِّيكَل، متكئات المرفقين والرأس من الجلد الأحمر، مع إمكانية تغيير الارتفاع ومحور لتدوير الكرسي، «آيمًا !» رأى تحفة، عبارات التعجب والاندهاش : حتى طبيب الأسنان النمساوي لم يكن يملك مثله ! والمرايا على الجدار : يالصعوبة تعليقها.. المعلم حَسَن عانى كثيراً من أجل ذلك، لكن كل شيء يهون من أجل صديقه بَابَا، تبارك الله عليه. شفرة بَابَا تنزلق على أشهر وجوه المدينة، سحب من المسحوق الأبيض تتطاير من المنفوشة الحريرية، بَابَا، نفحة من النفحات الإلهية، لدرجة أنه ذات يوم أقبل عليه الكولونيل بْرُولُوك دي هُوتْفِيل، قائد المنطقة العسكرية، ليحلق شعره. هبة ! هبة ! فرصة ذهبية. نصراني ! فرنسي حقيقي، بعينين زرقاوين. ثم إنه كان يخاطب بَابَا مخاطبة أليفة.. بَابَا في منتهى الانفعال. كان قد تعلم الفرنسية في المدرسة الإسرائيلية... لكن يصعب عليه النطق بالجيم، كان يُخرجه زايا يا للانفعال.. كاد يتلعثم وهو يحدث زبونه السامي المقام. رمز فرنسا برمتها على الأريكة أمامه... كم الأداء ؟ لا شيء ! يقبض أجراً من الكولونيل ! بل أعطاه قنينة عطر هدية للسيدة، قال الكولونيل في نادي الضباط متحدثاً عن بَابَا «شياطين هؤلاء اليهود... خفة يد ومهارة».

غداً، غداً، ستموت، سأسير في جنازتك. پيپي، محمرّ مدادي، بليد السردين يلتهم مخلوط الأرز ومرق الحمص، بشر مثلك، الناب الوحيد يرقص، يرتج احتقاراً، وجه بَابَا الطويل يمتد : من تكون أنت ؟ ولد السوق، حرامي، انتهازي، إيَحَسْرَا ! إيَحَسْرَا ! ذَابَا تْشُوفْ ! بَابَا لا يموت «السيد بُول دِيشَانيل لا يموت، لكنه ارتدى منامته مقلوبة». إنه السيد روجي، أول صيدلي فرنسي في المدينة، أحد زبائنه الجيّدين، هو الذي كان يتغنى بهذه الأُنشودة، هكذا ذات يوم بينما كان بَابَا يحلق شعره. تابع دروسه في المدرسة الإسرائيلية إلى مستوى الشهادة الابتدائية، تعلم أن أجدادنا هم الغوليون وأن فرنسا جمهورية. كان السيد بُول دِيشَانيل أحد رؤسائها. هكذا تعلم كل هذا وهو يردده بلا فهم.. أما پيپي فلا يفقه شيئاً، اسباني مرقع السروال، زبل... ستموت ! پيپي بصداره الأصفر وسروال التركال الأزرق؛ يرتدي يوم السبت أجمل ما لديه؛ يتجشأ تلذّذاً : جَاتْ مَزْيَانَا، السخينة ناجحة ! أليس كذلك ياتيتي، وجهها المكور ينفرج ارتياحاً : إيوا كُلوا، زيدْ شْوِيَا.. بْعِيشَكْ ! أرجُوك ! مع الأسف لم يكن لها متسع من الوقت.. حضّرت السخينة بسرعة، أمس كان عليها أن تزور حليمة، صاحبة أكبر صالة للحلاقة بالمدينة، منذ أن رحل الفرنسيون. تيتي لم تكن بعد بزي عيد

السبت، كانت لا تزال ترتدي بنوارها وحذائها البيتي؛ بعد قليل ستلبس لتذهب إلى «البار ميتسفا» لكن شعرها المصبوغ بالأسود ممشوط. حليمة فنانة كبيرة، رائعة ! من فوق شِعر تيتي المقبب زُيِّنَتْ حلويات سوداء متشابكة الأقواس، تحفة حقيقية ! روب من قماش الطافتا، زهرة حمراء اصطناعية توشي الصدر : عبارة عن بيضة مختلطة غارقة وسط الأدهان، أكياس نفايات. أيام «صَالُو» المئة، آخر أيام حلاق إِنْزَكَان.

صرامة في الإخراج، نِظام لوحات محكم الترتيب، حساء الحمص المدمس نفيات رغبة جافة، مني ناضب، فرج مهترئ، فم أدرد، رقصة مأتمية للناب الوحيد، جسد تُرَضِّضُهُ تجاعيد وأخاديد العرق والظل، وجه المسخ للأحمق الكبير، عينان مفتوحتان على ثقب المخ، احمرار مَرَضِي، پيپي السردين ينفطر، تِرداد من وراء القبور، بَابَا يَرْتَجُّ؛ إنها مأدبة المسيح، الموت من حول المائدة. لوحة أخيرة عادية للأَبْتذال المدهش : تُحضر الفواكه والحلويات والشاي، تيتي في البنوار والحذاء البيتي بالرغم أن اليوم يوم السبت. رجاءً، اعذروها، لكنها بعد قليل ستلبس زي الحفلة، روب الطافتا الأسود، الورد الأحمر الاصطناعي المُوَشِّي للصدر، تيتي تقف بين قاعة الأكل والمطبخ، تراقب خديجة الخادمة الصغيرة، خديجة تنزلق خارج قماش اللوحة : من أين أنتِ ؟ انقشاع وسط سماء مرصصة تكتنف عبث الموت.

أزْبَالْ، نفايات، ماذا تـ... بَابَا يغفو، الكلمات تخرج متعفرة، تمثال الحرية، في زاوية يلمع بأنوار تنأى أكثر فأكثر، يتحول الأثاث إلى ديكور من الورق المُقَوَّى، أرائك مجلدة من طراز شيسترفيلد، لوالب عارية مثل دابة مبقورة، تنظر من حولها في صمت، ضحية الغبار، من سَيَرْوي حياة حلاق إِنْزَكَان ؟ صورة مصغرة منسية في زاوية لا يكتشفها البصر إلا صدفة شرود. أزْبَالْ ! ماذا في وسع پيپي أن يعرف من كل هذا ؟ بَابَا يلقي نظرة سخرية واحتقار ! يطغى عليه النعاس بعدما أكل السخينة الثقيلة. تيتي بحذاء بَاطَا بين قاعة الأكل والمطبخ تراقب كل شيء، تسهر على كل شيء؛ نهاية جولة، صوتها الخشن يردد : إيوَا، خذوا الشاي، خذوا الحلويات ! ألم تعجبكم ؟ لا، لا، لا شكراً؛ پيپي، عينان بطرتان : كان يُقال، كانت ألسن السوء تقول، كلمات لا تنضب، كان يُقال أن بَابَا العجوز، أعزب في هذه المدينة التي كان لها زائراً، أن تيتي... ألسن السوء كانت تترنم : أشْ بْقَا فيك ٱلْوَرْدة ؟ بإيجاز، فِسق الظلمات، تضاجع الضفادع وسط بيداء الليل، مَنِي عنيد، فرج ذابل، جوق باروخي، شبق اللا معقول، مساحيق جافة من حول دائرة دُبر شمسي، قناع تتخلله فقاقيع لحوم مهترئة، احتفاء بملاذٍ متشنّجة. العجوز والموت، أفراح باردة لمناشف نتنة، لأغطية، مهجورة، صمت واعتدال، يشقّ الحكي طريقه.

أزْبَال، تذهب إلى الميناء تجمع السردين، هناك واقفٌ تحت الشمس مثل ابن الزنى، يطلب، يطلب من كل أولائك الذين بقوا، مَنْ هو بَابَا ؟ خلاص، خلاص، تحاولِ تيتي تهدئة "الأعصاب، خديجة خارج اللوحة، قطعة سماء ناصعة، بَابَا ينفخ كلماته، فقاعات سخرية تُنشر على وجه پيپي الغبي، ربما لتحدي الموت أيضاً، للعبث، لكن إلى متى ؟ الناب الوحيد. يرقص على حافة المجهول، يكاد يفلت من صاحبه، كل ما عُرف عنه أنه غادر مدينة أكَادير، ترك صالونه، لكن لا أحد يعرف لأي سبب، اهتزت الأرض وامحت المدينة من الخريطة، إلاّ بعض المنازل. هل غادر المدينة إذّاك، إثر تلك الكارثة العظمى ؟ مدينة صغيرة لا يهم كيف تسمّى، لعلها تنزلق من بين صفحات التاريخ وتسقط في بحر اللامبالاة، يمكنها أن تتبع مثال تلك المدينة الشهيرة بين المدن؛ مدينة لُوسْ في سَمَارْيَا، حيث كان البشر لا يموتون أبداً، ومن حيث كان عليهم أن يخرجوا ليموتوا عندما يشعرون بالرغبة في ذلك ! قد يكون بَابَا خرج من المدينة ليأتي طلباً للموت وسط هذا الديكور الغريب متشبثاً بماض عنيد. من يستطيع معرفة الحقيقة، من يستطيع أن يعرف أي لعبة كانت تُلعب في يوم السبت ذاك ؟ عيد الراحة وصلة الرحم، احتفال عاديّ تخترقه حيوية أحوال عنيدة تتحرك على هواها، مطرقة لا يتحكم فيها أحد ! زلازل أخرى أقل ظهوراً، زلازل التاريخ والقدَر، حركتْ حياة البشر من الأساس وغيرتْ وجة الأشياء، ببطء، وبدون تقلبات بيّنة.

كانت الأخبار تجري مثل أنهار تأتي لتنصبَّ وسط الصالون، هناك حيث تتفرع مجاري الحديث، لأنْ لا أحدَ عادة يقرأ الجرائد التي لا تقول شيئاً، ولا أحد كان يحمل همَّ ذلك : كان صالون بَابَا هو مصدر الأخبار، تنطلق الكلمة من الواحد نحو الآخر، لذة الحديث، الضحك، الانفعال لوقع الأخبار، مكوك لا يتعب، ينسج منسج الأيام؛ تتوقف الكلمة في الغياب أو النسيان، لا شيء له وجود خارجها، كل شيء يموت إن هي ماتت. لاشيء مكتوب إلا **المكتوب**، وإذا كانت هناك كُتُبٌ فإنها كُتُبُ الصلاة، خالدة، خطاب إلاهي لا يتغير. الحرب، الاستقلال، هذا يتجاوز قدرة الذاكرة على التخزين.

لوحة المدينة الصغيرة الهادئة تتعكر شيئاً فشيئاً، سماؤها الثابتة تكسوها غشاوة، والأرض تهتز؛ مَنْ قرّر أن تكون الأمور هكذا ؟ في تلك الأزمنة كان بَابَا يستطيع الكلام، لكن مع من ؟ لا يهمه شيء غير امتلاء البطن بالبيض المسلوق أو بالبطاطيس البنية الغامقة لفرط ما تركت على النار؛ لم الكلام على أمور مضت وانقرضت !

أمواج التهديد الأولي تهرع من الأفق، يمضي الرجال ينزلقون خارج المشهد، بتخفٍّ شديد على أطراف أصابع الأرجل، لم يكن أحد يتكلم عن غاية الرحلة ولكن الجميع كان

يعرف : أسماء تجري على شفاه مطبقة : إسرائيل، كندا، وكمرحلة أولى الدار البيضاء، حسرة، أسىً في القلب تصعب مواراته بفرحة سطحية، نداء المهدي، مصير يستكمل دورته، لا مباليا بما كان من الممكن أن يفكر فيه كل واحد، أن يقوله أو يفعله، تَرْتَجّ الأرض؛ منَ قرَّر أن تكون الأُمور على هذه الصورة ؟ بَابَا كان إذاك يستطيع الكلام؛ صمت ثقيل، مرهق، همسات سرية : إنهم رحلوا، لم يكن ينطق بأي اسم كما لو أن الغائبين فقدوا اسمهم، هويتهم عند رحيلهم، يغرقون في متاهات المجهول العميقة، نزيف بطيء؛ كان البعض يبيعون بعض الأثاث في الخفاء، بعض الأشياء؛ قيل لهم ألا تحملوا معكم شيئاً؛ أعراض الحمى الأولى، فجأة وبين عشية وضحاها تخلى البيوت، تترك للإهمال، مشهد الأسى : كراسي مكسرة. نضائد مبقورة، أوراق، غبار، مسامير صدئة وقنينات فارغة، قطع زجاج، بقايا حياة محطمة؛ كان بَابَا يعرف، ينصت، يتحدث قليلاً، يؤدي حركات حرفته بدقة وبأناقة، دون أدنى اضطراب، رغوة الصابون الوفيرة تتعالى بانتظام على وجه الزبون، مِقص، في نقرات الطلقات يقص الشعر بجرأة، يتساقط الشعر على الأرض حصيلة رمزية من علامات غنية بكل الحكايات القابلة أن تروى : كان ذلك إذن يوم الثلاثاء أو الأربعاء، بَابَا لا يستطيع الجزم، شعون الخياط كان قد أتى إليه ليحلق شعره كعشية عرسه، كان بَابَا يعرف ذاك الرأس عن ظهرِ قلب، جغرافي يقص، كان يعرف معنى كل شعرة، كيف يجب تناولها، حركاتها وانزواءاتها، كان يعرف أي نمط من الحلاقة كانت تتطلب، نوع الدهنة التي كان ينبغي استعمالها، كان شعون متأثراً؛ عندما كان آخر مرة يدخل فيها ذاك الصالون، وراء نظارات شعون السميكة وجه نحيف، وبسمة خفيفة. هو الذي كان الجميع يحبه لخفة دمه ومرح أقواله، شعون هذه المرة يكتتم في صمت مطبق، يطغى عليه القلق، عبارة ينتشلها من صوت لم يعد صوته : غداً بجهد الله، غداً إن شاء الله، كانت العبارة لُفِظَت؛ يتساقط الشعر المقصوص على البِنْوَار، على الأرض مكنسة ستدفع به إلى النسيان. عبارة ولا شيء غيرها؛ تكتمل دورة القدر. بَابَا يتحدث قليلاً، بَابَا يتوقف غارقاً في أفكاره والشفرة مرفوعة : شعون، بمثل دعاء متأثر، شعون سترحل وتترك دكانك، معمل الخياطة، أفضل دكان في المدينة، لك زبائن، أصدقاء حميمون، وماذا ستفعل هناك ! العرب في الحقيقة، شعون، لم يلحقنا منهم أبدا أدنى أذى : الخير، المَحَبّة، الاحترام ! يلزم شعون الصمت وراء نظاراته السميكة المضببة بالدموع؛ من كان في وسعه أن يفهم ؟ ماذا كان في وسعه بَابَا أن يفهم ؟ الحلاق الصغير الذي كانت حياته تنساب على وتيرة الشمس، لون الفصول، ألقيت قطعُ النَّرْدِ ! أي لعبة كانت تُلْعبُ في ذلك اليوم، في ذلك الصالون ؟ يوم السبت ذاك يوم مأدبة المسيح ؟ أين كان يختفي رب اللعبة ؟ ماذا تعرف صنعه

بأصابعك العشرة، أنت هنا واقف تحت الشمس ساعات وساعات طوالاً تنتظر السردين ؟ يتراقص الناب مرحاً، ويحيل على الأزمنة القديمة : معبد الإغراء والأناقة، عاصمة كل انحرافات الزمن العصري، مدخل الجنة، الأيام السعيدة، بَابَا يشتغل، يُسوي الشعرات المتمردة، يدهن بدهان الشعر ضد كل الرياح وكل الأمواج، يُعطرُ، يُزين الرؤوس للأعياد والاحتفالات. كان بَابَا في الطليعة المعلنة لذلك التضارب البعيد، ذلك اليوم ! سيذكر دوما ذاك اليوم : الحاج مُوحَا أوْ حَدُّو، ذلك الرجل الذي يُقال عنه إنه مُهاب لأنه مسؤول وطني معروف، يخترق عتبة الصالون، يفاجِيءُ بَابَا، خارقاً بذلك تقاليد آبائه، لحظة فرحة، ضحكات أمام اللا متوقع، بَابَا والحاج حدُّو يتصافحان طويلاً، يتبادلان التهاني والإطراء، يتعارفان منذ زمن طويل، ثم لحظة صمت، وستبدأ مرحلة الترويض : بُغيت تَعْمَلْ لِي لفْرِيزي، أريد أن تحْلق لي حلاقة عصرية، الحلاقة على الطريقة الفرنسية التي أصبحت تغزو شيئاً فشيئاً الرؤوس المصلعة وتزرع فيها أفكار الغرب.

أين ذلك الزمن في مجرى وادٍ جاف، يرى المشاهدُ آثارَ مرور، تجاعيدَ تاريخ مدفون الخصوبة الناضبة : فيض السيول يمر في مكان التعبير عن وهم، مشهد عادي، وجبته عيد السبت، الأول أو الأخير، الأموات يلعبون دور الأحياء والأحياء يلعبون دور الأموات، مشهد القرون وهي تتصادم فيما بينها، سكن الشيطان قلب الساعة الحائطية القديمة الآتية من مانشستير، في أي اتجاه تتحرك عقاربها ؟ بَابَا ضخم، لا واقعي، على قياس ظله الخاص، يعبُر القاعة، يعبر المشهد، تلابيب قميصه تتأخر خلفه، تبقى مرئية لحظة من ورائه وبعدما أمَّحى هو، بعدما غادر المأدبة، تلابيب قميصه، أو لربما منذ الآن أطراف الكفن، الذي سيُحَنَّط به جسده الضخم ! لا ! ليس بعدُ ! تبعثر الحيرة نظام الذاكرة والأشياء، من سيقنعه بالبقاء، أي يد ستمسك بتلابيب قميصه لتوقفه على حافة العدم، يرقص الناب بحركة خفيفة، والحياة تجري مجراها في مكان آخر : «انتظر، سترى، عزرائيل سيأتي ليقبض روحك، سأسير في جنازتك». ناب پيپي يلتهم السردين، الرجل في عنفوان عمره، الجنين الميت، لواليب صدئة، لا تتحرك وتنبعث فجأة بكل بلادة مثل لواليب أريكة شسترفيلد، الآخرة نفس العالم. آخر وذات معاً. إنه العيد ! بَابَا لن يذهب إلى بارميتسڤا، يكاد النعاس يغلب عليه دوماً، لو يهبط ذلك الدرج سيكون ذلك لكي لا يصعده أبداً.

العيد : انصتوا لما تقوله الأسطورة، رُبَّما يحتفظ به الحكي خارج النسيان، خارج الإمحاء، المجذوب سيعود من رحلة طويلة ! تقتفي البحر خطاه، سيغطي المدينة بأمواجه، أحصنة منطلقة في عدوها تحت سماء شفافة، مدينة ميتة، أميرة في حضن صحراء الغياب،

مدينة مفتوحة على نبضات اللامنتهي. عيد البارميتسڤا، على شرف الطفل الذي وُلد هناك في مونريال، ذاك الطفل، طفل الشتات الجديد، رجعوا بالطائرة على خلاف ما في الأسطورة. من بعيد، من بعيد جداً، لبضعة أيام، مدة الاحتفالات، رجعوا لأن الأجداد هم من بين الأشخاص النادرين الذين بقوا. لأنها كانت مُناسبة ليعرّف الصغير بهذه الأماكن التي شبَّتْ العائلة في حضنها، هذه الأماكن التي طالما حدثناه عنها. مشهد غريب، عودة غريبة، تنفذ الغرابة من السطح المبتذل للأشياء العادية في هذا العيد العادي جداً، مدينة ميتة، مدينة حيَّة بحياة تجري مجراها في مكان آخر، أميرة نائمة مدفونة، إنهم رجعوا، لكن إلى متى ؟ لقد دثّروا جسد الفتاة الدافئ حناناً وفوراناً بمعطف الجنين الداكن. نور، حدود مبهمة، لعبة أوجه وأقنعة، يتفكك الإطار، تلغي اللوحة تلغي حدودها، والشخوص تنفلت طليقة، تنبعث، تلعب موتها وحياتها، تنفخ في مرآة لتلتقط أنفاسها؛ المرآة المضببة تردد من صورة إلى صورة صدى مهلوساً ضائعاً، أيُّ أمواج عارمة داهمت المدينة فجأة ! الساعة القديمة، متجبرة متعالية، غير آبهة إلا بمرجعيتها الخاصة، تدق من أعلى برجها ساعات الحكي. خطوات على أديم الماضي، خطوات على إسفلت ذاك الشارع المعبّد وسط القلب كجرح فاغر، ضيق، تحت تلك السماء الهادئة، بعيداً عن الرياح العاتية؛ إنه شارع يؤدي إلى البيت العتيق : أمس، اليوم : حارس جالس على كرسي بالمدخل يقول له «هو ذَا»، صوت يتحدث، صوت حي، من الطابق العلوي أصوات أُخرى مختلطة، أصداء موسيقى، إنها الحفلة، صدى خافت لحفلات أيام زمان الفاخرة، القدمان تصطدمان بأحجار وعتبات الذكريات. بقي البيت القديم على حاله؛ جمود قابل لاستعادة الماضي : «تَرى، تَرى، تقول إحدى الأصوات، صوت رب البيت، لا شيء تغيّر، أنحن على الشرفة، انظر إلى المخازن الشاسعة»، مرآة مطفأة، انحدار على طول السنين، ولرُبَّما قرون؛ هل هناك كانت تصل القوافل الفاخرة؛ اللوحة تتفكك، قمة الأمواج، تموجات الإبل على إيقاع الزمن، عبر الرمال، أشجار أركَان، الصخور البنية الممزقة، وفرة المعادن النفيسة، العاج، ريش النعام، فوحان توابل نادرة يسقي الهضاب العليا للحلم والطموح، أسماء أُسَر، أماكن، ضربات صنج في سمفونية مدينة تسعى نحو مجدها. تجّار السلطان، وتسري الحكاية المدجّنة عبر طُرقات أليفة وتعود بك إلى عهد بناء هذه المدينة، «لاشيء تغيّر، كل شيء مثلما كان عليه الأمر قبل مائة عام»، تحاول الكلمة العنيدة التعزيم على العدم، في الصالون الكبير، يجلس ربّ البيت في عمق أريكة شاسعة، يستقبل ضيوفه، أصدقاءه، جمال محجوب، استقبال كريم، ترحيب حار، وسط القاعة مائدة فاخرة مثل الزمن البعيد، ترزأ تحت الحلويات، أبجدية سكّرية تقول وتعيد قول اعتزاز فن محكم : تِيتّاسْ دِي فَاكَا، بْوِيسَاتْ، فَاذْوِيلُوسْ،

فواكه محشوة بالبرتقال، بالتُرجة، وفي الوسط، حلوى مثل عرش عظيم، مُركّبة متوجة بمخلوط المَرَنغ المزوع المُلَبّسة، الفِضية، رمز أبدي لكل الحفلات، أغنية حب لِمَهَارة أيدي الأُمهات، الأخواتُ والبناتُ في الغرفة المجاورة للصالون الكبير، ترقص خَديجة على لحن أنغام أندلسية، شيوخ من حولها جالسون يصفقون على الإيقاع، متمايلي الرأس، يصدم البحر حطام المراكب المنتفخة الجوانب من آثار الماضي، حنين ! الريغي، الجاز، أنغام آتية من الصالون الكبير حيث الشباب يجتمعون، أوجه تحت سماوات أخرى، غرباء عن كل ما يجري هنا في هذا الديكور : مَعْبر، جسر هش تمده ذكريات الآخرين، تمزّق خيوط، أجيال، مصائر، انتقال جنوني للأدلة، حداثة الأمس واليوم، أناقة العم موريس أيام زمان، السيد كوهن، تلك البذلة القديمة المحفوظة بإكبار، ربطة العنق التي نال منها الزمن إلى حد كبير، تلك الصدرية التي يزاحمها بطن ورّمته السنون، والصالون أخيراً.

إعادة تشخيص : أموات مع وقف التنفيذ يتقدمون إلى مشارف الخشبة ليقولوا كيف كانت بهجة حفلات الماضي التي كانت السلطات تشرفها بحضورها «تتذكر قبّعة الدكتور بوفار التي لم تكن تفارقه أبداً عندما كان يحضر كل الزفافات، كل الحفلات»، لقد دار الزمن، وجوه الملحمة الاستعمارية تختفي اليوم في الكواليس، على يمين ربّ البيت، الطبيب البلغاري، شخص ثانوي في المشهد يلعب دور الحكم. شغب ووقاحة الأطفال السعداء راكضين عبر الغرف دون احترام شجرة النسب، «تعال حيبيي، إنها خالتك، بنت عمك، إنه أخو فلان...». غبار تعارفات بلا جدوى، والبراعم الفتية مفعمة بالحياة. كتاب صور لأطفال لامبالين، سوف يأتي اليوم الذي سيعييهم ذلك، فيمزقونه ليلتهوا به لأنهم سيكونون قد ملُّوا مشاهدته. حديث، كلمات تأتي وتروح، تنسج بلا هوادة قماشة الأيام، تاريخ كل واحد يقتفي أثره، تتماسك الأشياء هشة على سطح ما يقال. فراشات عابرة تحط لبضع أيام، بضع ساعات على غبار الماضي. لِمَ رجعوا ؟ أولئك الأكثر شيخوخة لا يزالون يمسكون بين أصابعهم أطراف الخيط المقطوع، إنهم رجعوا ليعيدوا ربط وتبادل أواصر التواطؤ مع أولئك الذين بقوا في عين المكان، عدد قليل مقذوف بهم لرمال النسيان.

أرض موعودة، أرض ميلادهم أصبحت الآن غائبة مسروقة من دمهم، من جسدهم : أي أيادٍ يهودية يمكنها أن تحفر قبرها وسط بهجة المقبرة الهادئة المطهّرة مئات المرات بمياه بحر لانهائي ؟ أين يمكن إيجاد الرجال العشرة الذين سيأتون للترحم على أرواحهم كما ترحموا على روح بَابَا ؟ إنهم هم الذين رحلوا، سيذهبون إلى أماكن أخرى ليموتوا وسط اللامبالاة، في وفرة القبور الرخامية الكاذبة، في رتابة التأبينات المتحضرة المنظمة القاسية،

الدموع المحسوبة بلا صراخ، ولا نحيب، ولا مظاهر الحياة والألم. ضاقت جوانب الأرض، وأصبحت حياة كل واحد تلعب داخل حدود صغيرة، تنكمش على نفسها، نملة تتوارى تحت التراب.

الحفلة المرآة، أنوار بعيدة، أطراف كُسارات حياة أخرى. في الغرفة الصغيرة، يجلس الشيوخ على الكراسي المصفوفة دائرياً، يصفقون على إيقاع غراميات ولْت، متمايلي الرأس : خديجة ترقص، بريق حياة أمام أعين نصف مغمضة. تيتي بروب الطّافتا الأسود، وردة حمراء اصطناعية معلقة على الصدر، لفافات نفايات مركبة على شكل هلالي فوق الرأس، كاريكاتور هزيلة لأناقات كانت، في أزمنة أخرى، تدخل هنا سحر تقليعات مجهولة : فُوبي، سَارة، دِيبُورَاه، دِيزي، سَمْحَة؛ يرتدين أزياء عصرية باريزية الأصل، كعيكات شعرهن المعطر تحت قبعات مزهرة ذات غلالات رهيفة: يحتذين سويقيات رقيقة، أياد مقفّزة بالبياض؛ إنهن واقفات متبرجات في تلك الصور المؤطرة الزجاجية المزخرفة بحبات الأرز، معلنات حياة جديدة. للأسف، للأسف ! ساعة مانشيستر القديمة دقت ساعة المضاجعات العاقرة : اللعنة على الزاني الخسيس پيپي السردينة «إنك ستموت قبلي، سترى، سترى، إنّك ميّت منذ وُلدتَ ! من بين شفتيك أبداً لم تخرج صلاة. سترى» ناب الانتقام يتراقص متهكما ساخراً. فروج ذابلة، مني ناضب، نساؤنا لن يلِدْن بعد في هذه الرحاب. فكيف بإبرام حلف معه الله : الغُولات الطرية التي لن يستطيع العم هارون، المُحِلّ ذو العينين الزرقاوين والبسمة الحمقاء شيئاً ما، تقديمها عربون إخلاص، هبة سعادة وخصوبة.

أحاديث في الصالون الكبير: المكوك الذي برز من العدم، مقذوفاً من يد مجهولة الاسم، يجري بلا هوادة يصفف نسج الحكي، تتنادى الكلمات من فوق الأغوار، تتجاوب، تسير صفوفاً مرصعة، تتقدم لغزو أراضي ضائعة. مشهد يرتسم بخيوط صافية، أغنية بربرية زرقاء، تَازَرْوَالَتْ، وشم مُصَفًّى تحت سماء ناصعة، قصْبات الطوب الأحمر الممزوج بالتراب، آيت بَّاعَمْرَانْ، إيليغْ، أُوفْرَان، تارُودانْتْ؛ أسماء ترصّع تاريخاً من مآت السنين، بريق النحاس، أساور فضية ثقيلة في معصمي الأميرة آيلاَنَ الرقيقين. يتخذ السِّحر مكاناً له في استمرارية كلمة تتناقل جيلاً عن جيل، يُحكَى، حُكيَ على مرّ الزمن، خارج أي معرفة مكتسبة، ذلك هو التاريخ : بُنيت المدينة على يد السلطان سيدي محمد عام 1760، تصاميمها سطرتها يدا سجين أُروبي، هو الفرنسي أ. كُورْنُوت: مدينةٌ تتحدى جبروت البحر، نزوات الرمال والقَدَر؛ جسر ممدود من فوق هاوية التاريخ الفاغرة : هذه الكثبان وهذه الصخور الجافّة المرمية في حضن الوحدة منذ اندثار مملكة جُوبَا، نوارسُ، في سماء بيضاء، ترسم انحناءات تاريخ مجهول،

صوت الأمواج المدوّي، همس، نتف حكي تحجب وتكشف ملحمة ذاك الميلاد بأبهة بطيئة : إنهم إذن أتوا ليقيموا في هذه المدينة المنبجسة من العدم، بمشيئة السلطان، فبنوا فيها المنازل، المخازن الشاسعة، البيت الكبير الذي لا يزال إلى اليوم شاهداً على ازدهار ذاك العهد؛ تعاطوا التجارة، تعاملوا مع لندن، هامبورغ، روتردام؛ تمتعوا بالحظوة والامتيازات، عاشوا في تقاطع الطرق، في نقطة الاصطدام بين عالمين. كانوا يتحلّون بالجرأة والمبادرة وحب اكتشاف آفاق جديدة، يقومون برحلات طويلة، تدوم شهوراً عديدة، لاكتشاف العواصم الأُوربية، للانبهار أمام الترف، اللذة والرقة العجيبة التي كانت تطالعهم هناك، يرحلون تاركين نساءهم أو خطيباتهم ، إلا أنهم كانوا يعودون وفيّين، وحقائبهم مليئة بحكايات عجيبة ينسجها الحلم والإغراء. من ورائهم تصل السفن المحملة بغنائم استكشافاتهم : كل تلك السلع التي بدّلت شيئاً فشيئاً وجه الحياة.

علم السلالات، الحفريات، هوس العشق؛ مداهمة أبواب الليل، سبر الأغوار، مساءلة الأدلة الملحة على خيالك من كل جهة، أدلة ضائعة يجرفها السيل قريبا منك، قريبا جداً، إنه حضور يكاد يلامسك.

حديث في ذاك الصالون، ذاك اليوم العادي الاستثنائي، يوم عيد البارْمِتْسْفَا العادية الاستثنائية : يتردد الصوت حائراً، يتوقف على حافة اللاّمنتظر : لم يرحل هو. يمتد النظر إلى البعيد : بين الجزيرة والأرض الصلبة، عندما يسمح البحر بذلك، زورق يسير أو يتوقف على حافة الموج، يتأرجح، يتمايل، تصفعه رياح البحر، رجلٌ، صياد وحيد، بمفرده على متن الزورق، إنه هو، اسمه يُلفظُ بأطراف الشفاه، يُهمس له؛ حتى أولئك الذين عرفوه والذين كانوا أصدقاءه لا يتجرأون على النطق به، تخرق الغرابة نظام مجرى الأُمور، ويختلط الاستنكار بالاندهاش : لو كان على الأقل صعلوكاً بئيساً هو ابن الملاح مضطر لأن يفعل أي شيء لكي يعيش ! غريب : كان قد زاول الدراسة، يقال عنه إنه ذكي، كان من الممكن أن يجد شغلاً، أن يحصل على منصب حتى بالبقاء في عين المكان؛ لكن لا، ها هو غريب الأطوار، كيف يعيش ؟ لا أحد يعلم، لا أحد يعرف بدقة، حاصر نفسه في الصمت : من بعيد، إشارة تحية صامتة، ذي هي علامة التعرف الوحيدة الذي يقبل بإبدائها، كان في وسعه أن... يتوقف الصوت فجأة، ينفرج هامش مجهول. الغريب ! أجل هي ذي صفته الآن، مصدر شبهة وخطر، لا أحد يكلمه، وهو لا يكلم أحدا، كلمات الحديث معه ليس لها معنى مشتركٌ، في كل لحظة يمكنه أن ينزلق بلا ضجيج خارج لوحة الحياة اليومية؛ منذ الآن لم يعد يمثل شيئاً في أعين أولئك الذين يمثلون أشياء؛ هل بقي، هل رحل ؟ يسقط السؤال في الفراغ : إنه

الغريب الذي أبحر للرحلة الكبرى بلا بداية ولا نهاية، يعود ولا يعود أبداً، وحيداً، بمفرده في الزورق، نقطة شاحبة وسط الموج، يتمايل على إيقاعات تحليق النوارس المبدعة، ينظر إلى وهج النهار، إلى المدينة عند بزوغها إلى الوجود، عند اعتلاء أسوارها، مدافعها المصففة، مجد عرسها مع البحر، ينظر إلى وهج النهار ونور الغسق، إلى انحدار في الأفق، رسول الفجر الذي يعلن عن نفسه، أبهة الموت الذي يفتح أبواب السماء. ضيف مُتَخَفٍّ، يرتدي الليل، على جبينه بصمات الغياب؛ جلس جنب رب البيت، من وراء ظهر كل العيون، مَحَا أدلة الموت والحياة، وبضحكة قهر جنس البلداء، في ذلك اليوم العادي من عيد البارْمِتْسْفَا العادية تماماً، فجأة دخل الضيف متخفياً. وعلى خطواته بحر المحيط في هدير مدوّ داهم البيت القديم المعظم : لاشيء، بعد الآن، يعود بك إلى خساسة البشر، إلى خطوات حساباتهم الحائرة، إلى ومضات رغباتهم المائلة، من هو ؟ مجرد رجل عار بلا أسطورة ورموز ! يتوقف الصوت، يتردد على العتبة، الهامش يلغي المكتوب، اللغز ينغلق على نفسه عنيداً، محرقاً : صوت البحر العاتي، صوت منبلج من تلك السماء المقطعة باللون الأزرق من فوق المصطبة، صدراً يتناقل إلى اللاّ نهاية، موجات متراكزة، تأتي الأمواج العليا لتموت رجفة خفيفة، زبد عابر على حافة ذاك الصالون، والوجوه تنفسخ في شفافية الأعماق.

كل أنواع الحلويات : ضرع البقرة، حلويات من القشدة البيضاء في وسطها كرة من المربّى الأحمر؛ بُويسَات بِاللُّوز، مَرْبَانْ، فَاذْوِيلُوسْ، حلويات مورقة معجونة بالحبوب، مغطاة بالسكر المبلّر، تذكر بأطراف قميص الدكتور بوڤار المبيضة، سويس - رول، لفافة حلويات الصاڤوا ملوية حول حاشية مربي شرائح برتقال وأُتْرُج مُرقد، تفنن، الخالة ريتَا، في مخبإ مطبخها، يوم تعرض على النور شفافة الفواكه المُرَقَّدَة، شفافة فنّها؛ لن تذهب قبل أن تذوق منها، ربّ البيت هو الذي يقول له ذلك بإلحاح رقيق للمراهق البَارْمِتْسْفِي، ستعد له يوم زفافه حلوى فاخرة، اليوم يوم احتفال بقرانه مع دين آبائه، الشاب القادم من الشتات، جيش من الخالات والعمات وبنات الأخوال وبنات العمات يلتهمنه بالقبلات... الزغاريد، التصفيقات، الضحكات، الدموع : قطع الحلوى المسقية بماء زهر البرتقال، بالمشروبات الروحية، عبارات المديح لربة البيت «تبارك الله عليك، كل شيء كما كان قبل مئة عام، لاشيء تغير !»، ابتهالات، تعازيم : إنها لربما آخر بَارْمِتْسْفَا ستخلد في أرض الجدود هذه. قطر الحلوى في اتجاه عمودي، نزول قريب، إلى قلب القلوب، طقوس، قرابين مهيبة : في ذلك المعبد الذي مازالت الصلاة تقام فيه كانوا عشرة هذه المرة، لأن الآخرين عادوا فقط من أجل ذلك اليوم، والمراهق الذي يرتدي الشالث الْحَرِيري، يصعد إلى المنبر، فُتحت المظلة،

امتزجت الأسفار، مغلفة بأقمشة الحرير الصناعي اللّماع، أسفار قديمة جميلة ونفيسة وُضعت جانباً بسبب الرغبة في التظاهر بالحداثة، قرأ الشاب دعاءه بتأثر، قدم الدليل على تفتقه الفتي ليعزز افتخار أحباره : في هذا المعبد القديم، الشاهد الوحيد على إيمان ضارب في القدم، تعالى صوت شاب من بين كل الأصوات الأخرى التي أشرفت على الانطفاء، دقت الساعة الحائطية القديمة الآتية من مانْشسْتير ساعات المجد، المجد الماضي، بحرارة ومهابة لهذه الأرض التي كانت ولا تزال أرضها.

أطباق الحلوى الصغيرة تذهب وتجئ، هبات لبضع لحظات اللذة والترنح. ملاذ الأحياء والأموات. حيواتٌ فُقِدْت ثم عثر عليها من جديد، ساعات الأساطير والحسابات، استكشاف من المغاور، مذاق الزمن الذي يذوب ويلتهم نفسه بنفسه، مصطبة على حافة العدم، عيد، مرآة مكسرة من جراء انعكاسات جنونية على شكل لهائب نارية، هاجس تسكنه الأرواح بين هذه الجدران وفي هذه الأماكن.

كيف وصل الحديث إلى هذه النقطة ؟ رب البيت، وسط أصدقائه يتحدث ويوقظ أصداء تنفخ طاقتها في جلد الحكي : «أتذكر كما لو حدث ذلك بالأمس : في الطرف الآخر من زقاقنا هناك، تحت هذا البيت نفسه كان الرعب يظهر فجأة، كنا أطفالاً، كان صامويل يقف هناك، أجل في الطرف الآخر من الزقاق، ضخم، لا يتحرك، عكازه في اليد، ضخم مثل الفتنة التي أَلَمتْ بنا، عملاق، غوليم ينبعث من اسمه المسجل في الغبار : لا تخافوا، انظروا، إنه يجلس مثل الآخرين من حول المائدة ليقتسم طعام الأسرة !» رعب عندما تعلن الضربات على الباب زيارته المفاجئة، يسري رعب حول المائدة. تردد الجدة التراتيل في صمت ونظرتها لا تفارق الهدية القريبة من يدها، خصوصا عندما يأتي مزغب الوجه، يقال إنها مؤشر ينبئ بحالات فورانه. وجه عظمي نحيف، عينان تنتقلان من اللمعان الحاد إلى الغياب المتأمل، كان اشتغاله بالتبّالة قد منحه جنوناً لكنه جنون قدسي، سماوي، جنون يحترق فيه العقل العادي، ندرّي رماده في شكل علامات مشؤومة، ظهر الرعب، الخوف القديم، في ذلك الصالون، نورٌ ليْلِيٌّ أسدل على الأشياء والأشخاص حجاباً لايُرَى، ملأ الحفل بأصداء غريبة : تنمحي الوجوه في بطانة بلا وجه، تتحدث الأصوات البعيدة، والحروف تتشكل وسط الغبار والعدم.

«آباؤنا الكهان قالوا لنا دائماً ذلك ؛ لو تعمقنا كثيراً في الكتاب المقدس لأُصِبْنا بالجنون». قيل لنا هذا دائما؛ ينبغي الاطمئنان، المعرفة، والانشغال بتسيير الأشخاص بعد أن تشتتت الأسر وتزعزعت الأمور.

في الكتاب الوحيد، لم يكن النص قد انفجر بعد، كانت الصفحات تتتابع في تدرج بطيء منظم يسير على إيقاع الأمواج، على لون الفصول؛ أحيانا تجن الكلمات بالتهاب مفاجيء بتوتر، باندفاع الحدث، لكن الكتابة أدلة ضبط تتزاحم، ويخيم الانتظام الهادئ من جديد، كانت للكلمات نبرة البدايات الصافية، يستمر نفس الحديث وسط الانبهار والمفاجأة المصاحبة للجمهور في معرفة ما نعرفه، ما كنا نتوقعه في انتظار لذيذ، كان البشر يعيشون كي يَحْكُوا والشخصيات التي كانت تحاول الهروب خارج الحكي نادرة، لكنها على كل كانت تعاد في أغلب الأحيان إلى النسج في نهاية المطاف.

حفيف الأيام العادية، العادية باستمرار، نور خافت، هادىء، دفء معطر، باب عجيب في حركاته، يشرف على سمفونية المشط والمقص فوق رأس معروف. كان قد دخل صامتاً كعادته وجلس لانتظار دوره. كان يأتي بانتظام ليحلق شعره، وأحيانا ذقنه، لكن بما أن جلده كان حساسا، فقد كان يخشى حد الشفرة ويفضل أن يحلق ذقنه بنفسه عندما لا يكون مستعجلاً. كان بَابَا يعرفه جيداً، والرجلان رغم ما كان يفصل بينهما فقد كانا يتبادلان التعاطف دون أي صخب كما تقتضي العادة. من كان ذاك الرجل الذي يبدو وكأنه خارجٌ فجأة من هامش مجهول، يتخلل صفحات الكتاب ويعطي لكل سطر كلمة مستمرة، جوهريةً، حاضرةً وغائبة في نفس الوقت، صامتة تارة، وتارة أُخرى تغطي حشرجة العالم بهديرها. لا شيء سوى رجل عادي لم يكن يدعي شيئا لنفسه، وأسراره كانت كأسرار جميع الناس، لا أقل ولا أكثر، يمكن لبَابَا أن يشهد على ذلك : يحدث في وقت من الأوقات، لفرط ما نتحدث عن أشخاص لأننا نعتقد معرفتهم من كل الجوانب، يحدث أن يوقفنا لغزٌ في حياة مَنْ كُنّا نتوهم معرفته معرفة يقينية. لا ! ليس هناك أدنى لغز، كونوا متأكدين من هذا، كان ينتظر دوره، يصغي للحديث، لأنشودة البحر التي تهز مشاعره، كان يبدو شارداً شيئا مّا في أفكاره، كناشه الأسود المحفوف بالأحمر على ركبتيه ويداه تمسكان به كشيء نفيس، قيل : كان من الممكن ألا يبقى مجهولا في هامش الغياب، لماذا تلك المداهمة، تلك الرجفة التي تسري في سطح الأشياء الهادىء : تصورُوا ما الذي كان سيحدث لو انفتح الكناش، لو انزلقت بعض الأدلة خارج السِّفْر، «كتابة، تجربة الموت ! محنة الهشاشة والرقّة، انتقال إلى الاستثنائي في مظهر العادي. قطيعة، تمزّق ! هو المرء على حافة الفتحة، الهاوية. لا تدلي باسمك، إنك إن فعلت سوف تسقط صريعاً في مكانك». تصورُوا لو كان في استطاعة بَابَا أن يقرأ، لكنْ مَنْ كان يعرف القراءة آنذاك، مَنْ كان يستطيع رسم ذاك الخط الفاصل بين الكتاب والحياة. لم يكن بَابَا جاهلاً، لا أبداً. ما كان ليضحك، بل ربّما كان يصمت متهيباً. كان صَامُويل يخيف

الأطفال في الزقاق المعتم المؤدي إلى البيت الكبير، أطفال آخرون أكثر وقاحة كانوا يشاكسونه، يطلقون عنان غضبه فيختلط العنف أحيانا بالجنون. لكن لا أحد يؤذي الأحمق، لا أحد يقذف المجنون المُلهم المبجّل بالحجارة، لا أحد يحاول اجتثاثه من الحياة العادية. رجال آخرون يأتون بأسالهم فيطرقون أبواب المنازل : رُحّل هائمون لا أحد يعلم من أين يأتون، عظم كتف في يدهم يرون في صفحته خطوط القدر، يعزّمون على أخطار الحياة وشرور الحسّاد وأعين السوء.

سلطات الكتابة : الفقيه، جالس على حصير فوق الأرض، حزمات من الكتب العتيقة بجانبه، يتكلم ويخاطبك، يقرأ على جبينك، في نظرتك، العلامةَ المذنبة التي أنضبَتْ مَنِيَّك، هدمت قوى رجولتك، مقابل قدْرٍ زهيد، يمكنه إن شِئْتَ رسمُ عبارة الخلاص على جدول : يأخذ القلم القصبي المغمس في محبرة الصمغ، وهو مخلوط مسحوق معدني مع صوف خروف مقطوعة من تحت البطن هناك حيث تكون الصوف مخلوطة بالشحم، تُجفف، ثم تُحرق وتُحول إلى مسحوق أيضا. سيمحي القلمُ نصَّ السحر ليخطّ مكانه معبراً لحياة جديدة.

كيف يمكن لِبَابَا أن يضيع في طرقات الفضول : كانت المدينة تحفظ بدقة إحصائيات مجانينها، فقهائها، كُهّانها العاديين أو المتصوفين، أنبيائها، مثقفيها، مجاذيبها؛ حتى علامة الزوّار المارّين كانت تُتبّع بيقين. جُوزِي، الشاعر الأحمر، كان عندما يأتي إلى الصالون يعلم الكل أنه يتأبّط ديوانه الأخير، مجموعة أشعار يهديها للزبائن مقابل مقدار بسيط. جُوزِي، شاعر من طنجة، ابن «السُّوكُوشِيكُو»، يعلن شفافية أفكاره وشعره، «الرجل ذو الشوارب»، كان يقولها بابتسامة تواطؤ وابتسامة ثقة عندما تسوء الأمور : «الرجل ذو الشوارب»، عنوان قصيدة مهداة إلى نجمة ستالين الدياليكتيكية، هذا الزعيم الذي يسهر على مستقبل العالم. كناش أسود على ركبتي رجل لا يتحيز وسط هذه الجغرافيا، لن يكون في استطاعته اجتذاب أدنى انتباه ولا حبّ المزيد من الاطلاع. هو الحاكي، هل تدخّل بصلف أهوج على نحو يمكنه إنضاب الحكي من منبعه ؟ عبث : لم يكن سيّد الموقف، كان مخلوق الحكي وهو يتوهم أنه خالقه، عبارة لا متوقعة، يحملها الريح، تلد نفسها بنفسها، تزداد وتندثر متبددّة خارج مهد مولدها، خارج جاذبيات سلالتها، متحدّية رسْماً كان يحاول التقاطها، إنها لذّة لذاتها الخاصة.

واليوم، في هذا الصالون الكبير، في يوم عيد البارْمِتْشْفَا، مدينة غريبة ميّتة تبزغ من كثافة الضباب وتنبعث وسط أحاديث تجري في كل الاتجاهات، خيوطاً تتقاطع، تتشابك لتنشئ بداية نسج، خيوط معزولة ثم قصُّها، مختلطة بالتلابيب، تراكبٌ، لوحة من فوق لوحة، تلغي الثانية الأولى، ليس تماما لكن كيف السبيل إلى النفاذ إلى الأصل، كيف السبيل إلى

فكّ اشتباك ما أندثر مما يولد، الأموات من الأحياء، مشهد محروق، كيف الوصول إلى نظام حياة متوارية تحت ديكور الأنقاض والأطلال، الحياة لا تغيب ولو للحظة واحدة، قد تتوارى، قد تحتجب لكنها تبقى حاضرة، تستكشف الأغوار : نحو أي نقطة تتجه كل هذه المياه الجوفية ؟ أي عين ضخمة تملك قدرة إبصار هائلة يمكنها بنظرة واحدة ضم مسارٍ مزروع بحيوات حبيسة الوحدة، كل واحدة منها متفتحة على الأخرى تارة، وجميعها ممتثل لنفس المصير ؟

بيوت سرّية

بيوت سرية : بيتـان توأمـان، أخوان من بين البيوت الأُخرى، عـاليـة متـأمّلة، مفتوحـة ومغلوقـة، غيورة تحرص بغيرة على جـذوة السّر، غيورة بتلـك الغيرة التي يقـال عنهـا إنـه من الممكن الرؤية من خلالها إلى الخارج دون أن تُرى، قمـاشـة، تبطينـة، بضع خطوات، مسـافـة قصيرة عند العودة من القصبـة، من البيت العـائلي، على طول الشـارع الكبير، يكفي التعريج يساراً، والمرور بتلك الساحة الصغيرة التي طالمـا أحَبّهـا؛ واتبـاع السـاعـة الكبرى عنـد أسفل الزقـاق المؤدّي إلى بـاب السبعـة المنفرجـة على المحيـط، للوصول إلى الأخت التوأمـة، بضـع خطـوات لعبـور القرون، لمحـاذاة دَوار المغـاور المجهـولـة، نفس السُّلم هنـا يبـدأ في الحيرة والعتمة، الارتقاء نحو نور آخر، تعبره إشعاعـات آتيـة من مكـان آخر. الغرفـة الطويلـة هـائلـة بمقاييسها، بسقفها، بنوافذها العالية. في هذا البيت أقامت عائلات يهودية.

صدى : نوتة موسيقية تذوب وتبرز من جـديـد ضمن نغمـات سمفونيـة رائعـة. دعـاهُ جواد إلى تناول الكسكس... لم تكن حفلة كبيرة، فقط لقاء ودّي بينه وبين أصدقائه الشباب. أسماء، بيوت سرية، كان يمشي عبر هشاشة اللحظة، استكشاف في العتمة، تيه في المتاهـات التي لا يكف مسارُه عن حفرها في كل خطوة ولأي رحلة مجهول، إذن كـان ذلـك الكسكس مُهـدى، قربان الحياة ذلك، رمز الكرم الخالد ؟ مأدبة مقدسة أُخرى تتخذ حيزاً لها، كتابة أُخرى ترتسم من فوق الأُولى، تغطّي حروفها، تاركة بين الفينة والأُخرى فرصة قراءة حائرة. خرج الأطفـال مرحين متزاحمين في اتجاه أقرب سقـايـة لمحو ألواحهم، غسل رسوم الصمغ السوداء، مرور يـد متردّدة، لم يتبع الكلامُ الكتابةَ في عَدَمها، إنه مستعد لرسم أدلة جديدة.

«لا، لم تواجهني مضايقات، لست مناضلا، لا أنتمي لأي مجموعة. لم تواجهني مضايقات، على الأقل لحد الآن». جواد يواصل الحديث. صوته هادئ، بل بطيء، يتجنب العجلة والمبالغة، يعرف كيف يحافظ على الاعتدال في معاملته للأمور والأشخاص. قبل عودته بمدة طويلة بدأ في الابتعاد عن النشاط السياسي، عن النضال. إحباط ما بعد 68، تغيير المحيط أمْ الاحتياط ؟ لا، إن انشغالاته تنصب الآن على أمور أخرى. أسرته تلحّ عليه كي ينظم حياته ويتخلى عن أحلامه القديمة. لم يكن مهندساً، ولا طبيباً، ولا محامياً، لكن بعض أصدقاء أبيه، من ذوي مكانة مرموقة، يتدخلون بكل نفوذهم ليحصلوا له على منصب مهمّ في إحدى الوزارات، أو كرسي رئيس مدير عام في شركة كبيرة وطنية أو دولية؛ لم يكن ليخشى ماضيه السياسي، يكفي ملاحظة أن الأغلبية الساحقة من الأشخاص الذين يحتلون مناصب سامية في تسيير شؤون البلاد، سبق لهم أن اعتنقوا أفكاراً يسارية في شبابهم، وناضلوا من أجلها في الغالب. كان جواد يرفض كل هذه العروض بسخرية حادة لم يعهدها أحدٌ فيه. المال، الجاه، القانون الصارم للنجاح الفردي : كم من أصدقاء، معارف بعيدين، رجال أنقياء أصبحوا الآن يحنون الرأس، يهبون أنفسهم بكل صفاقة لغول الرشوة، كثيراً ما راودت جواد فكرة رسم صك اتهام قاس يثبت فيه أشهر الأسماء مع التذكير بأفكار والتزامات كل واحد في الماضي. كان يعرف أن الأمور ليست بسيطة بهذه الصورة، يعرف أن الرجال الذين سقطوا في الإغراء، عَضُّوا فاكهة السلطة والنجاح، ليسوا خبثاء وأنذالاً، إن هذه النظرة التبسيطية هي الكفيلة باستدراج المرء إلى عين المخاطر التي يسعى إلى تجنّبها. كان يرغب كثيراً في البقاء بعيداً عن هذه الدواليب، لكنه لم يكن ليجهل أن هذا يقتضي جهداً جبّاراً ويمثل تحدياً حقيقياً، كيف لا يراعي المرء قصوره وضعفه والبلاد كلها حبيسة خيوط عنكبوت تمتد في كل الأطراف، دقيقة وخفية أحياناً إلى درجة أنها لا ترى النظام الهادئ لتخميناته، يدل الهدوء التأملي لصوته على انشغاله بإخفاء النار الداخلية التي تلتهمه. أصدقاؤه كانوا يرونه يبتعد يوماً بعد يوم.. يبدو غائباً، وكأنه يخفي لغزاً، ينهمك كثيراً في صمت طويل. كان يخصص وقته لمهام جامعية كأستاذ مساعد بالكلية، كما لو أنه يتخذ ذلك ذريعة. لم يكن أصدقاؤه من اليسار، اتحاديون ماركسيون أورثدوكسيون، يساريون متطرفون أو متياسرون، يغضون الطرف عنه في حملاتهم سواء في المناقشات الاعتيادية أو في مواقفهم العمومية. كان بالنسبة للبعض، من بين أولئك الشباب الذين يحنّون لماض نضاليّ دفين، نموذج المثقف المغربي ـ الباريسي الضائع وسط لذائذ ومتاهات نخبة ضفة «السّين» اليسارية، عاجز عن فهم الواقع الوطني والتكيّف معه. وهناك آخرون رأوا فيه توجّهاً مختلفاً عندما علموا أنه يهتم بنشاط الأوساط

السلفية التي بدأت تظهر شيئاً فشيئاً. «كبّر لحيتك والْبس الأبيض». كان يقابل هذا النوع من السخرية بالابتسام : لم يفهموا بعد، كما لو أن القضية كلها محصورة في تغيير موضة، استبدال خطاب بخطاب آخر. كان جواد يكاد يخرج من صدمة مرض العودة، في حاجة لاستعادة ذاته وتحديد موقعه : كما لو كان في فترة نقاهة طويلة، لم يكن يستطيع إيجاد الراحة في لا مبالاة الأشياء اليومية. أحياناً كان يبدو قاتماً وضجراً وكانت أمه قلقة على صحته. لكن من يستطيع إجراء قراءة صحيحة للّمعان الذي كان يعبر نظرته، تاركاً وراءه ذبذبة من الظلال الغسيقة ! أزمة ثقافية ! بدون شك، لكن هذا ليس إلا علامة ظاهرة لشيء أعمق، علامة من بين علامات أُخرى، صامتة، دفينة في الحياة الباطنية الأكثر سِرّاً. أصبح الآن يستلذ الحديث مع أبيه، الإنصات إلى أقواله، سرده لحياة وزمن عاشهما، فالسلطة الصارمة، الجافّة، القاسية غالباً، والتي يتساءل عما إذا لم يكن هو قد زاد من حدتها بسبب موقفه الرافض لها، هذه السلطة لم تعد حاجزاً يحول دون تبادل حديث ودّي بين الوالد والولد. عندما كان جواد، على سطيحة مقهى فرنسا، يتحدث عن حياة أبيه، عن زواجه، كان يبدو عليه التأثر، مع أنه طالما سمع تلك الأُمور. «أُمي، كان عمرها 13 سنة عندما تزوجت. أبي، ذهب عند أبويها صحبة فقيه وعدْل. أخذ معه صينية وفيها قالب سكر وشاي، وعلى الكل منديل مطرّز. وحُرّر عقد الزواج في نفس الحجرة التي جلس فيها الجميع، حجرة عارية بدون أثاث، باستثناء حصائر الأرض وفُرُش للجلوس. لم تكن هناك مراسيم أخرى». كان جواد يعيش هذه البساطة المختزلة كما لو كانت فرضاً ضائعاً تختفي في تضاريسه رغبة جموحة تفيض من كل جانب. كان يتلذذ بالحديث عن أبيه، وكان هو نفسه يعيد اكتشاف التواءات الحكاية الضائعة : لذة عارضة وخالدة للعبارة الجديدة التي تتولد من ذاتها في كل لحظة وكل مرة، وهي تكتنف فضاءها الخاص بسحرها الفاتن.

دخن الشبان والحجرة يكتنفها صمت هادئ، تحت جناحيه ينفرج السقف العالي على سماء هائلة، برقة لا تنتهي، تنفتح الجدران مثل زهرة غائبة، والحديث تحرّر من حبساته، خليلي يغني «يابًا، يابًا» حب ولد، حسرة على أبيه الذي كان يريد منعه من الالتحاق بطائفة حمادشة، كُريمُو يصاحبه على العود، يتّبع رأسه الميزان، يرتجّ تحت حرارة الحال، ماذا لو انفصلت عن الجذع، سقطت، تدرّجت على الزُّرْبية ! كُريمُو يهتز من أثر قهقهة جنونية، أحجار بركانية جافّة في قمّة جبل وسط الوادي، هناك في ذلك الدوّار المنتصب على المرتفع، خيام سوداء، بيوت من الطوب الأحمر البني، هناك كان قد قضى بضعة شهور على حافة الجنون، على مشارف السّقوط بدون رجعة في غياهب العدم. حدث ذلك سنة

«الذيابات»، 68، قبل، أو بعد فترة، «الذيابات»، دوّار صغير على شاطئ البحر، على مسافة بضع كليمترات من الصويرة؛ في القديم كان محل «نُزاهة»، حيث كان الصويريون الأصليون يخرجون للفسحة، هناك من بين الحويطات الحجرية، والأشواك ونبات الدوم المنحدر نحو البحر، الصمت المعدني، خلّد كل من العربي والبربري والإنجليزي حفلات غريبة، نيران كبيرة أُشعلت في تلك الأماكن.. لقد جاؤوا من كل الأرجاء ليُشخّصوا فوق تلك الأرض القاسية مشاهدَ القيامة، جاؤوا بعدما لفظهم العالم القديم المحتضر : قيل لهم «هلمّوا، هنا مجال خالٍ، حلم وارف، حياة لا تزال تتسم بملامح الشباب، والأرض لا جاذبية لها». جاؤوا وسُمُّوا جماعات «الهيبيز»، أقبلوا ليزرعوا المكان بشعورهم الشعثاء، الطويلة المتدلية، «الذيابات» العاصمة العالمية للهيبيز؛ أرجل وسِخَة، محاكاة صّاخبة، مشوهة واصطناعية لسيرة الحكماء التائهين، هدّاوة كل الأزمنة، أقبلوا ولأول مرة أطفالاً بيضاً متورّدين، رأوا النور فوق الحصائر بين الكلاب والدجاج، على بعد آلاف الأميال من المصحّات المعقمة، أقبلوا وفي نفوسهم هشيم، يراودهم أمل الشفاء، الحب، الارتواء من معين الأخوة، الاحتفاء بالحب، الظفر بأكاليل ورود إلاه الحب الجالس على عرش تلك المملكة، أبحروا للانطلاق نحو الجحيم : مخدرات قوية، عنف عصري بلا صخب، زمن الرياء، زمن المسخ بالنسبة للقدامى، دماغ كُرِيمُو كاد يتكسر مثل شيء تعطّل عن الشغل، كاد الشباب يتفسّخ، بل تفسّخ بالفعل؛ ينحدر حسب الظروف، إلى غياهب النفق، وفي أوج الحداثة، صدأ كتوم، يتحدثون عمّا كان بالأمس، عن الجروح المندملة، عن الآثار الخفية، هذا المساء يحوم الماضي، لا معقولاً، لقد تجرّد من اسمه وسقط مثلما يسقط معطف الليل، بدون طيات، ملغىً وسط الضحك. يتحدّى الجسد الناعم الجاذبيات، يتحدّى عناق الكلمات، خلاخل برونزية ثقيلة تعصم عرقوب آيلان، هذا المساء، يلبس الرجال تُشَامِيراً أبيض وارفاً، يرقصون صفّاً واقفاً، يُميلون أجسادهم من الوراء إلى الأمام، موجة تلي موجة، إيقاع الطبول، المزامير تقطّع الزمن، تكسره؛ تتساقط قشرته قِطعاً هشّة، يتصاعد البخور مثل الدعاء، سهرة من غير بداية، حدّ يتوارى شيئاً فشيئاً، ليل وفجر متصاهران؛ تنفرج الجدران على مرأى العدم والرأس يمس سماء جميلة، حال، فناء، فقدت الكلمات الثملة ذاكرتها، ثملة منذ ميلادها العاري، خَلاَص : فكّت الأرواح قبضتها، تخلّت عن ضحيتها، ارتجاج الجسد، لَيٌّ وحشيٌّ، عَضْرةٌ أخيرة، وهاهي تنجو من القبضة، تلهث فوق الحصير.. هربت الأرواح، سحابة سوداء تدفع بها الرياح، كُرِيمُو يهتز من قهقهة لأُخرى، إنه تحفة الحكاية في تمامها :

هو وأطفال من سنه، شياطين وُلدوا ليتحدوا العالم ويتنافسوا مع الطيور في غزو حرية السماء، شكّلوا عصابة لجني فواكه بإحدى البساتين على مقربة من خارج أسوار المدينة، مشروع جرّيء، لذّة يختلط فيها طعم الفواكه بنكهة الخوف، لم يجدوا في ذلك البستان المحرّم إلا حَمَاقَة، هو اسم على مسمّى، عملاق وديع، مختلّ العقل، معروف ومحترم من قبل كل أهل المدينة، أحمق فطن هادئ، يعشق هناء هذه الأماكن، يتدثر في أطماره، جلبابه الممزّق، ويغفو في ظل الأشجار. كان حَمَاقَة يعشق الأطفال ولم يفكر قط في إلحاق أي أذى بهم. كان يراهم يغزون البستان مثل الجراد، يتظاهر بالنوم العميق، من حين لآخر يفتح عيناً، يلقي نظرة سريعة، وعلى شفتيه بسمة متواطئة. لكن الأطفال يخشون وجوده، بل كان حضوره يهدئ من خشيتهم ظهور صاحبة البستان. ذات يوم بينما كان حَمَاقَةُ يغطُّ في نوم حقيقي هذه المرّة، خطر للأطفال ـ بإيعاز من شيطان مّا ـ أن يجذبوا شعرات لحيته؛ واقترب أجرأ الأطفال على أطراف الأصابع كي لا يوقظه؛ وما إن حاولوا اقتلاع أول شعرة حتى همّ العملاق بالوقوف والحنقُ بادٍ عليه، فأمسك بهراوة ضخمة فكانت الفتنة الكبرى، ثم أسلموا سيقانهم للريح ! يعُدّو الأطفال مُنْهَكِين ومن ورائهم حَمَاقَةُ، اتجهت الجماعة كما اتفق نحو باب المدينة، وتناثرت في الأزقة بحثاً عن مخبإ أمين؛ يوجد كُرِيمُو في المقدمة، خوف، فضيحة، سخرية الناس، بلّلَ الأطفال أثوابهم بالبول، كان القلب يقرع الصدر كالجرس، الحلق جاف، ملحمة، تضيع الحكاية وسط ضحكة كُرِيمُو المخنوقة، خَاصَّك تُشوف، لو رأيت ! الحجرة تمخر الآن عباب الذاكرة مُطلقةً كل أشرعتها في مهب الرياح.

كُرِيمُو، جواد، يقترب كُرِيمُو من سن الثلاثين، هو لم يعرف الإقامة بباريس، الهروب نحو الأراضي الأجنبية، لم يقضم ثمرة المنفى المحرّمة، لم يذق خليط لذّات الانحدار، الغرابة، حياته بقيت مرتبطة بمهد ميلاده. لم يبلغ الثلاثين بعد، بل تفصله عنها عدة سنوات، لم يرحل، هو بقي، لكن حنيناً آخر يسكن فؤاده، سماء منفى أخرى ترتسم في نظرته. ليست الطفولة بعيدة، حدث ذلك بالأمس، وهاهو يحنّ إلى الماضي، إلى امتطاء كرُوسَة، أو كُوتْشِي كما يقال، عربة يجرّها حصان أو حصانان، يطوف بالأسوار على طول شاطئ تَاغَارْتْ، وهناك وسط رائحة الروث، الغبار، وعلى إيقاع العربة وضجيج عجلتيها، وصفير الصوت وصراخ السائق، هناك أوج المتعة : يظهر الطفل الصغير رُفقة أمه، سعيداً، متأثراً. كُرِيمُو يَدرس الفرنسية، فرنسية كلاسيكية، لغة الكتب، لغة صافيةٌ، بدون صخب ولا حنق، مجرّدة من بذلاتها الاستعمارية والعسكرية، والفرنسية بالنسبة إليه لغة أجنبية. كُرِيمُو مولع بفن النحت، في غرفته الصغيرة الضيقة، ووسط فوضى هائلة، يشتغل على الصخور الرملية المنتصبة فوق

مقاعد متمايلة. في تلك الغرفة الصغيرة في أعلى الشقة التي يؤدي إليها درج مظلم ضيق، يعيش كُرِيمُو، يتحدث إلى الصخرة، يحاول تضمينها جمال الرؤى التي تلاحقه. خيط دقيق خفي يربطه بذكرى المعلمين المجهولين الذين نحتوا الصخرة الرملية على أبواب المنازل. لكُرِيمُو رأس هش. صحيح أنه من الممكن لهذا الرأس أن ينفصل في كل لحظة عن الجسد ويتدحرج فوق الحصير. كاد كُرِيمُو أن يتفسخ، أن ينكسر كما يُقال عند تكسير شيء ما، نال السّم من ألياف دماغه، يد صديقة أمسكت به على حافة الهوّة، وها هو الآن يمتطي صهوة جياد أقل جموحاً لكنها هائلة «الله، الله»، تخرج الصرخة لولَبياً من صدره، قمة المتعة، خليلي يغني، أغنية الحنان الأبدي، أغنيةٌ دنويةٌ، حنين إلى النور المطلق، ابتهال إلى الحضور المحجوب.

يعبر كُرِيمُو الشوارع مشياً على الأقدام، يجر كلبه الضخم، الذي يظن أنه يُحسد عليه، لماذا ؟ من يحسده ؟ أحياناً يركب دراجة، بحركة دائمة غريبة الشكل، يحطّ فجأة مثل النورس، أثراً عارضاً في سماء صافية، معذّب النفس. هذا المساء حط هنا فوق هذا الحصير، هنا فوق الرصيف العمودي للمَكسر، بعيداً عن هدير الأمواج الهائل، جنباً إلى جنب، مع الطيور المائية الواقفة وهي تحملق في الغابة العالية لشباك وحبال مراكب السردين الراسية. كُرِيمُو هو رجل الأسرة، الوحيد بعد والده، رجل الحياة الداخلية للأُسرة، رجل ذاك التجمع النسوي الكبير : أُمه، أخواته، جدّته، بنات أعمامه وأخواله، قريبات بعيدات، صديقات قريبات، عالم سري لا يُفتضُّ، تتصادم فيه الأخبار والضحكات والتواطؤات اللذيذة؛ حب طاهر، احترام وتلقائية حيّة، حفلة غيورة على حريتها، زينة، حرير، أقمشة برّاقة، عطور، نصائح، سحر، طلاسم، رقة، حلويات، فوحان النعناع، حرارة الحضور، إغراء الأقدام الرقيقة، رغبة مترنحة، مختبئة وراء كحولة الأشفار، نداء مدثّر بالسواد المسطور بدقّة متناهية النعومة، رغبة نباتية تشع من حمرة الحنّاء الداكنة، تجاوز كُرِيمُو سن مرافقة أمه إلى الحمام، كُرِيمُو، من باب الغرفة الكبير، يمكنه أن يلقي التحيّة، وعبارات الاحترام، الحنان، تعبر، على مسافة الأصوات النسوية لتستقبله، عطوفة، مشاكسة، مشحونة بالرموز الغامضة. إنه سيد الحفل، الذي يشرف على استعدادات العيد، يحرص على إرضاء رغبات أُمه. إنه أيضاً رجل القبيلة المقبول في دائرة أصدقاء أبيه، المُشرّك في أحاديث الرجال، يقاسمهم الطعام، الوفاء بالعهد، الحرارة، الخضوع الصارم لمبادئ الدين المقدسة. لم يعرف كُرِيمُو الرحيل والعودة، حرقة الحنين، تمزقات القطيعة، لم يرجع كي يحرك رماد ماض خمد، في موضع آخر يحمل كُرِيمُو جرحاً حاداً

بدون آثار بيّنة، مختفياً في طي كلمة قديمة، وكُريمُو يلهو رأسه خفيفاً فوق عُرف الأمواج، ينزلق على طول انحدارات ضحكة عند بروزها.

دخّنَ الشباب. تمخر الحجرة العالية عباب الحلم، مسلمة أشرعتها للريح. تنفرج الجدران عالياً، عالياً في السماء، وعلى سحابة بيضاء يستوي شيخ وقور فوق صخرة على شكل عرش، يقول بصوته المهاب : «اسمعوا قول الله، حانت ساعة الحساب والعقاب»، ضحك الشبان، حديث مسترسل مجنون، غير مُتوقّع، ينتفخ كالشراع، تدفعه أصوات جديدة، جواد يتكلم بصوت رقيق، هادئ، يد حبيبة فكّت عُقَدَهُ للتّوّ، تتساقط الكلمات منبطحة، بدون ضجيج، تتوقف على الحافة الأمامية للخشبة، تسري عبْرها أصداء بعيدة، مرضى آخرون ينتظرون في الكواليس، يهددون بمداهمة الدّيكور، كُريمُو منحني الرأس، بهيئته المعتادة، ينصت ويتلذّذ بحكي على مسافة منه، عجيب، هو بدوره ينصت مترقباً، متأهباً مثل رصاصة على وشك الإطلاق، يتكلم جواد، متأرجحاً بين الضحك والصمت الطويل الحالِم من حين لآخر، نهايات جُمل ملغّزة، ثم بات الحديث العادي غريباً :

تجري الوقائع في مكتب جُونْ إيكُسَ، أستاذ مساعد بجامعة نَانْتِير. كانت تربطه وجواد منذ تلك الأيام الشهيرة من مارس الذي شكّل مدخلا لمايو 68. جُونْ إيكُس، اسم غير بريء، في مقتبل العمر، جاء، كما يقول، في لمْع الاختلاف ليبرز كمكتشف لنيتشه الذي أقبرته الجامعة إلى ذلك الحين، في باب المسكوت عنه. بإماءة رحبة، وابتسامة ودّية دعَا جواد للدخول إلى مكتبه، للجلوس على مقعد جلدي عميق، غنيمة فجر الثورة.

ـ هكذا، عزيزي، هي العودة إلى الوطن، لعلي فهمتُ أنكم تنوون تسجيل رسالة عن نيتشه. هي فكرة هائلة. حبذا لو عرضتَ عليّ كيف تتصور المسألة، ولو أن هذا سابقٌ لأوانه. على كلّ أنت تعرف موقفي، يمكنك أن تقود عملك كما تشاء.

صمت، صمت الكتب، هيبة الفكر، جواد يبدو غارقاً في حلم، بوجه نحيف وأثر حزن في النظرة، نوع من الإجلال.

ـ أجل (بنبرة متردّدة) أود الاشتغال على وفاة نيتشه الثانية.

ـ يبدو العنوان مثيراً للفضول. الاختيار يبدو وجيهاً. لقد فتحتَ شخصياً العديد من النوافذ في الضريح الذي اعتقد بعضهم أنه دفن فيه نيتشه وحُنّط نهائياً. إنها قراءة جديدة ممكنة، يبقى توضيح كل هذا. وفاة نيتشه الثانية، رمزيةٌ بالطبع، لِمَ لا ؟

الصوت الآمر آت من بعيد، من عمق ذاك الحلم الذي يتدثر به جواد أكثر فأكثر.

ـ معذرة، إني لا أفهمك جيّداً.

ـ وفاة نيتشه الثانية الحقيقية، في شمال افريقيا على الخصوص.

ـ أُصارحك أني لم أفهم بعد. ما معنى هذه الوفاة الحقيقية، لِمَ في شمال افريقيا، ولِمَ تلك «على الخصوص»، هل يمكن للمرء أن يموت في كل مكان وفي نفس الآن ؟ أنت تعرف أفكاري، ويمكنني أن أُكلمك بصراحة. ما دخل العرب في كل هذا ؟ إلا إذا كنت تقصد بعض الوثائق والمصادر العربية التي قد تسلط على الموضوع أضواء جديدة لم ينتبه إليها الغربيون.

ـ لا أبداً، ولا شيء من هذا. يجيب جواد، صوته نابع من أعماق الصدق. جُونْ إيكْس يرفع ذراعيه إلى السماء، متضايقاً شيئاً مّا. يختار لهجة مُداعبة ليخفف من الضيق.

ـ اسمع يا حبيبي، إذا كنت تريد استلهام بُورْخِيص فليس لي مانع شخصياً. لكن لا تنس أنك جئت متأخراً شيئاً ما. عندي فكرة مع ذلك. لست أدري، ولكن ربما تجد أُذناً صاغيَة لهذا الهذيان الجميل من قِبل جماعة «لاكَان». لا تتضايقْ من كلامي.. أقول هذياناً كما لو قلتُ سرداً خيالياً مُلهماً.

ـ لا تهمني خيوط الساحر الكبير (لهجة جواد قاسية) ثم إن ما أنوي تناوله هو أمر...

صمت طويل.

ـ ليكن ! لن ألحّ أكثر من هذا. فالأُمور أصبحت لُغزاً. لو ـ على الأقل ـ كان الأمر مجرد نزوة، خرافة فانتازية، لكن أي لجنة أساتذة ستقبل بهذا منك. 68 أصبحت بعيدة، والشرخ الذي فُتح إذاك تَمَّ سدُّه، باتت النزوة ناشزة.

وختاماً نهض جُونْ إيكْسْ وودّع جواد المتمادي في حلمه.

ـ نبقى على اتصال، أليس كذلك، إذا كان بإمكاني تقديم أي مساعدة لا تتردد، تعرف أن ما يقلقني إلى أبعد حد هو تصاعد الحركة الدينية.. إن ظلال الليل الخميني باتت قريبة.

يتكلم جواد، يشخص الدور كما لو تعلق الأمر بشخص آخر غيره، تتسع المسافة، لوالب دخان أزرق تتصاعد تاركة فُوَّهات متفقعة الحواشي، يضحك كُرِيمُو وينظر إلى جواد

بإعجاب، تربطهما منذ طفولتيهما صداقة متينة لم يحتج أحد منهما للإفصاح عنها. يحمل جواد هالة مجده الجامعي، إقامته الباريسية والسحنة الظاهرية للمثقف، هو يختلف تماماً عن كُريمو، كُريمو الطفل، المراهق الذي بقي في البلد، ملتحماً بأحلامه ورغباته وهمومه : ذلك الجرح بلا آثار بيّنة، ذلك الذي لم يفكر في يوم من الأيام أن يُلبسه حلية فكرة ما، كُريمُو القريب من يديه، من الصخر الرملي، خليله، رأس هش تعبث به الرياح، سحر رحلات لا منتهية، انحدار على الجناح الأبيض، علامة ملغّزة مسجلة على صفحة سماء متبدلة ثابتة، كُريمُو، جواد، لا شيء يخلطهما لا شيء يفرّقهما. لو رميتم أحدهما لأعدمتم الإثنين معاً، لو تصورتموهما متشابهين لن يبقى أيُّهُما، تسقط الفروق المبنيّة على الرمال، والجدران المشيّدة من نفس التربة تصمد متآلفة ومفرّقة.

ما أنوي الحديث عنه : تتوقف الجملة، تلفظ أنفاسها، تبحث العيون، تتوسل إلى الأدلة، يغيب جواد، يبتسم، وجه جُونْ إيكْسْ المندهش بعلامة الضيق، كانت ولا تزال له صداقة حقيقية مع جواد، جُونْ إيكْسْ يأتي كثيراً في إطار دَوَرَاتِ عمل، ندوات أو عطلة، هو ليس بليداً، لا يبحث عن اسْرَار الجلد تحت شمس الشواطئ، له أصدقاء كثيرون. لا ليست مُزحة أراد جواد أن ينصبها له. جواد نفسه لم يستقر رأيه على نيّة بعينها. ما إن يخطرْ له موضوع مَّا حتى يبدو له فجأة مبتذلاً، لا يمت بصلة لتلك الرغبة التي كانت تدفع به تائهاً إلى الأمام، موجة عارمة تطفو من حوله وتغطيه، كان يبدو له أنه بعيد وفي نفس الوقت قريب أشد القرب من أمرها، تُرى ماذا، كل سؤال بدون معالم تحدّه يترك شرخاً فاغراً، فوْهة الكلمات المحروقة بوهج تلك النار الداخلية.. بعد عودته ذهب لزيارة الأستاذ عُمر المخْجُول، لم يكن ينتظر منه شيئاً، لم يكن يكنّ له أي تقدير، فقط كان يريد أن يطْلعه على مشاريعه، على مقابلته مع جون إيكس، آملا بدون شك أن يجد ما يؤكد رأيه، عمر المخجول كان يكبره بعدة سنوات، اعتلت وجهه سحنة المثقف، خليط دقيق من الشرود، والانغلاق، والحسابات المبتذلة عند الاقتضاء، لم يكن يجهل شيئاً عن النخبة الباريزية، كان يقتني زيّه من عند سوليرز، كريسطيفا، بارط، يتنقل ما بين الموضات الثقافية السلبية والإيجابية على السواء، يتخوف دائماً من التخلف عن آخر موضة. ينبئ أسلوبه عن تقليد أخرق، بلاغة ضفة السين اليسارية تشتم منها رائحة استيراد حديث، كان يعلم ما هي مخاطر اللعبة الغربية مما دفعه إلى فتح بعض نوافذ النجدة على المشرق، على العالم العربي، إلا أن انتهازيته لم تكن لتمنعه من إظهار علامات الصداقة، استقبل جواد بفرحة حقيقية وسط العناقات الودّية الحارّة.

أهلاً وسهلا ! إيوَا، لابأس، عزيزي هي فرحة كبيرة أن أراك، علمت بعودتك، لماذا لم تزرني قبل اليوم، والحاج والدك، لم أراه منذ زمن طويل، كيف حاله، الحمد لله، أُوديلْ معك، تعرف هذا لا يفاجئني، أعرف جُونْ إيكْس، هو صديق، رجل ذكي واسع الثقافة وأكثر من هذا متعاطف وحَسن النية معنا، عجيب ! إنه يحب هذا البلد كما لو خُلق فيه، كيف تريد منه أن يفهم ما تنوي عمله وأنت نفسك لا تعرف هذا، إنه ليس بقارئة الفنجان، شوافة ! لن يستطيع أن يقرأ نواياك هكذا على جبينك، عزيزي. اسمع لي... صوت عمر أصبح مُلحاً هامساً، إنك ستضيّع الدكتوراه هباء، وقد قيل لي إنك خلال كل الفترة الغريبة، كنت غريب الأطوار، تعرف، طيب، أجل، اليسار بات في عداد الماضي بالنسبة إليك، ولكن هذه الجماعات، كيف تسميها، أصولية أو سلفية، لا علينا، أكيد أنهم مسلمون، على الأقل هذا ما يصرحون به، إذن هنا أيضاً ليست الأمور إلا مؤجلة، فهم لم يباشروا بعد العمل السياسي المباشر إلا أن الأمور تجري بسرعة، اسمع يا عزيزي، صوت عمر المحجول أصبح أكثر إلحاحاً، أكثر خفوتاً، يخلع نظارتيه، يمسح بيده، بيديه على العينين، علامة تعب أو تأمل عميق، اسمع إلي، من الأجدر بنا أن نبقى خارج كل هذا، ينبغي أن نتحلّى بحكمة القنفذ، هذه الصورة من عندي، يتجمع على نفسه لكن من غير إيذاء الآخرين، رأيت مجرى الأحداث، الأمر منطقي، لا أحد يقيك من تفشي الفوضى، تتذكر عبارة ديغول، سمعنا هذا في باريس، عُمر يتلذذ بوقع كلماته، منطقي، ماذا بوسعك أن تفعل، ثم الأصدقاء في السجن، أنا أرثي لهم، لكن الله يهديهم، ينبغي لهم أن يتحلوا بالحكمة، ألا يتمادوا في تعنّتهم، القنفذُ، هذا عين العقل، أنت لم تَرَ مكتبي بعد، انتظر، في الحين !

عمر المحجول يودّع جواد مكرراً النصائح، عبارات الصداقة، أخذ وعد جواد بأن يأتي للعشاء معه، لرؤية مكان إقامته، للحديث الهادئ. غادر جواد عمر المحجول، تكلّم قليلاً، بضع كلمات فقط، أنصت في شرود، لم يفكر في الامتعاض ولا في إصدار حكم ما، هذا النوع من المواقف هو الجدار الذي يصطدم به في أغلب الأحيان.

الجراد، حدّثه أبوه عنه، لكنه هو لم يشهده من قبل، وصلت أسرابه كالغيم الكثيف، البُنّي.. تحجب نور الشمس ثم تنهال على كل شيء فتقضي عليه بما فيها الأعشاب الصغيرة، أزيز هائل يختلط بالضوضاء الذي يحدثه الناس بالقرْع على علب الصفيح لمحاولة تخويف الجراد وإهرابه، هكذا تماماً، هي الكلمات مثل سحب الجراد، الأزيز، الحك المستمر للهوائيات الواحدة مع الأُخرى، ذاك الطيران الأعمى، تلك السحب المدوّرة الهائلة القادرة على عبور البحار، الربوع الشاسعة، متضامنة ومتآلفة، الكلمات، الحشرات تحط فجأة، صرير حاد،

تحطّم، جرمٌ فوق الأرض، طعم ملح، عُشْبي، طحيني، سِلالٌ مليئة، يعشقها الناس، جرادات مشوية، رطوبة بطن الحشرة المُرعبة، محار بحر الرمال، جروح الإنجيل السبعة، الكلمات، سرب كثيف، دوائر مغلقة، نكهة اللحم، كان جواد أمام طلبته الذين لا تفصلهم عنه إلا بضع سنوات، يرى تصاعد جنون العيش، التعصبات السياسية، هكذا يسميها الناس ببلاهة وبدون أدنى تفكير، وطيس الكلمات المحرقة، امبراطورية السلطات، خطب كان يعتقد أنه سمعها من قبل وكان يعتقدها الآن مكمّشة، قديمة، مُنْحتّة إلى أقصى درجة، وهاهي ذي تعود صفحة بيضاء ناصعة من كل تدنيس. حادّة مثل شفرة جديدة، سيادة أكثر جبرية من الكلمة، صمت هؤلاء الشبان، هؤلاء الشابات الذين تتغير ألبستهم ووجوههم، الذين اختاروا أن يعيشوا في فضاء آخر، وبصورة أخرى، كان جواد يبحث عن نقطة إرساء، في البداية اختار مداهمة النيران، خصوصاً عندما كان يتدخل العنف البوليسي، ويحاول سحق رغبة العيش تلك تحت الأقدام، لم يكن في استطاعته أن يلتحم بالطرف الآخر، لم يكن يقوى على الانضمام إلى أولئك الذين حققوا مآربهم مثل منير، الذين تنكروا لذواتهم بصفاقة، لم يكن ذلك مرماه، كان التأثر يخنق أنفاسه، غضب يلوي أحشاءه، كان يرى ما كان يلاحقه دوماً، أصدقاؤه، أعزّ أصدقائه يُرمى بهم في آلام الزنازن بلا أمل، وضع يستعصي على الوصف، يُشطبون عليهم من عالم الأحياء وهم في عزّ شبابهم : سعيد، ثبات على المبدإ ونقاء، عاد إلى بيته وهو يتساءل كيف أفلت منهم، عاد مرضّض النفس والجسد، مستعدّاً لأن يكره نفسه إذ لا يزال حياً، كان يشعر بنوع من الهدوء خصوصاً عندما يأتي لزيارة والديه، تحضر له أمه العشاء، تناوله شيئاً يأكله، على طاولة قصيرة الأرجل أمامه، في غرفة عالية، جدرانها عارية، كان، وهو جالس على فراش مغطى بقماش، يستعيد في ذاكرته الأيام الأُولى من حياته، شيئاً آخر أيضاً عندما كان يدخل أبوه، وينهض لتقبيل يده، وفي نوع من السحر الذي يشمله، يشعر بالطمأنينة وتتعزز نفسه بصرامة هادئة، يمكن أن يبدو في نظر الآخرين غائباً، بعيداً، كان يعيش في حضور صاحٍ، ما وراء صرير الكلمات التي تظلم السماء، خصوصاً بعد الجملة المناضلة الميتة التي تحوك بلا هوادة حجاب عماها ذاته.

في تلك الغرفة العالية المنفتحة على السماء، كانت الحفلة قائمة، يدان طويلتان ناعمتان، يداها هي، تضانه في حنان، لذة هادئة، بدون ضجيج، بدون إشارة آلية، حرير ناعم، زمن مجرد، هو لم يدخن، خشية المرض، دخن الشبان، هو لم يدخن، كان يشعر بخفة لذيذة، لحظة سحر، والتشنج الذي كان يحبسه يذوب، مسامير الذاكرة اقتلعت، يتنفس

بسعادة، وقد تخلص من الأرواح التي كانت تثقل صدره، آيْلاَن ! صوت خافت، أنين، تنهيدة، هناك حيث السعادة، الموت، زهرة منحنية على الحلم، لم يجرؤ على قول أي شيء، كلمة، نفس، وكل شيء سيتحطم، ينعدم، جمالها، كان يود أن يصرخ بأنها ذميمة، وأمامها انهال عليه جنون كالصاعقة : أن يرتمي عند قدميها، يموت وسط ذاك النور الوهاج، ينعدم، أن يختطف رقة وجسامة الليل العذبة إلى الأبد، كان منذ فترة طويلة قد تعلم كيف يتعقل، للأسف، وقبل الأوان، كان يعتقد من غير تفكير في التخلي حقا عن الرغبة في العشق لأنه وجد ملجأ في عدم توضيح أي شيء، كان يرقص على حبل ممدود مع أنه غير ناقص خفة ولا جرأة، والخلاعة الوحيدة التي كان يمتع بها نفسه هي ذاك الاسم الذي أعطاها إياه من غير علمها، آيْلاَن ! لا أحد يمكنه كشفه، بل حتى هو أحيانا كان يمكنها أن تكلمه برقة، كان يستطيع سماع صوتها، ولم تكن لتتوقع تلك النسخة الأخرى من ذاتها، آيْلاَن التي تنظر إليه دون رؤيته، تمشي على حافة السيل كما لو أنها في الليل الجسيم العذب، تدعوه إليها بنظرة، برجفة، بنَفَس، وها هو على وشك الاندثار في الفراغ، مسرنم بقدرٍ مأساوي، يؤرجحه ثقل قلبه، كانت تخاطبه، تقتفي خطواته، تتابع أفكاره وعذاباته، بضحكة فرحها، بيديها الناعمتين تقوده، كان يحبها، يذوق سعادة صافية، فجأة كل الذي واراه بصبر في أعماق نفسه بجميع ما يتوفر من حذق وذكاء لحشرة سامية، كل هذا ينبثق من ذاك الانشقاق، ذاك الثقب الفاغر الذي يحمله في قلبه، كانت هي الغريبة، غريبة تماماً، صورة حبيسة لحظة زبد لمَّاع، تجلّ عارض من خلال نوافذ القصر، قلعة سوداء على قمة صخرة وعرة تصدمها الرياح، يعدو خياله جموحا، بين السماء والأرض، رأسه كتاب من ألف صفحة تصفعها الريح، كان قد اخترع امرأة محل جميع النساء اللواتي أحبهن، يهرب، ينهار وقدماه تنزفان دماً تمزقهما أحجار صوّان الحادة، أحجار العشق الصلبة، كانت هي وليست غيرها، كانت في حضنه، تلاشت صورة القصر الذي اخترعه، سراب عابر، تنظر إليه في حنان، حنان بعيد، يناديه صوتها الذي لا يمكن لشيء أن يستعيده أو يقلده، يدعوه، كان على وشك الارتماء، تداهمه الموجة العاتية، ترسم منحنى خاطفا كالبرق، تلفظ أنفاسها على طول الحافة لتولد أخرى، موجة أخرى تدوي دوي السوط، كانت هي تلك المرأة، جسد موهوب، تبتعد نهائيا، على شفتيه أصبح يرشف الآن مذاق الغياب القاسي، كان يجد نوعاً من المواساة، يكتب، كما لو كان يعزّم. لا تكتمل المرأة إلا بالخيانة، تستطيع منح المرء كل السعادات إلا تلك التي يرغب فيها، لا شيء كان يستطيع إشقاءه، كان قد تعلم أن الحيوانات المعطوبة تتيه في الغاب لتموت، أين سيختفي هو، أين سيواري ذاك الانشقاق الفاغر الذي ينزف منه دمه غزيرا، لقد أصبح الآن يتقمص

شخص عطيل، يحترق في لهيب غيرة قائمة ومتعالية، يترقب على وجه ديدمونة علامات الضعف والاندحار والخيانة، لم يكن يدري أين يهرب، كان محاصرا بالمرايا، يسعى إلى حبس صورة له فتتلاشى، تغرق، تختلط بالأخريات التي تستولي على الفضاء في دوي صاخب، معاناته، نقطة هاربة مثله هو، آيْلاَن !

كانت ترافقه، عاشقة، تسهر عليه، في تلك المسيرة الطويلة، لو تخلت عنه فجأة، برودة الوحدة، لو هربت عنه حياته، كان جالسا على فِرَاش، مدثراً في برنوسه الأحمر الزعفراني، ظهره متكئ على الحائط، لأنه كان لا يستطيع الاستمرار طويلا في الجلوس، كانت الحفلة، والفجر يبزغ، تعلنه تغاريد وتحليقات الطيور، اللحظة التي قيل له إن الأرواح تنسحب فيها، تلفظ نفسها الأخير على إيقاع الطبول المتخافت، على وقع الخطو الوئيد فوق الأرض المهتزة.

مرثية الحلاج

ريشتك المسمومة الخضراءْ
ريشتك المنفوخة الأوداج باللهيبْ
بالكوكب الطالع من بغدادْ
تاريخنا وبعثنا القريبْ
في أرضنا ـ في موتنا المُعادْ.

الزمن استلقى على يديكْ
والنار في عينيكْ
مجتاحةً تمتدّ للسماءْ.

يا كوكبا يطلعُ من بغدادْ
محملاً بالشعر والميلادْ،
يا ريشةً مسمومة خضراءْ.

لم يبق للآتين من بعيدْ
مع الصدى والموت والجليدْ
في هذه الأرض النشوريهْ ـ
لم يبق إلا أنتَ والحضورْ
يا لغة الرّعد الجليليهْ
في هذه الأرض القشوريهْ
يا شاعر الأسرار والجذورْ.

أدونيس
أغاني مهيار الدمشقي

كان ذلك يوم ميلاده : انبهار ذلك الشاطئ الهائل على مرمى البصر الذي ولد لتوه هو أيضا. الطرف الصلب للرأس ينغلق على الشرم : خضرة مزرقة، في قمة صخرة تطل على الشاطئ قبة بيضاء، تحتوي غرفاً مفتوحة يؤدي إليها درج ضيق، منحوت في الصخر، عرضة لعنف الرياح. كان ذلك يوم موته : لا ملموسة مثل حبيبات الرمل تلك التي تطردها الرياح سحبا على سطح الأرض. يوم ميلاده، يوم موته، لم يكن يدري، لم يكن في استطاعته أن يدري : مطويا في وجه الريح العنيفة، عيناه ممتلئتان بالملح، أين كان يقف ! كان شبيها بتلك الغرف، في أعلى الصخرة، المفتوحة، المطهرة، كان دمية بلا وزن ولا ماض، يتقاذفها الشّرْكي. كان الناس قد وفدوا إلى هناك لبضعة أيام، زيارة تقليدية. يصطحبون الطفل يوم يحلق رأسه لأول مرة : رأسٌ عارٍ ناعم أبيض مثل البصلة ! يجيئون ليخيموا في تلك الغرف المسودة بدخان نيران الحطب. إذا كانت الوسائل متوفرة يذبح ثور. كان رأسه ناعماً، أبيض مثل بصلة مقشرة لمّاعة. جسده لم يعد له وزن. كان ذلك يوم ميلاده، يوم موته. عبر الكتبان والأدغال، يأتي الأطفال من أقرب الدواوير، على حمير بلا بَرَادِعَ، يركبون في مؤخّرة ظهر الدّابة : يتوجهون نحو ضريح الولي، يعرفون أين يذهبون. ثمِلٌ بالرياح، متوترُ العينين بالملح، بالضياء الأخضر، بالحماس الكثيف : هادئٌ، مترَوٍّ، محمولٌ على المنحى الطويل، المتوتر الذي ترسمه النوارس، انطباعات، رؤى، كلمات جوفاء، لا شيء ينبت على هذه الضفة العذراء، لا شيء إلا الصخرة المثقبة، بياض الضريح، تجذر شجر أركَان العنيد، كان الانفجار عنيفا لا يطاق، صدره تفرقع شظايا شظايا، أطراف أقمشة، نذُر، تلابيب أحلام معلقة في الريح، في الشجيرات، في ظل الضريح. كان يريد الهروب مما لا يطاق !

تنقسم الرؤيا إلى عناصر بسيطة : البحر، الرمل، الضريح في قمة ذاك الرعن الصخري، الرياح الصابيات، السماء الزرقاء، الحشائش، تلك الحيوانات، أولئك الرجال، تلك النساء،

أولئك الأطفال الذين أتوا للزيارة. فجأة تمتلئ السماء بصوت الغِيطَة النحاسي، يتراءى الموكب في الأفق : على صهوة جواد أحمر عسلي، اللجام والسرج مطرزة بخيوط الذهب، القدمان في الركّابيْن المستطيلي الشكل، المُوشييْن بالفضة، رجُل، يرتدي سلهاماً أبيض، متحرفا الكومية الفضية، وأمامه طفل. تصفع الأعلام الخضراء الريح مثل أمواج متكسرة، يتبع الموكب ومن حين لآخر تتصاعد في السماء زغاريد حادّة، يتجه الجميع ببطء نحو الضريح. ختان ! طهارة. اخترقت الحفلة الفضاء، شرب الرمل كل حضور : لا أحد غير الزوار القليلين المختبئين في الغرف الصخرية العالية. تنتظم الرؤيا إلى عناصر بسيطة : البحر، ابتداء مكرر إلى ما لا نهاية، رمال متصاعدة لؤلبياً، قبة بيضاء، تلك الغرف المتراكبة تحت سماء زرقاء، عضة الرأس البحري تقصم الأمواج. الرأس المحلق، بصلة ناعمة وبرّاقة تزلق تحت الرياح سعيدة ونقية، والحجام، الحلاق، بوركت يداه، ترك حسب الأعراف، جذيلة من الشعر القصير تنتهي بخصلة صغيرة : طريق مفتوحة أمام الإله أو أمام الشيطان. قدر ! أي يد ستمسك بتلك الخصلة المعترضة لنزوات القدر. لو كان يهوديا لكان الحلاق ـ الحفّافُ في هذه الحالة ـ قد حلقه في سر البيت دون ترك أي فرصة للإله ولا للشيطان، ولكان المتسولون قد قبضوا بضع فرنكات، ولكانت الأغاني والأدعية قد أسعدت القلوب.

كانت الحفلة قد عبرت الأرض الثابتة، النوارس، كتابة بيضاء، تملأ فضاء المسار من غير أثر. الرؤيا أمر بسيط. من سيصغي إليك لو قلت إن الرؤيا في متناول الجميع. الناس جالسون على إدراج السلم، النساء في معزل، عجوز تصعد الأدراج بصعوبة، أطفال فضوليون، مرحون، رجال. قلوب على الأدراج.

«إذا كنتم مسكونين بالأرواح، إذا كان الدم الأسود يتخدر في عروتكم، إذا كانت مخالب إبليس منغرزة في جسدكم، ضحوا بثور صغير إذا كان الله قد وسع عليكم، أو، حسب إمكانياتكم، أَوْقِدُوا بعض الشموع لتشملكم المغفرة والعناية».

كان ذاك اليوم بدون قرابين، يوم عادٍ، مبتذل. الرجال قابعون في الغرف الفارغة، النساء بدون لثام، يرتدين الفوقية كما لو كنَّ في منازلهن، أطفال يلعبون، رجال يتحادثون. من سيصغي للحارس يروي حكايات ذاكرة خالدة ؟ من سيصغي إليك ! شفافية. «إذا كنت تشكو من آلام العظام، إذا كانت الجن الخارجة من أعماق البئر تسكن كبدك، إذا كانت ديكة سوداء تصيح ليلا في رأسك، إذا كان الرصاص الوهاج يضغط على نواظرك، إذا كان البرد الثلجي قد تسرب إلى ركبتيك، إذا كنت لا تغمض جفنيك طول الليل، تتقلب وتتقلب في نار فراشك، هنا ستجد الخلاص، ويكون لا بأس عليك بحمد الله !».

اللغز، ضباب التيه يخيم على دماغك، طوب جاف يلتصق بشعرك، كل هذا بمشيئة الله، وفضل الوليّ الحجّام، كل شيء، نعمْ كل شيء، أُقسمُ لكم : لقد طُهر، حُلق، مُحي، اقتُلع من أصله : مبصّلة، بصَلة ناعمة، برّاقة، رِقة أضواء الأيام السعيدة، ليل الميلاد، فجر الموت. دوي الغِيطة النحاسي، نداء أصم وعميق صادر عن النفّار، ستسقط القلاع. أنصتْ ! أنصتْ إلى صمت قلبك. هنا يسود سيادةٌ مطلقة ما لا يمكن لشيء أن يماثله، صوت البحر التحتي، هدير الرياح العاتية، الانشقاق الحاد، الآني، صراخ النوارس الخشن.

يوم ميلاده، يوم موته ! ما الذي كان سيخترع، هو، ابن السبيل، عابر طريق يتشبث بمِزَق ماضٍ تفتت وأصبح غباراً. قطاية، الكلمة نفسها ابتلعها النسيان، ظفيرةٌ لأطفال البادية من غير نسب، عادة مهملة ! ستحتفظ بشعرك إلى أن يقطعه مقص عصري. لن يحلقك الحجّام التقليدي بموسى تم شحذها على الصخرة، الحلاق العصري سيحلق شعرك حلاقة عصرية جميلة، ولتحدي أبيك وأمك، يمكنك ترك شعرك يطول مثل الهيبيز، هؤلاء الشياطين. «هؤلاء الشباب، شباب اليوم لا يسعون إلا وراء الشرّ واللعنة والبلاء !».

للأسف ! للأسف ! لن تكتنفه نفحة ورعاية الوليّ الصالح. ستبقى أذنه صمّاء عن لحن الغِيطَة النحاسي، عن إيقاعات البحر العاتية.

نساء، أطفال، بعض الرجال ينظرون شاردين من داخل الحُفَر، كلمة عابرة على الشفاه، بسمة... كما لو كانوا سينطقون، لو استطاعوا أن ينطقوا ! أطفأت الريح كلَّ شيء. بساطة الأشياء، اصطناع التأثر ! من سيحكي في يوم من الأيام الدرّة السوداء، رشاقة الماعز وسط خضرة أشجار أركان ! لحم ليس أسود مذبوح، ذاك ما ينبغي له كي يتخلص من السحر الذي يعتمل في جسده، يسكب المداد الأسود في قلبه. هذا ما قاله الساحر بعد أن أغمس القلم القصبي في محبرة الصمغ وخط كلمات الخلاص. أخجله الطفل المتعقل : «كيف يمكن لرجل في مثل سنك، مثقف، ناضج وحكيم، كيف يُمكنه السقوط في أفخاخ المشعوذين ؟ إذا كنت مريضا أو واهن الهمة، فعليك بالطبيب».

عَشّاب، عطّار، سحّار، وسيط في بعض الأحيان، مُوحَا يُنفّذ طلبات عدّة زبائن، يتحادث مع عدّة مُخاطِبين في نفس الآن، والبسمة لا تبارحه... ساذج وشاطر في الوقت نفسه : ملعقة تحْمِيرَة للطفلة الوقحة، كمّون للرجل الوقور، الصامت، الغاسول للمرأة المحجبة، هنا كل شيء

يبـاع ملفوفاً في أوراق الـدفـاتر، الجرائـد... هنـا يمكن الشراء مقـابل بضعـة سنتيمـات. فرج الضربانة المجفّف المنتوف، أسماء نباتـات، حيوانـات مجهولـة أو صعبـة التميز : المرأة الشـابـة، تلك المنزوية، تخفض صوتها، مُحْرَجَةً بعض الشيء، إنها جميلةٌ على كل حال، بلبـاس أوربي، مقيمـة بفرنسـا، بـاريس بـدون شـك، حـائرة... تلحّ «لابـد أن يكون حقـاً كـذا، غير مغشوش، إياك»، مُوحَا يطمئنها : «كوني هانيـة، غـداً إن شـاء اللـه» تغـادر على إثر هـذا الوعـد، طلاسم حب ؟ مُوحَـا يعطي الوصفـة، يشهر كتـابـاً عن الأعشـاب، أنوار الغرب حِلْيٌ للسحر الظلامي، أسماء بالفرنسية، بالإنجليزية، حشائش سحريـة، السحر الأبيض ؟ سحيق فرج الضربـانـة، مُوحَـا مقتنع، مقنع : الأسد يتحول إلى طفل خجول وديع، بلاقوة. يمكنها أن تفعل به مـا تشـاء. في عينيْ مُـوحَـا تتراءى ومضـات اليقين : ضَبُعٌ ؟ بليـد، شـارد، منبهر، مسحـور، خـالي الرأس، مستسلم لنـزوات المرأة : شيء من مسحـوق مـخ الضبُـع، مجفف، مقـدار قليـل يـؤثر على مـخ الرجل، ينهكـه، يلغي إرادتـه ؟ مركز الحليب في المغرب شركـة نموذجيـة، تعرض منتوجـات عصرية : حليب مُبَسْتَرٌ، رايب بالفواكه الطريـة، مخلوطـات الشكلاطـة والكل صحي للغـايـة، على كل علبة ورقة بيع مكتوبة بالفرنسية والعربيـة، ومن بـاب العـدل، كتب مُوحَـا على ظهر إحدى الأوراق، بخط دقيق مشكول، قائمة مواد الطلسم : ضَرْبانَة، سَاكْنَه، النّـاصَر، فَرْبيُون، ثَمْ مَرْشَانْ، حَبَّةْ الكَارِي، زَغْزَعَة، غَلبَتُو، سَـاكْنَـة، أسماء تتسـاقـط مثل حبـات الحصى الواحـدة تلو الأخرى في بئر داكن، في انتظار سري، في رجاء حاد، قوى عجيبة، تناسخ الأجناس الحيوانية النباتية المعدنية. إبليس ومملكته السحريـة. علامـة العصر : الطلاسم، التعزيم، السحر في رأس قلم جاف من نوع بيكْ على ظهر ورقة عـاديـة مبتـذلـة بلا أدنى خبـايـا. سهلـة وبسيطـة في متناول كل واحد، ضربانة، ساكنة، الناصر، فربيون، ثم مرشان، حبـة الكَـاري، زعزعـة، غلبتو، ساكنة ! كان يطلب ترديد هذه الكلمات على مسامعه رغبة في استيعابها. كان قـد طلب من مُوحَا أن يكتب لـه على ظهر ورقـة البيع تلـك وبخـط مقروء مشكول حتى يتمكن من نطق الكلمات على أصح وجه. كـان يرددهـا لنفسـه بـاستمرار : كـان يسعى إلى إكتنـاه إيشـاراتهـا الصوتية. تلك الورقة الخضراء، المبتذلة والمطبوعة، كان يحفظها بحرص شديد دفعـا للنسيـان، خشية ضياع شيء كان يحرص عليه اعتباطاً. لم يكن هذا نتيجة فضول ولا نظرة فلكلورية. لا أبداً، أؤكد لكم هذا ! لشدّ ما كان يكره هذه العماوة. حشـائش معروضـة أمـام عينيـه، مجففـة مسحوقة، أغصان رمادية، مغبرة، بلا صوت، ولا حياة، عظـايـات يـابسـة، جلود براقـة، قنـافـذ كروية، فَرْوٌ من أشكال مختلفـة، أرجل، أذْنـاب، يتنقل البصر لا مبـاليـاً ويثبت على شيء مـا لحظة ثم يتيه ويندثر أشلاءً. حيوانات يابسة، بلا حياة، ميتة إلى الأبد !

تم اتخاذ الإحتياطات، ليس خوفا، ولكن بحثاً عن النظام وبسبب مواضعات متفق عليها. أُخْرِجَتْ هؤلاء النسوة من سوق لَغْزَلْ حيث كن يعرضن مبيعاتهن، وهاهن صامتات لا يتحركن تحت سماء أبدية، جالسات ها هنا في الساحة خارج الأقواس. وجة عارٍ، وجة محتجبٌ، جلد أسمر، جلد أبيض، خِمار بُنّي، خِمار أبيض، معاصم مثقلة بالأساور، جالسات على الحصائر، أمامهن سلل، أو أعشاب مكومة فوق قطع قماش : أسماء متباينة، كان في استطاعتهن تسمية كل عشبة، كان في استطاعتهن استدراج المرء إلى أن يتيه في طيات الصمت.

ليلة ناعمة نعومة حرير أسود، جدائل شعرها منسابة مثل سيول من لهائب، يد مُحَنَّاةٌ، بطيئة، ناعمة، تضغط على عضوه، إصطدامات الأساور الفضية، صرخة حادة، تقمص الفضاء، صدره : نعيمة، نعيمة ! عجيب ! المجذوب، المجذوب المتيم، الأطفال يضحكون، يستفزونه، يرمونه بالحجارة. المجذوب، الجسد في الأطمار هارب في مهب الريح. دخل البحر المدينة، اندفعت الجدران، المدينة، والميناء وسط المحيط المتعالي الجارف. ومع ذلك، مع ذلك، أقسم لكم بالله أنه التقى نعيمة وسط صالون عادي، جميلة بكل تأكيد لكنها رزينة، أرواح هادئة، هيئة امرأة متغاربة ! مهبول، مسكون ! اطمئني يا روحي، اطمئنوا. خارج أسوار المدينة طُردت البائعات، نساء إبليس. سُحْقاً لهن ! أجساد سوداء مثل السحر أيْبَسَها الله في احتضارها، سحَب الله من فَمِهنّ آخر لقمة خبز، أشلّ الله أيديهن على العدم، جمّد الله في محاجرهن اللعينة كل آثار السعادة والحلم والحرارة ! ساحة مخصصة للمشعوذين المرخص لهم، للسحر المُبَسْتَرِ المراقَبِ الخاضِع لمراقبة الشرطة، معروضات للترفيه والفضول العابرين.

كان يردد هذه الكلمات على نفسه : ضَرْبَانَة... كان يشعر بنفسه ثملاً شيئاً مّا، ليس إلى حد السكر، مجرد انتشاء، لم يكن يعرف بالضبط لماذا. ومع ذلك فإن الأرض تحت قدميه كانت ثابتة منتظمة. هناك اعتناء أكيد بشؤون المدينة. أُزيلت كل الأحجار التي كانت تحدودب تحت الأقدام مثل أمواج مكسرة، واليوم أصبحت أرضية سوق لَغْزَلْ معبدة، لم يعد في استطاعة أي شيء أن يطلع من بين الشقوق، لقد تم إغلاق كل الثقوب وتسطيح كل الشناقب. ساحة واضحة المعالم ! الإسمنت يغطي الآن أحجار البناء في الأعمدة والسقائف... أُلغيت اليد التي نقشتها وسط مخلوط الإسمنت المجهول. ثملٌ شيئا ما، لكن بنوع من الاعتدال مع ذلك، رأسه مثل رمانة شديدة النضج، على وشك الانشطار، كتب ذات يوم ما يلي : حبات حمراء جميلة تتطاير في يوم ميلاده، يوم وفاته، ذلك الشاطئ المترامي إلى حدود السماء :

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

سُكُــوتٌ ثُــمَّ صَمْتٌ ثُمَّ خرسٌ — وَعِلْـمٌ ثُـمَّ وَجْــــدٌ ثُمَّ رَمسُ
وَطِيـنٌ ثُمَّ نَـــارٌ ثُمَّ نُــورٌ — وَبَـرْدٌ ثُمَّ ظِــــلٌّ ثُمَّ شَـمْـسُ
وَحُــزْنٌ ثُمَّ سَهْـــلٌ ثُمَّ قَفْـرٌ — وَنَهْـرٌ ثُـمَّ بَحْـرٌ ثُمَّ يَبْـسُ
وَسُكْـرٌ ثُمَّ صَحْــوٌ ثُمَّ شَــوْقٌ — وَقُـرْبٌ ثُـمَّ وَفْـرٌ ثُمَّ أُنْـسُ

الحلاج

مثل رمّانة شديدة النضج... تمل شيئا ما لكن بدون مبالغة. كثيرٌ ما يقال، لكنه قرّر أخيراً أن يأخذ بزمام الأمور. كان جالساً بسطيحة المقهى الصغير، مجرد دكّان، بضع طاولات في الخارج على ساحة في أسفل الساعة الكبيرة، كان يحب الجلوس هناك تحت شجرة المطاط الباسقة. يعرف الآن أنها شجرة المطاط وليس مغنولية كما كان يعتقد في البداية، يعرف الآن ولهذا السبب كان يشعر بلذة خاصة، لم يكن يدري لماذا ! كان يحب خصّيصا تلك الساحة الصغيرة، تعلّق رقيق، تآلف وُدّي. كان بودّه أن يصفها لا محاولة في اقتسام متعته، إن كان يعرف أن هذا مستحيل. لا، فقط ليزوّد نفسه بيقينيات، ليطرد الامّحاء المحتوم. كان قادماً من تَاغَازْت، ظهرُه إلى البحر، اخترق باباً أولى، شارعاً عريضاً، ثم دائما في نفس الاتجاه، باباً أخرى في أسفل الساعة الكبيرة، باب السبعة ! باباً بعد باب يدخل في قلب المدينة، في قلبه هو. ودّ لو استطاع محو التنقل، إلغاء الفضاء، احتواء الكل بنظرة واحدة، تضمين كل فرحته في حبة واحدة، حبة حمراء، ودّ لو استطاع محو خطى الوصف الضائعة. كان يتيه، يتعثر عند كل لفظة : تعجّلٌ أو تباطؤٌ، كل حركة كانت تحبب النوى ترسّخ المسافة والنأي.

كان يتعهد، وهو جالسٌ بسطيحة ذاك المقهى الصغير أمام كأس شاي، بأن يمسك بزمام الأمور. يعبر المارّة منشغلين، هادئين، بلا عجلة، لا مبالين بنداءات الساعة وهي تدق ساعاتها لمتعتها الخاصة. كان ينظر على الرصيف المقابل إلى الواجهة الزرقاء للصيدلية، كم كان يحب ذاك اللون الأزرق، لكن قبح اللافتة ينال من متعته.

يمضي المارّة، تمضي الحياة. الناس يتلاقون، يتوقفون برهة، يتصافحون، يتبادلون الابتسامات، الضحكات وعبارات الودّ، الحنان، الصداقة، كانت الأصوات همساً، الأصوات قادمة من بعيد، الأصوات قريبة جدا، الأصوات منسية على ضفة الأزمنة، الأصوات تفيض من حوله هديراً عجيباً. أصغْ إلى أغنية البحر، دويٌّ عاتٍ.

يقال، ويقال الكثير. تصاعد البحر، دخل البحر، سيدي المجذوب العاشق المتيم، اخترق الأسوار. المركب الكبير المحمول على متن الرياح والأمواج، يرسو في مرفإ الأبدية. تلك السنة كان البحر قد ركب رأسه. النادي، فيلا استعمارية، بساحة باب العاشور، ملتقى النخبة اليهودية، احتلته الأمواج الجموحة، كما غطى الزبد المقبرة البحرية العتيقة بقشرة بيضاء، المقبرة اليهودية المسجلة في صفاء حاضر بلا تجاعيد.

أَشَارَ لَحْظِي بِعَيْنِ عِلْمِ ... بِخَالِصٍ مِن خَفِيِّ وَهْمِ
وَلاَئِحٍ لاَحَ فِي ضَمِيرِي ... أَدَقَّ مِنْ فَهْمِ وَهْمِ وَهْمِي
وَخُضْتُ فِي لَجِّ بَحْرِ فِكْرِي ... أَمُرُّ فِيهِ كَمَرِّ سَهْمِ
وَطَارَ قَلْبِي بِرِيشِ شَوْقِي ... مُرَكَّبٌ فِي جَنَاحِ عَزْمِي
إِلَى الَّذِي إِنْ سُئِلْتُ عَنْهُ ... رَمَزْتُ رَمْزاً وَلَمْ أُسَمِّي

الحلاج

حالة طوارئ، حرق الكتب

لو كان يرمي حصاة بيضاء كلما تقدم لما اختلطت آثار مساره. ندم يائس على احتياط وهمي : كيف يمكنه الكلام بكل سذاجة عن التقدم، عن مسار مرسوم على فضاء موحّد، مدجن، وهمي، ملاذ إغراء رفيع؛ كان ينسب لنفسه قدرات سحرية، يقبض بيده الزمن الذي تتشرّب به حياته مثل إسفنجة وزمن الكتابة، كل من الزمنين يستهدف وجود الآخر، ثم يصبحان متواجهين في حرب دامية ضروس. كان عليه أن يتمالك نفسه، كان يتعهّد بهذا عند كل محطة ! ليس أبعد من أمس. عندما كان بسطيحة المقهى الصغير، في أسفل الساعة الكبيرة، بدا له أنه وجد أرضية، من حيث كان يمكنه نسج الحكي بوضوح، وترتيب الأمور في داخله بنفس المناسبة، مع الأسف، هذا مجرد تعهد، زعم، أمنية، لم تمض إلا لحظة حتى وجد نفسه أمام دكان مُوحًا منخدعا بلألأة الطلاسم والسحر. في الواقع ـ الآن فقط يعترف بهذا ـ لم يحتط بما فيه الكفاية من ضعفه ومن عجزه عن تجاوز هذا الضعف، عن التحكم فيه، استمالته إلى صواب الأمور، كان عليه منذ الإعلان عن الأحداث، منذ ظهور تلك الرغبة الجامحة في اطلاع أفضل، كان عليه، عندما وطئت قدمه مسقط رأسه، عند سطيحة مقهى باريس، كان عليه إعلان حالة الطوارئ، حالة الطوارئ ! أجل، كان ذلك هو الحل الوحيد، موضوعيا، لاستتباب الأمن، كان عليه ارتداء زي الخدمة عوض ذلك المعطف المَاويّ، الثوري المزعوم، يأخذ بزمام الأمور : إصدار قرار بفك الارتباط، إخلاء المحاور الكبرى لإحكام مراقبتها، حبس العقلاء في بيوتهم، فرض أقسى رقابة على العبارات الحمقاء، الأفكار الناشزة، وفي الزنازن الرطبة يُرمَى بالرؤوس المجوفة الحاملة للبذرات الشريرة، بالمنحرفين،

بالهامشيين، ببناة الأحلام، القضاء فوراً على كل سراب أو ما يشبهه، اطلاق الرصاص على أدنى فتيلة لا تزال مضيئة، سكب اختلاف البشر والأشياء في قالب كوني من الرصاص المذوب، نحت الألسن من خشب صلب، محو الأوجه، استبدال الأعين بالثقب، إخضاع أدنى سرّ، أدنى تبطينة داخلية للبتر والتعقيم، كبت كل طيفِ رغبةٍ، أصغر حبة جلد، سحق وترضيض وإفناء كل لحم حي، تعرية بياض العظام السليخة، حرق الزهرة، تجريد الشجرة من أوراقها، حالة طوارئ ! كل استعراض يتخذ شكل حالة طوارئ. ما الذي كان يريده بالضبط، وهو يتظاهر بنسيان أن خلط الأجناس ممنوع منعا كليا، أن المجالات في البلدان المستقلة غيورة على استقلاليتها، أن أي اختراق للحدود من شأنه أن يشعل نيران حرب ضروس، أن التهريب العشوائي للأفكار، للطاعون في منديل من الكَاشْمِير حيلة حقيرة خسيسة. إذا كان لديه شيء يقوله في السياسة، إذا كان يريد استمالة قرائه بقصة محكمة البناء، إذا كان يطمح لصرع هذا القرن بغاية التحكم فيه عندما تلمّ به رغبة عارمة في العظمة، وجب عليه تقييد وحبس كل أشكال الهذيان، إعلان حالة الطوارئ في ذاته، إفناء العبارة في عري العنف، في انغلاقه الصارم.

ما الذي كان يريده ؟ «في الحقيقة، في الحقيقة أقول لكم» هل كان يحمل رسالة رسمية، يشهر سبابته في وجه الحشد استجلاباً للنبوة ؟ كان يعدّ كتابا بعنوان «من سماريز إلى طهران أو طريق الحلم»، كانت تضحكه مهزلة هذا الأمر، كان يضحك، يبتسم لوحده بسطيحة مقهى فرنسا حيث أتى في نهاية الزوال لانتظار صديقيه كُرِيمُو وجواد، كان قد رجع لماضيه، أرضية المقهى الخشبية، تنبعث بشكل غريب تحت قدميه، ربما كانت ستقدم مسرحا مفتوحا، ريح عاتية بشذى اللا متوقع، كان يتلذذ بذاك الانتظار، عمل، شغل، يتبسم ابتسامة ملغزة ليحد من الادعاء، ليفلت من انتباه ذاك الكناش الأحمر على ركبتيه، يحرص عليه أشد الحرص، يحميه بيديه الضاغطتين مثل كلبيْ حراسة، شهمين وشرسين، على تلك الصفحات الحبيسة يرتسم أثر حالة جوية سقط من سماء مجهولة، «سوف تنتشر ذبذبات الهزة الأرضية في شكل دوائر متراكزة انطلاقا من مركز فارس إلى أبعد البلدان» كتب هذا فيما سبق.

حرق كتب، يمسك على ركبتيه كناشه الأحمر، الأسود المُحَشّى بالأحمر، يحرسه أسدان سوداوان جباران، نيران عاتية تلهب السماء بوهج ألسنتها العالية، كانت الرؤيا قد برزت من ماض بعيد، كتب، أجساد جحودة بريئة يُقذف بها للنيران، فعل وحشي، فعل مقدس، لحظة يثبت فيها بصره، كان على قارب وسط نهر الغانج ببلدة بيناريس، هناك على الضفة المقابلة، حفل فريد من نوعه، أخشاب تحترق، جثث مطهرة من دنسها، رماد صاف يحمل بذرة حياة

متجددة، وعد بالخلود، رؤيا مختلطة، نقطة البؤرة، تَشَابكُ رغبات عدوة، تفلت منه الرؤيا، تنغلق على حمولتها، داهمته هناك، بينما كان يمسك على ركبتيه بكناشه الأسود المُحَشّى بالأحمر، بسطيحة المقهى، منتظراً جواد وكُرِيمُو، هل كان سيقذف بالطفل المخطوط في فوهة النيران لتلتهمه، كان يصارع رغبة شديدة، شيطان يمد إليه مئات المرايا السحرية، يملي عليه قرارات صارمة، أفعالاً نهائية، يضع رجله على أدراج تهوي به فجأة؛ بكل صبر يعد ناراً ضخمة، من أجل أي قربان ؟ لم يكن يعلم إنْ هُوَ كان حبيس صوت غير صوته، غريب كما كان يبدو له أحياناً، يقفز، صرخة، نداء مُدَوٍّ يخترق الفضاء، الله أكبر، من أين صدر، من أي أفق، كان جالساً مرتاحاً بسطيحة المقهى القديم، وثيقة نفيسة، قضبان كرسيه الحديدية تؤلمه في ظهره وتؤكد له بذاك حضوره، الله أكبر، على تلك الصفحات التي كتبها بذاك الخط المتشنج، المضطرب، الممزق، تمضي الصرخة مثل حريق يتنقل من هشيم لآخر، يدخل الوجه المحتجب إلى وضح النور، الله أكبر، حركة هائلة لملايين البشر، ثورة في صرامة صفاء سلبيتها، باسم الله، باسم الإسلام، الله أكبر، أجل، أنصتوا إلى هذا الهدير العاتي، رجة الكون هذه، ملايين البشر واقفون يضبطون مسيرتهم على منحنى الشمس الثابت، صدور عارية موهوبة لطهر التضحية، ركائز الجور، الدولة تتقوض تحت ضغط الحشد، أُلغِيَ الليلُ الطويل، ليل التعذيب، الألم، الاستعباد، أُقصِيَ مثل الكابوس، الأملُ يعود إلى ضوئه البازغ، أنصتوا، أنصتوا إلى هدير الرعد هذا في سماء متدنية، ثقيلة ثقل أعوام عمرها الطويل، نور منطفئ إلى الأبد، كفن تمزقه العاصفة فجأة، أنصتوا لهذه العبارة العجيبة، ذبذبة الرجة تزعزع العالم، الصرخة القوية تحرك الحشود ! الله أكبر، جواب على العنف الأصم الأبدي للغرب.

جالساً إلى سطيحة المقهى، في انتظار صديقيه، ناسياً الزمن وعذاب ذلك الكرسي الذي كان يوخز ظهره، يرسم بخط حائر ظلالاً وأضواء، على تلك الصفحات، هذا النص من صلبه، قراءته له في شرود عرضي أو بتثاقل كبير : الجسد المنتظم، جسده هو ـ لحدّ الآن كان منبوذا، محروما، غريبا، معزولا ـ يحتل النص بوحشية، يخترق القراءة، يقلب في ممره كل الحيل المبتكرة، السواقي الدقيقة المنقوشة بإحكام في رأس حسن التربية، اختلاط أحاسيس، صهيل خيل جموحة، حرارة، شفاه ضآى، نهد ثامرة، جنس عنيد، صراخ، أنين، نداءات رقيقة، فوران، انفجار، آيْلاَن كانت ملتحمة به، تضه إليها، ينحني عليها في يوم من الأيام، ولا تجرؤ على ذلك، كان مجنونا بأن ينصب لنفسه ثِراكاً كهذه، كانت هناك، تقرأ من فوق كتفه، منحنية برقة، حرارة، استرخاء، كل شيء يختلط بالفرحة الصافية، كان يكتب أشياء خطيرة، كانت الكلمات تعلوها هالة جدية المناسبات الكبيرة، لا أحد في استطاعته التنبؤ بأنه ذوات

مزدوجة شيطانية، لا أحد يعرف، حتى هو نفسه، أنه لا ينبغي تصديق ما تقوله، كان رجلا بلا خصال، بلا حدود في الواقع، لماذا محاولة فك ارتباط غير قابل للفك، كان بسطيحة ذاك المقهى العطوف الجدودي حيث يحدث في بعض الأحيان ألا يستطيع المرء الحصول على فنجان قهوة لأن الآلة لا تسخن بسرعة، كان هناك، يشد إليه أكثر عنق معطفه المَاوِيّ، هبوط في درجة الحرارة، كان هناك وكله سعادة للقاء صديقيه، والأسدُ الضاريةُ الشهمة التي كانت تحرس بشراسة مدخل الكناش الكبير تنظر إليه في دلال.

جرأة هذه القراءة، قراءة الجسد، الوقاحة الرائعة للاستفزاز ! التجرؤ أخيراً على تحدّي إشهار العراء. كان يعود لما كتبه سابقا كما لو كان يعود إلى ذاته، يختبر الجمل التي كتبها، التي صدرت من صلبه مثل مطلب ملح، يكسر نظامها، تفاوتات أطرافها المنتهية، كان ذلك القارئ المجهول القلق على الوصول إلى أبعد مما يشار إليه ويتمنع في نفس الآن، إيران، الشعب الإيراني، الثورة الإيرانية، لِمَ تلك الرجفة، الصحوة، ضوء الفجر الجديد ذاك، لِمَ إذن، مع العلم أن ذاك الأفق وتلك الأرض وأولئك الرجال كانوا غرباء عنه تماماً، كان ينظر إلى شيبه، إلى وجهه حيث نقشت السنون آثارها، ثقل وتباطؤ جسده، يفاجئ نفسه لحظة، لحظة فقط وإن كانت زائدة، في هيأة الرجل المحنّك، حكيم القبيلة، منتهى السذاجة، التورّم الغبي المدّعي، الاهتراء المهول لصيق الشيخوخة، لا، أبداً لا، لم يكن ذاك هو الوجه الذي كان يود أن يقابل به صديقيه الشابين، ليس ذاك ما يعتمل في انتظاره الحائر، ليس ذاك هو الخيط الذي ينسج باستمرار لحمة أحاديثهم: كان يكره حاملي الرسالات، لم يكن يحمل أي رسالة؛ كان يبدو له مضحكاً إن لم يكن بكل بساطة بوليسياً أن يكون للمرء ماضٍ، لم يكن يحمل حِداد موته، موت جميل يُقدّم كنموذج خطبة التأبين، مرثيات تنسج لأيامه، كانت الفكرة تبدو له مستملحة، ذات يوم، يوم القدر، لم يكن وداعا للسلام، للقوة، للمتعة، رغبة الحمار،هي هذه، تلك الطاقة التي تفور في داخله، رغبة الحمار !

«كان زغبه، في وضح الشمس الساطعة، يبدو منتوفا أكثر من الأمس.. لم يتحرك، لكنه كان حماراً آخر. من بين رجليه الآخيرتين تدلى عضو ضخم. كان اغلظ من العصا التي هددوه بها خلال الليل. خلال برهة الزمن القصيرة التي لم أكن أنظر إليه طرأ عليه تغيير هائل. لست أدري ما الذي رآه أو سمعه أو تشمّمه. لست أدري ما الذي دار برأسه، إلا أن هذا المخلوق الحقير المسنّ الضعيف، على وشك الانهيار، ولا يصلح إلا للحوارات البليدة. كان يعامل بأقسى معاملة عرفها حمار في المدينة، هذا المخلوق التافه، بلا لحم، ولا قوة، ولا حتى زغبة حقيقية، يجد في نفسه ما يكفي من

الرغبة لدرجة أنني بمجرد مشاهدته أحسست وكأنّي تحررت من الشعور بالبؤس».

بلا لحم، ولا قوة، كان يعرف أن الناس سيهزون أكتافهم احتقاراً، بلا مبالاة : ذكريات قراءات، ثم ماذا ؟ الإنعاض، القضية الكبرى ! كما لو أن كل الأمور مرجعها هو هذا، آليا، بديهيا وبلا حياء، كل الأمور تُردُّ إلى أسفل ! لم يكن يهمه هؤلاء الناس مقطبي الحجبان في حركة استنكار، تلك النظرات المريبة ريبة الرقباء، أنصار تحنيط المومياءات، كل العبارات المبتكرة للعقاب، للقصاص. مساء يوم اعتقاله كان الطقس باردا في حديقة تلك الفيلا، كان الكرسي مريحاً، صوت محرك فوق ممر الحصى، غطاء المحرك يُرفع، خيوط موصلة بالدينامو، المحرك مستمر في الدوران، خيوط توضع على الخصيتين، الصرخة المنقوشة في جرح العالم، «تكلمْ»، إنه صمت الأبدية كلها، الكلمة المجتثة رغماً عنها، الكلمة الملغاة، المبتورة، المنطفئة في الفراغ والنسيان؛ ذاك المساء، أن يكون هو الضحية أو شخص آخر، تعود إليه هذه الرؤيا أيضا، كان يرفض الانحصار في ثلوج الوهم، لم يكن يرغب في الاحتيال على نفسه، في الارتباك في متاهة التبريرات، في تشييد قبر من الرخام لنفسه، كان موسميا، مناخيا، عابد الشمس وخبز الشعير، المحراش، طالما حملته الرياح وضياء السماء، طالما امتدّت الضحكة، العبارة الحية الدافئة، انكسرت الأمواج في مدّ جارف، طالما أصدرت النيران اشعاعات النور، آيْلاَن، كانت هناك، بكفها الناعمة الرقيقة المُحَنَّاة، رغبة نباتية تلاطف جبينه، تهدئ روعه، تخمد الغليان في رأسه، يعود لذاته، لما كتبه : تغرق السماء في الأنوار، في نهاية ليل الشتاء الطويل يعلن الربيع عن ميلاده ويتردد. إيران أصبحت بعيدة أكثر من أي وقت مضى.

خفت الهدير الكبير، الفوران والهيستيريا يصدران عن عاصفة جموحة، احتد جدالنا، هذه المرآة التي ينظر فيها كل واحد إلى نفسه ويعرض صورته على الأنظار، يمّحي شيئا فشيئا في الذكرى التي أبطل فتيلها. ثورة ! ثورة ! حنين هباء. رؤيا تذكر برؤى المنجمين، تكذبها القوة بلا هوادة، تلغيها سلطة الواقع والحدث الموضوعي. منكرة، ملغاة في التواءات الرغبة التي كانت تحملها في الأصل، لكنها ترفض الخنوع في حميمية صامتة : قانون التطبيع، ذاك الذي يفرض نفسه على نظام المدن، طهران، كابول، ذاك الذي يملي ما ينبغي التفكير فيه، ذاك الذي كان يرفضه بالارتماء في تيه التجاوز، بالاندفاع وراء كل ما يدور بذهنه، فرقة جند يدفع بها إلى الهجوم قبل تحصين مؤخرتها، أطرافها على اليمين، على اليسار. تحت سماء غريبة تظلل الأرض برمّتها بكتلتها المرصصة، كان هائما في حوار فردي تعبره وتهزه نشوة غريبة. إيران، الثورة الإيرانية، أمس تَرْوَل، غدا كابول أو مكان آخر، ما الذي حدث إذن ؟ يسقط الحدث في النسيان وتصاب رغبة الحديث عنه بالعيّ، تجرد حتى

من أصدائها، مجتمع لا يعيش إلا بالإعلام، والقانون الذي يفرضه هذا الإعلام يصنع ويفسخ الحدث. مجتمع ميت، منغلق على ذاته، مفتون برؤيته النرجسية، من خلال المشهد الذي يقدسه لنفسه يغيب في الانبهار بصوره المعكوسة : الخوف، التهديد الغامض خلال فترة ما، لكن الصحو هاجَرَ أفقه. أنظرُ إليها، نفسي بشعة، بشعة تلك المحاجر الخالية من أي نظرة ! مجنون من اعتقد أنه يطرد ظلمات العَمَى، لم يحدث أي شيء. انتهى الخميني، لم يعد الشيوخ يعرقون خوفا، هو الحبور الهرم يراقص أسنانهم الاصطناعية داخل أفواههم القفرة، الضفدعة العجوز ترمّم كوارث الفتنة، على وجهها المتكمش تسطع المساحيق، ومن جديد مأتم رهيب، زفة البشاعة الرهيبة تحتضن عشاقها الشباب المتمردين بين ذراعيها اليابستين، في فرجها، انفخار جلد رطب شائخ. انتهى الأمر، انتهى الأمر ! يوم بعد يوم، تحت قبة تلك السماء الغربية المرصصة كان ينتصب حذرا، يراقب ذاك الفوران الهيستيري لكلاب الحراسة التي تعوي إنذارا بالقيامة، بليل التاريخ، بظلمات العصر الوسيط، بتعصب البربرية، بظهور الاستبداد الشرقي الدامي، كان يراقب ويحدّق في علامات تلك الضغينة العميقة العتيقة، عبارة ضخمة تتكوم في داخله، صرخة قد تفلق الصدر، الفضاء، وتحطم أبواب الليل.

ما الذي كان قد رآه ؟ تحت قدميه تتحرك الأرضية المتفاوتة لمقهى فرنسا العجوز العزيزة بشكل غريب، تأخر صديقاه، الريح الزاهية تحرك، تجر في شراعاتها البيضاء مسافرين مغامرين، ما الذي كان قد رآه ؟ يمرر أصبعاً شارداً على جبينه : انظر ! أوبيرا رائعة تنتظم أمام عينيه، وسط أوراق سمفونية مدهشة، قرون تنحدر شلاّلات بعضها فوق بعض، ديكور هائل للعوالم المتوارية، تراكم، فوضى لحظة ميلاد الكون، شطآن العدم الزاهية، أقنعة، ظلال، مخلوقات من لحم ودم تحتل مقدمة الخشبة، أنبياء، رسل، مجانين متنورون، أناس عاديون، عاديون جدا يحتلون مقدمة الخشبة، يأتون ليقولوا، ليعلنوا، ليفكوا ارتباط تاريخ لا ينتهي، لينسجوا الحلم في قماشات زاهية، ليقذفوا إلى الريح بالكلمة الشتات، الكلمة المسروقة، المسحوقة تحت السطائح، الكلمة شوكة مغروزة بجسد الساعات والأيام، لم يخترع شيئا، لم يهرب عبر متاهات اصطناعية، لم يكن ديدلوس المهندس العبقري الذي شيد الالتواءات لنفسه، هناك أمام تلك الأوبيرا، مشهد عابر، خلال لحظة وامضة، كان قد أدرك صدى تلك الصرخة المتراكمة في داخله تَراكم الانجراف، انتشار ما كان يسكت بداخله، حينئذ هدأ روعه، عاد إلى تنفّس مُنتظم، تلك الصرخة كان يراها، حاول حماية نفسه من التصدع، من الإبادة التي كانت تهدده لو ظهر على السطح، تلك الصرخة عبرته حين صدرت عن تلك الأراضي المعروفة، ملتصقة بميلاده هو، خارجة، منبجسة من عالم خانع على مدى قرون

متلاحقة، ذليل، محتقر، تائه في حبال استلاب لا نظير لـه، مفتون، مُنْتَشٍ، غارق في عبوديته، فاغر الفم، أبصاره مشدودة إلى وجه السيد وحده، هائم بين البقايا المبعثرة لصورته المكثرة. حينذاك عادت إليه عبر حضوره المتوتر تلك الرغبةُ الظمآى، بل الحائرة، مترقباً اللحظة التي ستحدث فيها قطائع في النظام، شرخ، ثقب، شيء يشبه تلك الحاجة لديه إلى الهواء عندما يلمّ به الاختناق أثناء نوبات الرّبو، ليس هناك أي قرينة، أي نقطة مرور، هذا الاقتران حدث صدفة، كان قد كتب وكل الأبواب موصدة ضد أي انفعال، أي رغبة، كلمات بدون أدنى قطعة لحم، يمكنه الاطمئنان والارتياح : ذلك الضجيج الذي كان يسمعه، تلك اللهائب المتسربة بين الشقوق، لا شيء ! كان يخضع لنظام الفصول والأفكار. قطيعة، لماذا اعطاء الامتياز لإيران ؟ لم تبدأ المغامرة في طهران. أماكن أخرى ربما عرفت نفس الامتياز. قطائع، انهيارات، تمزقات في لحمة النسيج لمْ يلاحظها أحدٌ. صدفة أو قوة إضمار. يصطدم العقل المتجبر هذه المرّة بقوة تحدٍّ يدفع به إلى حدوده، يرسم حدود قدره وساحة انحطاطه. على البصر أن يتجرأ ويتجاوز مداه، عليه ألا يتوقف عند حدود التجربة، عند فشله المحتمل. فنفيه وحده كاف كمجال للدلالات المستحيل دحضها. مغامرة العقل البشري تتخذ فجأة رنة غريبة. فهي، إنْ غامرت خارج ذاتها، خارج أرض ميلادها، اعتقدت بكونيتها، بشساعة نفوذها. والانزياح الذي يحدث من النظري إلى السياسي، من السيطرة الثقافية إلى الغزو الاستعماري، يتم دون أن يدركه أحد. الغرب الاستعماري في التاريخ، العقل، الفكر الغربي يطمئن، يقترح كونية رسالته التي زادت بعدما جُرّدت من كل حساب مادي.

يمكن لهذا العقل الاستمرار في تلقين المعرفة، العلم، التحكم في المستقبل، يمكنه الاستيلاء بكل وقاحة على تيجان الأخلاق، إفراز سموم عجوز شمطاء شريرة، قضم الجسد كما الروح، فرض وقت التنفس، الحب، التمرد، ساعة الارتقاء في السماء، قطف الورود، رفسها، إغماس الخبز في دم الحقد، ساعة يفقأ المرء مقلتيه، يخرّ منهكا، في الغبار، في صحراء قلب مخلي، في حفيف رمل الكلمات، يمكنه هذا ويمكنه ذاك، لكن فجأة يحدث الانكسار، القطيعة، الهوة، انقسام قارة تنفصل وسط زحزحة ضخمة هائلة، ها هو ذا ما كان ينتظره بحيرة ظمآى، هو ذا ما كان يحاول اكتشافه في ارهاصات الحدث، ذاك اليوم، تلك الأيام، ملايين الرجال والنساء في الشوارع يهاجمون ليل نهار وبلا هوادة دولةً، حصناً عصرياً، عبودية مزدانة بالزهور، تفنن في ترف بيُرسيبُوليسْ، الله أكبر، ما كان ذاك اليوم ليولد، ما كان ليموت، وسط الزلزال الهائل، ما كان لينعدم، يكون أو ينعدم، حياة وموت متداخلتان في البرعم ذاته.

إنك وُلدت في ليل الحكي

الله أكبر، يلاطف الآذان بجناحه الساكن هدوء وطمأنينة رقة العيش، هذا الليل الذي يتقدم مثل مركب، كان يجيل بصره من كرسيه على سطيحة «فرنسا العجوز»، أُمٌ وعجوز رقيقة، ينظر إلى انتصاب صومعة المسجد، تلك التي تطل على منزل أجداده الكبير، ذاك المساء لحسن الصدف، لم يتشوه محقن مكبر الصوت الفظيع، صوت المؤذن، كان ينظر إلى رفاقه في الرحلة، أُولئك الذين كان يكنُّ لهم نوعاً من العطف، هذه الشجرة ذات قوائم فيلٍ تقابله في الطرف الآخر من الساحة، على أوراقها الوارفة يشهد الغبار وحده على مُضِيِّ الزمن، الغرابة، الوجهِ المخضب بالغربة : كان على ظهر فيل مسرّج بصورة هائلة، يصعد متمايلا بإيقاع طويل، بطيء نحو قصر العنبر، نحو مناظر البهجة هنا وهناك، الناي يفلق الصخرة، يصدع القلب، يفتحه ثمرة موهوبة للفرحة الحازمة، تنوح القصبة على الفراق :

اسمعي يا قصبة، نواحُه
يحكي لنا الفراق
منذ أن قطعوني عن أصلي
نفَسي يثير أنين البشر،
أنا قلب تمزقه الغربة،
ليحكي آلام الرغبة.

حنين، يغني الصوت، يفكّ الرباطات، صوت مكبوت في ذاته في حميمية النور، البندير يوقع النبر بتنفسه الأصم، في بلوة جيبور كانت لازمة متقادمة هي التي تصاحب

صعوده، ذاك المساء كان النشيد الصوفي يدثره في ستائر فضفاضة، رجُلاَن، رسولان كانا هناك، في غرفة عارية، جاءا من تركيا المنسية، الناي والبندير للعزف، تبادل، تواصلات لا مُدرَكَة تروي التقاليد الصوفية منذ القرون السالفة لتلك الأراضي التي احتضنتها، في غرفة عارية حيث أقيم حفل بسيط، قبل بضع ساعات فقط، ولا يزال اللحن يكتنفه بستائره الوارفة؛ ينظر إلى صديقيه، كان جواد وكْرِيمُو قد حَضَرَا، وجهٌ عظميٌّ نحيفٌ، معطف أبيض، بقية ترف ماضٍ. طاقية فوق الرأس، كان النادل يمر بين الطاولات، سريعا مثل الرؤيا، كؤوس القهوة بالحليب الصغيرة ستأتي، لا أحد يعلم متى، إن شاء الله قريباً، قريباً إذا سخنت آلة السكب، صديقاه لحِقَا به قبل قليل، يستأنف الحديث، الكلمات تعيش قدرها الوحيد، من وسط عزلتها الحادة تنحني لتقول الصداقة، الضحكة، اللامتوقع، جسامة العيش، صراخ ينطلق فجأة، يصدر عن الساحة «كُوَاك، كُوَاك»، يتوقف الرجل الذي كان يهرول في الساحة، يقهقه، يدور حول نفسه، يعوج مثل شجرة تحترق، يطلق تلك الصرخة المنكسرة، أنصتوا إلى ما تقوله قصته، ما لا تقوله : ابن لأحد كبار القواد الاقطاعيين، مستبد مكروه في المنطقة وفي البلد، مرتبط جسدا وروحا بالحماية التي كان إحدى أدواتها ودعائمها الدامية، عرف الابن فترات من حياة الترف، كان يأتي للمدرسة في سيارة يقودها سائق ذليل، كان متكبرا، لا يصانع أحدا، يحرص على أناقة هيأته التي لم يبق منها اليوم إلا مسخٌ بشع، كان رفقة أبيه في تلك السيارة ذاتها يوم نصب له المقاومون كميناً على طريق ثانوية وسط البادية، جثة والده مخرّقة بالرصاص، هاوية عليه، طالية إياه بالدماء، نجا بمعجزة، لكن المشهد لم يبرح عن مخيلته أبداً، يهدده الجنون، بدأ يشرب. رجُل منكسر النفس، محطم، نادراً ما يعرف بضع لحظاتِ هدوء، تليها نوبات من التوتر والفوران، تنكر له ذووه، سرقه إخوته واستولوا على حصته من الإرث، غارق في البؤس لا يملك حتى حصيرا ينام عليه في بعض الأيام، لم يبق له إلا سند صديق وحيد والكلاب التي كانت تحبه، تلحق به عندما يناديها، يلقبها بأسماء أمريكية جنوبية : شيلي.

«كُوَاك، كُوَاك» تقطع الصرخة سبيل هذيان لا مفهوم. «نقطة دم تنقذ حياة».

الكفاح من أجل الاستقلال، التاريخ يختلط بأيام الحماية، تلك الأيام من الأمل الناعم الشفاف، من الوعود المستقبلية، من الشدة القاسية، من التضحيات، من الحياة المطالبة بحرارة، ذاك التاريخ، على غرار التاريخ بمفهومه المطلق، انطوى على التجريد، على الغائية المبتذلة، على اللا مبالاة المعدنية، وتبقى محنة ذاك الرجل، الفرق الصغير الذي لا يخلّف أي طية، رجال ماتوا ذاك اليوم في الأحياء الشعبية، من يتذكرهم، من سيتذكرهم !

«كْوَاك» قصة ذلك الرجل، يتحدث كْرِيمُو عنها، يحكيها في هدوء تلك الليلة التي تمضي، يقول وصوته يضطرب من الانفعال، الاستنكار، خصوصا عندما يذكر قسوة أولئك الذين تخلوا عنه، تنكروا له، كْرِيمُو هو الصديق الوحيد الذي يسعفه، يجد له مكاناً ينام فيه، يعطيه دريهمات يقتات بها.

محنة رجل، كْرِيمُو وجواد يلزمان الصمت لفترة، لحظة تأمل، فترة كانت بالنسبة إليه، بالنسبة إليهما أيضا بدون شك، فرصة لينفرج الفضاء على شساعة بلا حدود، طرف هذه اللحظة المسنون، شفرة تنغرز في لحم حيّ، كان يرى هناك احتضار الأمل وسط توجعات دامية، الأمل العنيد في مَا لمْ يعُدْ يجرؤ أحد على تسميته، يرى انتصار سلطة العنف المطلقة، رجال راكعون عند قدميه، ممزَّقون في خشوع مجنون، يتوسلون الاعتراف من تلك الإلهة بلا إله، حينئذ، ألمَّ به الدوار، اجتُثَّ من كرسيه، اقتُلع من بين أصدقائه، ابتلعه البحر، غرق في بؤبؤ الإعصار المفقوء، كل تلك الأماكن التي اعتقد أن بإمكانه الإقامة بها تنهار الواحد تلو الآخر، كان في ترول، في برشلونة، لا تَشُكُّوا في هذا، بحق السماء، ثِقُوا بهذه العبارة المحمومة، فخاتم القدر مطبوع على جبينه المتجعد، ثِقُوا به، ثِقُوا بي، لقد حدث هذا بِتْرَوْل، ببرشلونة، بمدريد، العقيد تيخيرو، البطل الشهير، يفتح سجل الذكريات العائلية، انظروا جيدا إلى هذه الصورة، عقيد في العرس المدني، واقف عند منبر الكورتيس، يهدد البرلمانيين بمسدسه، منتخبي الشعب، تمارين درامية تعرض مباشرة، أمام عدسة التلفزيون، (بالإسبانية) : «هي اخترال، انقلاب، أجل، انقلاب، لا شيء جديدا».

أجنحة الليل السوداء، وطواط تأبيني، إخراج مأتمي، مشهد، أوبّيريت، لا شيء جديدا، انقلاب... كان الملل قد أصاب الجميع وسط رمادية الجو الرتيبة، أخيرا، أخيرا، اسبانيا المأساوية، الشمس والدماء، عين كَارْمِين السوداء، مشهد للفرجة، العين ـ الكرسي تصفق مباشرة، أمس كان ببيروت بين انقاض النيران والجثث، أينما حل يشعر بالألفة، ذاكرة من الورق المقوى المعجون، عينان بلا رأس، عينان وهميتان مطروحتان على الشاشة الصغيرة، عين ميكا، من يذكر 36، من عساه ينفعل بأصداء الثورة الاسبانية، كان في تْرَوْل، في برشلونة، في مدريد. في الواقع كان يوم 17 يوليوز بـ «لاسْ سِينْكُودِي لاَتَارْتِي»، على أبواب مليلية، فِرق من الجيش تداهم المدينة بخيولها «إذا كان السادة يريدون دخول المدينة فلا خوف عليهم، والاضطرابات القليلة بجهة الميناء ستنتهي بسرعة»، يتوجه الضابط بطيبوبة إلى السادة، يحدثهم منحنيا من فوق جواده، كان الشباب، وهو بالخصوص، على حافة عالم لم يكونوا ليتنبأوا به، منهمكين في لذة نزهتهم، كان اليوم ربما يوم جمعة، لا شيء من شأنه أن

ينال من بهجة وصفاء تلك السماء، سطاعة تلك الشمس، رقة أنثوية لنور حممي، حدث ذلك في يوم مّا من ذلك الشهر، تلك السنة التي لا تاريخ لها، السنة المودعة لذاكرة التاريخ الموضوعي التي لا تهون، في أي يوم تعب مكدر، تحت أي سماء شاحبة من الورق المقوى الوسخ كنا نعيش عندما أعلِن الخبر واحتل مقدمة الأخبار مؤقتا، كان الجيش الأحمر بكابول، عودة «ثوار» فيكتور سيدرج، أي فرصة محتالة أو صدفة عابرة، لماذا إعادة كابول ؟ أي تساهل عجيب عندما يخلط المرء التاريخيّ بالروائيّ ويتخذه مرجعاً، عندما يخلط السياسة بالإبداع الأدبي، إنكم يا سيدي تنسون أن عصرنا متشدد في احترام الحدود، لكن فقط عندما يتعلق الأمر بنتاج الذهن.

خيط خفي يجري إلى لقاء خيوط أخرى ونسج لحمة هائلة : ستيفن سْتِيرن التروتسكي يُخْتَطف ببرشلونة. لا أحد قرر هذا ورغم ذلك سيعدم. نور قوي يسطع فجأة على أولى ارتعاشات مأساة تتخذ شكلها. ميلاد الحدث الذي يدبره رجال ضد رجال وراء ظهر الرجال، حتمية خرقاء، تحدٌّ للعقل «تولد المذنبات ليلا» : مساء يوم من أيام فبراير في موسكو الثاوية تحت الثلوج، رجل يطلق الرصاص على مسؤول في اللجنة المركزية ويرديه قتيلا، جريمة دون سابق إصرار، دون سبب بيّن، إنها «قضية تولاييف»، المحاكمات الكبرى بموسكو، الستالينية، كابول ! تسحق الدبابات الذاكرة، الأعين الوهمية المعلقة بالصورة الصغيرة، عَميٌ : تتحرك الآلة الكبرى لكل الأزمنة، الحزب، تتحرك الثورة في تسام جنوني، في سيناريو الأشباح، تنصب السلطة البوليسية نفسها كمطلق في كل مكان وفي لا مكان، تتنقل بلا هوية من ملفات إلى ملفات، تسحق الرجال، الظن يقضم أخلاق الثورة النبيلة، أسمى عبارات الفوران الثوري تتشوه وتعلن عن الكذب، وغابت الحياة عن سماء الأفكار الكبرى، فرانكو يحتضر ويُدَنْدِنُ الجند ببعض أبيات من نشيد «التِّيرْسْيُو»، «لي موعد مع خطيبتي الموت !» كليشي قديم، نشيد قديم للمرتزقة، والصوت الحقيقي المأساوي، ذاك الذي يصيب الحماس الثوري، يكسر الأمل مثل دمية مفككة، قبل أربعين سنة، تتشوه الكلمات، في أقبية التاريخ، يتوقف عند هذه الصورة، تغريه الكلمة في غشائها الصوتي العجيب، «كَافَارْنُوم»، اسم مدينة فلسطينية، «ودخل المسيح إلى كافارنوم وتجمع في البيت الذي نزل به حشد كبير بحيث لم يعد هناك مكان في الغرفة»، انزلاق، تدهور، فساد، فساد المكان، الكلمة النبوية، في الفوضى، الغموض، التفاهة، العبث، الحسابات الدامية الخسيسة، قرر الوقوف عند هذا الحدّ، أصبح الوقت متأخراً، ساعة متأخرة من الليل، من الحياة، ألم به الجوع، إنه راجع من سفر

طويل، منهك القوى، على وشك الانهيار، ألم به الجوع، نهض واقفا وقال لصديقيه الشابين : هيا بنا نأكل كَبَاب.

كان الوقت متأخرا، في عز الليل، هبة حياة، لا توجد في أي مكان في العالم، تحت أي سماء. نصب الجزار طاولة، وكانوناً مستطيلا تحترق فيه بضعة جمرات. قطع قطعا صغيْرة من القلب والكبد، ثم صفّفها في أسلاك كباب، وضع هذه الأخيرة على الجمر، يتصاعد الدخان دوائر متقطعة، يطقطق الشحم على النار، تتساقط قطرات الدهن متفاوتة، مساعد الجزار، صديق يزند النار، مروحة الدوم المظفور تتحرك على أنماط مختلفة، ضربات جناح لا تراها، مشهد للجبروت، يد خاضعة تبعد عنه الذباب والحر المزعج، مساعد الجزار أو مجرد صديق يشطر خبزاً لا يزال ساخنا إلى شطرين بمدية الجزار الكبيرة، المدية القاتلة، يضع كباب وسط الخبز، ستة أليس كذلك، ستة ياك آسِيدِي، حركة عزف على الكمان، يد تغطس في علبة مصبرات فارغة، ملح، كمّون، يد تمتد وتطلي الدراهم بالأحمر، دم اللحم النيء، الجزار يضع النقود في الجرور، يشكر الرجل، الرجال، الله... الرجال صامتون ينتظرون دورهم بصبر، رجل عارٍ يرتدي أكياس الخيش المخيطة، ستر عورة ليس إلا، قدم حافية، شعر مشعث، وجه منحوت من تربة قاسية سوداء، عينان كفضاء واسع جميل، ينتظر دون تسوّل، هو الصمت في عز الليل، من حين لآخر طقوس التحية، الطلب والعرض، من حين لآخر حوار مهموس، ضحكة خفيفة، كُرِيمُو يمزح، جواد جدّي، يدخل في صمت عميق يجول عبر غيابه وحضوره العذب، ثلاثتهم واقفون على حافة الرصيف يأكلون كُلاً نصف قرص خبز محشو بقطع صغيرة من القلب والكبد، من حين لآخر كلاب شاردة جاثمة تنتظر أو تدور حول الزبائن في إلحاح، تتلقى أحيانا قطعة شحم مستعصية الهضم، جناح المروحة الخفيف لإزناد النار، للتعزيم على الهروب والصدفة، لطرد الذباب، الجناح : ملاطفة بيديها الطويلتين الرقيقتين، رغبة يكتنفها الجنون الداكن واللهائب الحمراء، آيْلاَن ! حنّاء لزفة محتشمة، أوراق يابسة، حنّاء مسحوقة، شيء من الشَّبِّ، من الحامض، من الفلفل السوداني، مقادير دقيقة، كان قد أخذ الوصفة عن للاَّ السَّعْدية، تلك المرأة الخبيرة في المعرفة، في الكفاءات الحميمية، في الاعترافات المهمة، هل كانت تعرف أغرودة الحب التي تولد في تلك الأيدي التي تغطيها بطبقة رقيقة بواسطة طرف عود القصب، يَدَا آيْلاَن تمسك بعضوه وتضغط عليه مثل نداء صادر عن الأعماق، أغنية الحبور تتصاعد في داخله متذبذبة، تغطيها الأمواج، الحرارة، النور، الفرحة، الصدر، القلب مخلوق، آيْلاَن تنظر إليه متجهمة، أميرة ميتة، فجأة خَجِل من لا حيائه، خجل من الكتابة، دار نحو صديقيه، هل لاَحَظَا اضطرابه، كُرِيمُو يضحك، يذكر

غرامياته، كانت رابعة تأتي إليه مدثرة في حايكها الصوفي البني، تكاد تبلغ الثامنة عشرة. حديثة الزواج، هاجر الزوج إلى السعودية، إغراء شغل مضمون، عقدة مهمة، المال السعودي، كنوز الواقواق، رابعة ! من يستطيع التغني ببهاء جمالها، تحجبها في نخوة داخل طيات حايكها، كُريمُو، وحده، وحده في العالم الذي رأى تلك الثمرة البضة المحاطة بالخبز المحروق، علامة لا تخدع، علامة الآلهة، مهجته تسيح، كُريمُو يتحدث عنها بحماس حار، غادرها لتوه، كما لو كان يحلم بسعادة مستحيلة، كانت ستأتي في عذوبة حلم، وعدت بذلك عند منعرج زقاق، كانت ستأتي بعد الحمام حسب عادة عشق تتفنن في تأخيره، كُريمُو طار عقله، يكسر الجدران، يندفع كالبرق إلى الحمام، يكتشفها في عريها، في سرّ جسدها، شعرها، نهداها الصلبان كَرَمَانتيْن، كُريمُو يومئ بكفّ يده، يستوحي العذوبة، الشكل، الأطراف الناعمة لأنوثتها، وردة تتفتح بالكاد، كُريمُو يرتمي عليها، يعض في البيض المسلوق الذي أتت به لتقتات عند خروجها من الحمام، كُريمُو يسبح في هذيان الحمى والثمالة، يتخيل ليوهم استعجاله، عتبة غرفة كُريمُو الصغيرة على سطيحة منزل قابع في إحدى الدروب الضيقة، إذاك اهتزت الأرض بصرخة رغبة حادة طويلة، مشتهاة، بعشق شبق عارم يلهب الأحاسيس، رابعة تمزق سرّ حايكها، تخلع ستار التقاليد : «حُوتَا، حُوتَا»، يردد كُريمُو، سمكة، تتواثب في اضطراب مياهها الحية، في الأمواج المتصاعدة لغزو سماء اللذة، خيول النار تطفو عليه، تتركه على الضفة سعيداً، منهكا، يحلق كُريمُو، قدماه لم تعودا تمسان صلابة الرصيف، جواد مرح، يشاكسه : «إنك تعيش دوماً بين عالمين، بناتنا اليوم تخلّيْن عن الحايك، إنهن يرتدين سراويل الدُجين، لا يذهبن إلى الحمام قبل...» يتوقف محتشماً، يفكر في سعاد، لا يريد أن يقول شيئا عنها، ولا عن عشقه إياها، يمضي الليل نحو أعماقه، وبعد قليل سيندثر في ضياءات الفجر، هو أيضا ربما : لقاء لا متوقع، حديث، إيقاعات حياة لا تُستوعب من بدايتها أو عند نهايتها.

يقضي الزمن على الحدث. الرمال ابتلعت الدم، أحزان البشر : من يتجرأ على الحديث، من لا يزال يتحدث عما حدث إلا في امحاء ولا مبالاة الذكرى. كان باستطاعته عدّ الأيام، اتخاذ مذكرة كاذبة : اعتقد ذاك الصباح أنه سيبدأ الحكي، كان في الحديقة، الغرفة تنفتح على الرواق، الأعمدة، الجنينة الداخلية، السماء قطعة من صفاء، كان يحمله هدير البحر العتي، غناء الطيور المستيقظة في جنون، بهجة ذاك المولد، مولده هو، مولد العالم، كان جالسا عند طاولة العمل، طاولة صديقه الفنان، لوحة على المحمل، فرشاوات، علب صباغة، أنابيب، قطع طباشير، طاولة موضع ميلاد عالم سحري، يفتح كناشه الصيني الأحمر المقطع

في قماشة سوداء، ظن ذاك الصباح أنه سيبدأ الحكي، سذاجة ! ثقة مبالغ فيها، غلط في غلط، ربما السبب هو الأصوات، كان يقول في نفسه في البداية، كما نقدّم رجلا في حذر : كتاب قديم ينفتح فجأة على بياض تلك الصفحة التي كان يعتقدها خالية من كل أثر : قصة قديمة تركت في مجراها أدلة، آثاراً، بياضات صمت، لم يكن يخترع شيئا، يقرأ أي دليل، كان يجهل القراءة، وتلك إحدى سعاداته النادرة، كان يصغي فقط، ينتظر ما تكشف عنه النهايات: كان بوسعه اتخاذ يومية سفر، حبس شذى الأيام في قوارير صغيرة، رحيق الساعات النفيس، سعيداً سعادة ناصر، ذاك الشاب بائع العطور في دكانه الصغير ببزار القاهرة، خان الخليلي، هو الذي ترك قليلا من العنبر يسقط بعشق على يد الأجنبية الشابة، ليجرب فقط، شبق حبيس، عطر قوي، فلفل سوداني، حامض، قرنفل، صندل، عود القماري، كان باستطاعته ذلك لكنه من جديد يسقط على الهامش، مجروراً في انحداره، شيء واحد يطفو من بين الأشياء الأخرى : كان آتيا من تلك الأماكن حيث انطفأ عطر الحياة، رئتاه الجافتان تتوقان إلى هبة ريح نقية، لطافة جوّ ذاك الصباح بحديقة الرياض تحفزه على الحياة، الكتابة، تنبعث الرغبة من بين الأنقاض، كان يسرع، يتقدم بسرور حازم مطمئن في ذاك الشغل البطيء الجليل، لا يظهر جوهره الدقيق، شغل ذاك التمرّد الداخلي، التمرّد الذي قد يكون كفيلاً وحده بإنقاذ حظوظه في الحياة، أجل قد يكون قد عهد لكناشه بالسرّ، تذكروا واسمحوا له هذا النوع من الادّعاء : كان يحب الإحالة على كتاباته أحيانا، سجّلٌ كشيء حاصل أو مأمول : «الكتابة تمر بكل جرأة عبر الابتذال اليومي للوجوه البشرية التي تترك بصماتها على الزمن والحدث. إنها تخرق الاصطناع، التورم. تتجرأ على قول ما يسكت عنه في حياء : صرخة فكر حر مرتبك في دواليب خدعة بوليسية، هذه الصرخة الصادرة عن رجل يقوده رفاقه إلى المشنقة. أنا، يا رفاقي، أحب الحياة، الحقيقة الجديدة لكليشي لحظة الموت. انظروا إذن : البطل يُصنع من عجينة الإنسان العادي، البطولة ليست إلا صنيعة ما بعد الموت، حجاب ملتبس يُلْقَى على الكثير من الجبن والتلاعبات الخادعة. الإنسان العادي في قوة حضوره ! هذا كل ما في الأمر وليس شيئا آخر». ما يقوله لنفسه، ما يكتبه، زمن الكتابة، زمن الحياة، حياته هو، ما بين الاثنين تتسع الهوّة، الاصطناع، إلى أين ستذهب به نداءات تلك الأصوات الملحة ؟

إنك متأخر بمائة عام، ألف عام، ملتصق بعسل الماضي مثل ذبابة عنيدة، متورط في حنين عضال، تلدُ بلداً خياليا، ترضعه من ألبان السراب، من هوس الرغبة متعامياً كلية عن جديد الزمن الحاضر، تهيم في ذاتك على أسوار «الصقالا» تلك، مقابل البحر الفاتن، بحرارة تحتفي بالزواج المدهش بين المدينة والمحيط، مدينة ميتة محنطة كما كانت في ماضيها،

جثة أميرة مزينة بأشعارها المأتمية، حنين إلى ما يوقظه جمالها، إلى عظمتها المختفية، وجدانية لمجد تناقضاتها، هنا تشهد تغيرات السماء، اختلاف الساعات، انظرْ، فالنظرة تتحول مثل المدينة نفسها، وانظرْ إلى أنوار المغيب، ليلة صاحية، لمعان اليوم، انهيار في الأفق، رسول الفجر، سلطان الموت الذي يفتح أبواب السماء، مناطق متميزة تستقبل رجفة الإرهاص، وأنت هنا تلغي نفسك في نفسك : ثمة رجفة عابرة وسط صمت تقطعه بين الفينة والأخرى صرخات النوارس، أوج انفعال سرعان ما ينكسر ويَمحي في عظمة البحر وهديره، لا شيء يمكنه أن يرجع بك إلى حقارة الندم، إلى حفيف العالم، إنك هنا، وبكل جنون تريد اجتلاب صورة العاشق المتيم، مثلما حاول الآخر اختلاس لهيب السماء، المجذوب العاشق المتيم ! حيلة، لعبة مرايا تكفكف زبداً عارضاً، خدعة حقيرة كانت ستغلق من حولك فخّها : في أسفل الأسوار ألسن نيران الجحيم، لهائب عالية تصدر عن عالم يحترق من الجنون، متأخر بمائة عام أنت، بألف عام، تندثر لفرط المبالغة، تختنق لشدة عناق الأحلام الحار، لا تعرف يقيناً إن كانت فكرة أو امرأة، في سن العشرين أصبحت ثوريّاً محترفاً لأنك شاهدت على رأس مظاهرة فاتح ماي فتاة جميلة تحمل علماً أحمر برّاقاً. لا تكف عن ترديد روايات حب لأميرة حائرة، تكنّ لها عشقاً ليلياً، غسقياً، غيرة شرسة، تبني لها القصور، تضع عند قدميها كنوزاً خيالية، غريب أنت عن هذا البلد كما أصبحت غريباً عن بلدان أخرى، ضالتك المنفى، ها أنت متشقق، ملتهم من قِبَل خرافات ربَّيْتَها بين يديك، راعي الخرافات أنت، راعي الكلمات كما كنت تحبّذ أن تقول، ولكنك تنسى هذا وتصغي السمع للأصوات الملحّة كما لو كنت أنت ممرّها، صداها، الريح، صوت الطوراق تقلب وترفرف في الريح أوراق ذاك الكتاب، الكتاب الفريد، ضياع جوهر : برج الرياح، ذاك الذي كان ينتصب فوق الهضبة القريبة من بيت طفولتك، ضياع جوهر، وعوض التأثر لهذا الأمر ها أنت تمجد الفراغ، الصحراء، والحياةَ أخيراً مجردة مما يثقلها، إنك متأخر بمائة عام، بألف عام، لكن لمن تدق الساعة المانشيستيرية القديمة، تلك المعلقة داخل المعبد القفر، تلك المعلقة في الحجرة العالية في الماضي، جنب الكنيسة الاسبانية، في بيت جدّتك، أنت وُلدت مساء عيد الفصح، كانت أشجار البرتقال قد أزهرت، «الحكّادة»، الحكاية، ولدتَ في ليل الحكي، دوران الرياح، نفخ الأبدية، يبدو أنه كانت هناك بعيداً، بعيداً جداً، حرب كبيرة لن ترى منها إلا صوراً معادة التركيب، أرائك، كنابة، رفوف من خيزران جافا، غنيمة من بيت قنصل ألمانيا، ضوء نشيط، ربيع، شمس، برعم ميموزا مغروس في قلبك، فتحت باباً على الحديقة، فتحت عينيك على البحر، على بياض المنازل، على الهضاب، مغرم وحالم تسير ممتطيا حماراً، تخترق أبواب

المدينة، بين أفران الخزف، الحدائق، البساتين، في مجرى ونهر مرعب، كان وبَرُ الحمار دافئاً ناعماً، عطوفاً، متواطئاً، حسنٌ، الخادمُ، إذ لم تكن هناك خادمة، يحرص عليك، كنت الطفلَ اليهوديَّ الذي ختن مرتين، مرة أولى افتتاحية على يد عم شيخ ضعيف البصر، زاهد مولع بالويسكي، والمرة الثانية بيديك أنت عندما كنت تلعب برزنامة تعلق كلاّبها الحديدي بغرلة عضوك فجرحته، حملوك ودماؤك تسيل نحو رجل العلم أدُولْفُو أُسْتِيرُو الصيدلي الحكيم، مدمى مثل خروف موهوب قرباناً، كان عمرك إذاك ألف سنة، من قال إنك متأخر ! إنك ولدت في ليل الحكْي، تلك كانت مشيئة النجوم، احتفظت النجوم بسرّ ميلادك أنت، الإبن البكر، كان من الممكن أن تموت على عتبة البيت، عند ميلادك كانوا سيرسمون علامة القربان، لكن السلم كان مخيما، والبشر قرروا غير هذا. قبل ألف سنة ولدت في ليل الحكْي، كتاب مفتوح، وهذا ليس بالهين، هناك من يعرض هذا لكنه يخفيه : ها أنت ملتصق إلى الأبد بغسل الماضي، بعذوبة الكلمة الموحدة، انزلْ عبر السلم العريض ذي الأدراج المتقادمة، انزلْ عبر أسوار «الصقالا» نحو المدينة، نحو الهدير العنيف، نحو صخب العالم.

تحت نار حفلة طجين فاخرة

إنك متأخر، ترفض رؤية ما يحيط بك، هذا البلد الجديد الذي كنت تعتقد معرفته، ما كان يقوله لنفسه، ما كان يعتقد أن جواد وأصدقاءه سيقولون له، ما كان يقوله لنفسه هامساً في تخفٍّ، ذاك المساء كان مدعواً لسهرة فاخرة، عشية ذاك اليوم كان قد غادر «المدينة المنسية» : فتحة صغيرة، كان قد أدخل صورتها في قلبه ثم شده عليها، يقف الآن على هضبة أَنْفَا، معقل الثروة والنجاح الباهر الوَقْع، كانت السهرة ستقام في فيلا «سَتَرى، إنه قصر»، الصوت الدليل يهمس في إعجاب، لم يُهمَلْ شيءٌ، أسقفة منقوشة، زليج، رخام، صالون مغربي، أرائك محاطة بالخشب الفاخر على مدار الغرفة، صواني فضية مرتبة على شكل هرمي، حفاظاً على التقاليد، انتقال نحو الحداثة الفظة بدون قطيعة، غرفة تقليدية، قاعة الاستقبال مباشرة بعد الأُولى، أرائك من الجلد، طاولة منحدرة من الزجاج المضبب على قوائم من الفولاذ، موكيت، أميرة الذوق الطلائعي، إنارة خافتة، جهاز هِي فِي، لُعب، لم يغفل القائم على الديكور والتصميم أدنى شيء، حتى الكأس البلورية الموضوعةِ على طرف من الطاولة، سهرة لذيذة، عذبة، نساء جميلات، فاتنات يستدرجْنَ للحلم، أناقة رقيقة، رواية، حديقة عابقه بشذى فن إغراء جديد، استمالة القلوب، غرام، كنٌّ هناك فتيات، فتوة حرية حديثة المولد، كنٌّ هناك عطوفات، رقيقات، ذكيات، جريئات، كانت هشة، «ضائعة»، محمولة على سحابة الدخان المنتشية، كنٌّ «لُبؤَات» غازيات، عسْليات، متبرجات، كان يتلذذ بجرعات صغيرة من إكسير الحياة، الحضور النسائي. سهرة معقدة البهجة، رجال جميلون، جميلون جداً، أناقة رقيقة، ذكوريون، مؤنثون، ذكورية مؤنثة عجيبة، رقة ملامح، عذوبة وعنف معتدل، كان هناك الرجال مختلفون، مترنحون، شبان، شيوخ، نشطون، أذكياء مغربون، حالمون، مثقفون،

رقيقون، غزاة، مستكشفون لأراضي مجهولة، أبناء مُسْتَرْجَعُون، قلوب فولاذية، جبائن جريئة، يلهبهم صفاء صارم، مزاح خفيف مرح، عقول عملية مترددة الثقل، نفس الخطاب لأمسية استعراضية، كان هناك جامعيون، أطباء، محامون، خبراء في اليونسكو، انطلقوا من لا شيء، أنصاف آلهة، تقنقراطيون حملة المستقبل، الأسر الكبيرة، الانتهازيون، «أبوه كان يبيع الفول السوداني، أبوه كان بُلاَيْغِي، أبوه كان خماساً، أبوه كان بناءً، لكن بفضل الله، الحمد لله...» سهرة بهيجة، ويسكي، كوكا، رمضان ولّى، حبُور، ضحكات متوالية، طقطقة الأحاديث، جمل متقطعة، نيازك تخترق الفضاء : «لقد سافروا صباح اليوم إلى طُورِيمُولِينُوس، سيارتان، كل الأسرة»، «أمينة رجعت أمس، لا لم تكن تعلم، أجل، مع زوجها، كانا في باريس، كالعادة، التخفيضات»، «الحاج، مريض مسكين، لقد نادوا على كبار الأطباء، ربما سيحملونه إلى باريس»، طجين يُتناول على الطريقة الغربية، شيء جميل وعصري «خذ صحناً وتناول الطعام»، صحن، نفس الصحن للبسْطِيلة، الكسكس، الكبد المشرمل، الدجاج بالبرقوق، لحم الخروف «كَمَامَا»، السمك المشوي، طجين الملوخية، ملذّات، فضيحة، خليط أرعن : ذوق عصري جرّيء، وسكي ـ كوكا، بخار، تبرق العيون، ضحكات حادّة، دماغات مضببة شيئا ما، سلسلة تتفكك، حال، فقير لاهث للطبول والأجساد، رجال ونساء يرقصون، حفلة راقصة، كَناوة، شبق، نسيم خفيف يتحول إلى عاصفة، بعض الحرير، يمزق القفاطن، يسري مثل اللهيب على الأجساد الرقيقة، البضة، المعطرة، خبز، رمل محروق، يصطك تحت الأسنان النهمة، خفة مرحة، حوار جدي، يحاول الانتشال من الأرائك الرخوة، خليط من الإنجليزية والفرنسية، «تعرف، الشيعة ملحدون، كفرة بالله، مرتدّون»، انصهار ثقافة دولية، السوربون، الأزهر، هارفارد، حوار جدي يحاول الانتشال من نعومة الارتخاء : «قرون من التأخر عن الغرب، أبدا لن نتمكن من تداركهم، يكفي اعتبار الكسل، مستحيل الالتزام بموعد، الوصول في الوقت المحدد، يكفي اعتبار الصحف، الكتب، مثقفونا فراغ، هذه الثورات، هذه الفوضى لا تجدي في شيء»، قطعة الثلج في كأس الويسكي لخبير اليونسكو، وزير قابِلٌ للتوْزِير، عاد مؤخراً، اكتسب خبرة دولية، يعرف خبايا الأمور «وعي سلبي، سيدتي العزيزة»، موسيقى، موسيقى، لفافة الحشيش تتنقل خفية من فم إلى فم، هبة هروب، «كان الأطفال يدخنون بمدينة مراكش، في إحدى المقاهي التي تُقدم عصير الفواكه، يدمنون على المخدرات إلى أن غرق رب المقهى في دوامة الحشيش، هكذا، صاحب المقهى شاب، في 63، تتذكر المؤامرة الأولى، ربما لم تكن الأولى، اعتقل لأنه كان اتحادياً، متياساً إلى حدّ ما، وبالتالي لم يكن في وسعه تقديم النصيحة لأولئك الأطفال، وتجنباً للمشاكل قرر إغلاق المقهى، هكذا»، سهرة

بهيجة، ملؤها الحرارة والنشوة، رقيقة جدا، صداقة غرام «أهلاً، أهلاً، مرحباً، مرحباً»، صوت يردد فرحة اللقيا، خفقان القلب، وتيرة صاء، نقر طبل يلتهم قشرة الزمن، يتصاعد الماضي، موجة عارمة، ليل متأخر، خادمات، عادة لم تندثر، «الجوهرة السوداء»، أمَةٌ حرة مكتملة الحسن، خادمات يحملن الأطباق، بقايا المأدبة. فتات الماضي، ذكريات مبتلعة في تلذذ «مسألة تربية، يا صديقي العزيز، الديمقراطية مسألة تربية، هؤلاء الأطفال الذين تتحدث عنهم، المخدرات، كل هذا إذا لم يكن الشعب مربى، فلن يخرج منه إلا التوحش كما ترى»، خبير اليونسكو يصارع لامبالاة الأرائك، قهقهات الحفلة، يعرف خبايا الأمور، حصلت له خبرة دولية، لقد عاد مؤخراً من آخر لقاء في دلهي الجديدة تحت إشراف اليونسكو، أخذت منه إحدى الخادمات صحنه نصف فارغ، قطعة جملة، عظم دجاج، حبات كسكس، عظمة سمك، قطع، يضيع الصوت، نظرته تتوقف، هائل، الجوهرة السوداء، في فوقيتها الطويلة الملقاة مثل خِمَار فوق قفطانها، ذراعان مشدودان بخيط صدري، معصمان عاريان، رخام أسود، ناعم حريري، رغبة صافية صفاء الماس الأسود، تتقدم امْبَارْكَة، الجوهرة السوداء، فوق خيط نور دقيق، بين المدعوين، بشهامة، وإباء، مبتسمة تتقدم حافية القدمين، انحناءات سوداء لماعة مكتملة الرسم، تلقي نظرتها، تبتسم له، احمرار قانٍ، صوت الغِيطَة النحاسي في ليلة رائعة، رأسه الثمل يتدحرج داخل بئر يُدوي : كان أميراً في تلك الحديقة، على حافة حوض الماء حيث ينعكس بهاؤها في طيات الحلم، كانت تفرغ حسرتها حبة حبة، أمير خاضع، كان تائها في عباب شعرها، عضة، ثمرة حمراء مشقوقة، حبة رمان، حبة دم، عضوه المتوتر يمزق الحزن، يدخل في مجد النحاس البراق، أمير مبجل يسحق بين أصبعيه صدفة الزهرة المقطوفة، أمير «إقطاعي» ألقى بتلك الحجرة ! مندهشاً، مفاجئاً، ينظر من حوله، كانت الحفلة في أوجها، الموسيقى، كل الموسيقات : نشوة، خفوت في الأحاديث الجانبية، اختلاط الحوارات الصغيرة، النميمات، همسات غرامية، إيحائية، شبِقَة ! شمس ـ أرْيَان، بأي حب جريح، مرهقة، فاتنة، ساحرة «أموت مللاً، أموت مللاً» يتمدد الصوت المحتضر فوق الحروف «فعلت كل شيء، باريس، الدراسة، نيويورك»، شمس ـ أريان أي حب جريح انهال عليك، صغيرتي «بالفعل إني أتابع تحليلا نفسيا عند أحد اتباع لاكَان»، بلغ الجواب مسامع المرشدة، تلك المرأة الناضجة، المطلعة على أمور النخبة الباريسية، سهرة طجين ناجحة، يتعثر الحديث الجدي ويشق طريقه بصعوبة وسط الضباب. «اسمعني»، الحاج عبد الرحمن رجل شاب، ليس شيخا ملتحياً ولا زاهداً منافقاً، اقتصر على عصير الفواكه وكوكا، «اسمعني»، يجذب جاره من الذراع «في البداية كنت متعاطفا مع الخميني، لم أرد الانزلاق وراء كل التهم الموجهة

للشيعة، كنت أعتقد أن هناك دعوة لشيء جديد، لكن للأسف أصبحت الأمور فظيعة، كل هذه الدماء، هذا الجنون الدموي، غير صحيح، لا علاقة لهذا مع الإسلام، كل هذه الإعدامات، هذا التطرف، الله يحفظنا من هذه المصيبة»، يخرج الشاب الذي لم يقل شيئا طوال الأمسية عن صمته «ثورة تحتضر في آلام حلمها الدفين، إنه منطق كل الثورات». الله يحفظ ! عملية سطو : عصابة بسراويل الدجين وأقنعة تهجم على العرس البيضاوي الكبير «ارفعوا أيديكم، لا أحد يتحرك»، نبرة حادة، بلا رحمة، استولوا على ما يساوي المليار : أحزمة ذهبية وفضية لسيدات الزمن الحاضر، ويلي، ويلي، من ابتكر هذا السيناريو، انعدام الأمن في عاصمة العنف هذه أصبح مرعبا، ظلال قلق سرعان ما تمضي، إنها الحفلة، نهاية مشهد، يبزغ الفجر، هدير البحر في البعيد يغطي الرؤوس، الأجساد متعبة، منهكة، متناعسة بين أعقاب السجائر المسحوقة، أطراف أحلام غير مكتملة، شعَرَ ببعض البرودة، كان لا يحب أن يسهر إلى وقت متأخر، نهض ليذهب إلى الفراش، كان يحتاج لغرفة خالية، فراشاً بسيطاً، كان سيدخل إلى ذلك المنزل الذي اكتراه لبعض الوقت، الشارع في الخارج هادئ تحف به بيوت بيضاء إنسانية، في هدوء فاجأ نفسه وهو يهمس : «هنا تكمن الحياة».

فاجأ نفسه متلبساً بحالة استنساخ، تمرد على النظام الأرضي للأشياء : ذلك الشارع الهادئ المرصف بأحجار البحر، المحفوف بالبيوت البيضاء، مشهد آخر انزلق في داخله، خارج ذاته، مدينة أخرى من تلك المدن التوائم، تلك التي كان منتخبها، هو وحده، الأناني الغيور الذي يعرف كيف يسمع أصواتها السرية، كيف يكتشف تآلفاتها الحميمة.

تنحدر السيارة من مرتفعات هضبة أَنْفَا، تعبر وسط صحراء الليل شوارع عريضة محفوفة بفيلات فاخرة تحت أنوار الأعمدة المطلة من فوق أشجار النخيل، الغرنوقي والخبيزة المغروسة على الرصيف الأوسط، تمضي السيارة وبدون مرحلة انتقالية وجد نفسه وسط الأحياء الشعبية.

وجد صعوبة كبيرة ليتعرف على المكان، كانت المدينة قد انفجرت بشكل هائل مثل حريق عارم التهمت الفضاء وضت في فوهتها المفتوحة مئات الآلاف من البشر. أصابه الخوف، خوف مبهم، لم يعد يتعرف على الأماكن، حياته، معظم حياته، جسد حي مرتبط بكل شرايينه إلى هذه الأماكن، حياته تفلت منه، تفيض من كل جهة، تتفرقع في وجهه بعنف مرآة مكسرة، كان مسحوقاً، مُحَوّلاً إلى غبار، آلاف الشظايا، فجأة ألمّ به نوع من الجنون، انتشله من مقعده بما يشبه الهذيان، يسري في داخله مثل نشيد صادر عن أعماق الأرض : كان هو السيد صاحب السلطان، إنه سيغلق هذه المدينة مثلما يُغْلَق كتاب، يعطيها عنواناً،

يرسم لها مصيراً، فِعلٌ جريء، جبروت، يُخضع صفحة صفحة لضياء الحكي، الشفافية، الفوضى التي تهز رأسه وقلبه. تسليط الأضواء على الخشبة، على مقدمة المسرح كما لو أن الأنوار ستنبجس وتضيء حيوات لن يتحدث عنها أبداً، تمضي السيارة، يتمالك نفسه بعض الشيء، يمكنه الآن تسمية الأحياء المُخترَقَة، هناك بالضبط حيث جرت الأحداث، محاور كبيرة تنفتح، هندسة المنازل القاسية، مكعبات مصففة في غالب الأحيان على طابقين، في هذه الساعة من الليل كان البحر البشري في حالة جزر، والسيارة تتقدم، في كل لحظة كان من المحتمل أن تنفجر إعصارات الذكريات فوق رأسه، ألمّ به الخوف، لم يكن يدري لماذا : لم يكن يقوى على تمييز أي شيء بدقة، لا تبعث أي ذكرى على التلذذ وعلى الحنين، لا تصمد أي ذكرى أمام الضوء، تخترع المدينة نفسها، تعيد اختراعه في كل لحظة بسرعة هزة أرضية، بطن إخصاب هائل، مواليد تُحصَى بالملايين، رجال، ذرات مجهولة مشحونة حرارة وقوة، كان قد ازداد مع هذه المدينة، كان في استطاعته التحكم في تلك الطفولة، تلك المراهقة المتصرفة، كان في استطاعته ذلك لفترة معينة، لكن الآن كل شيء منجرف في جنون السرعة، دوامة ذاك السديم.

كان يردد في نفسه كل هذه الأشياء التي تحدث في حياة الإنسان، هذه الأشياء الصغيرة، منبطحاً كان في مقعد السيارة، أبداً لم يعرف كيف يجلس أو يقف مستقيماً، في كل دورة عجلة ينغرز أكثر في سماكة كثافة متزايدة، ربما لأنه الآن في أعمق تلك الدروب، تلك الأحياء الجديدة حيث أقصت البناياتُ الجديدة مدنَ الصفيح إلى أبعد. نظْرتُه الحادة تتوقف عند نقطة معينة مختفية في اللوحة : المدينة المتكبرة، العصرية، الغربية إلى أقصى الحدود، أبهى مدن الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية سابقاً، تمد بياض عماراتها، فيلاتها المنتصبة على الهضاب بعيداً شيئاً مّا عن البحر، منتهية بفكيْ ميناء كبير، في الأفق البعيد، لكن من كان بوسعه إعارة الانتباه إلى ما وراء حقول القمح والشعير من بين أشجار الأوكالبتوس، بضعة أكواخ، غبار، أول حي صفيحي، هبة من الأسرة الاستعمارية، قبل زمن طويل، يهمس كما لو كان في استطاعته عدّ السنين، كان يعيش إذاك في فَيْلَجَة، تفاجئه هذه الصورة، إحساس بغيض : مثل أطفال آخرين روادته ذات يوم فكرة تربية دود القز، علبة أحذية، يستعيد المشهد في ذاكرته، أوراق توت، فيالج بيضوية الشكل، محفوفة بنوع من الزعب الناعم، مادة لزجة أيضا، وبعد بضعة أيام انفتحت الفيالج، وبدا له أنه يرى دماً لزجاً، أقرفه المنظر فرمى بالكل في امتعاض.

كان ينغرز في سُبْكٍ كثافة متزايدة من الرؤى المتوالية : بُوجَمْعَة يعود من الورشة، لا يتوفر الشغل كل يوم، بُوجَمْعَة يتوقف عند مدخل تلك الحفرة الشاسعة، من جهتي الزوارق، يتوقف ليشتري حلوى عند البقّال، هو أيضا قابع في بيت خشبي، تحيات طويلة، أجل سيدفع فيما بعد مثل الآخرين، الحياة هنا حياة بالسلف، بُوجَمْعَة يضم إلى صدره فرحته وسعادته عبد الرحيم، عندما انطلقت الرصاصات الأولى، الرؤيا، أغنية الأطفال الضحايا، تلاحقه الرؤيا وتحاصره من جديد. فرقعات الفولاذ، رصاصات تنفذ في الأجساد ولا يمكن استخراجها أبدا، يفكر في ذلك بحدة عند كل دورة عجلة، تخترق الرأس أصداء تلك السهرة الناجحة، البهيجة التي كان عائداً منها. تطابق لا يرحم، في ذلك الدرب، يحتل الأمر مخيلته الآن، البناية الإدارية، مبنى الشرطة يبدي نفس صلابة معماره، أسلوب السلطة الرسمية، أمام الصفيح، الخشب، الكرطون، الأغشية الكتيمة فوق الأكواخ، يتذكر، كان أمام مقر الشرطة، رجل لا يدعو إلى الريبة، أتى هناك ليتدخل كي يطلق سراح الطفل المعتقل إثر حادثة كثيراً ما تحدث مثيلاتها : الطفل، لا يريد تسميته ليحافظ على حقيقته، ربما كان عبد الرحيم، الطفل الذي نجا من الموت، طفل لا يتجاوز سن العاشرة، كان عائداً من السقاية يحمل سطل ماء ثقيل، عندما استفزه أطفال آخرون، وكان الشجار. يقذف عبد الرحيم حجرة بقوة لا تصدّق، يصاب طفل آخر مثله، خَصْمُ اللحظةِ، في عينه، شكاية، شهادة طبية، يلقى القبض على الجاني كما لو كان رجلا، ليس هناك سن لقسوة الحياة، للعنف، للقمع البوليسي، كان بُوجَمْعَة الأب قد جاء ليطلب منه أن يتدخل. في تلك اللحظة، يتذكر تلك الحجرة الصغيرة في بيت بُوجَمْعَة وسط جمع من الرجال، الجيران، في صمت جسيم، كان ينبغي الاتفاق مع والد الضحية، إقناعه بسحب الشكوى، وفي حزن كبير قَبِل أخيراً بذلك، دفع التعويضات على الأقل لتغطية نفقات العلاج. قدر كبير، من أين يمكن إيجاده وسط البؤس المطلق، يتذكر، كان هو، المختلفُ تماما عنهم، البعيدُ بحكم وضعه، كان هو الحكَمَ المحترم من قبل الجميع، يتذكر تلك اللحظة التي قَبِل فيها الأب في نهاية المطاف بالاتفاق المقترح، والتزم بذلك مقسماً على المصحف. ضابط الشرطة المتأدب سيطلق إذن سراح الجاني ابن العاشرة ! فجأة، في تلك الليلة العميقة، في ذلك العبور لحياته، لتلك الأماكن التي تخترقها السيارة، يشعر بنفسه مغرقاً في الأنوار، في القهقهات، في الفرحة المدوّية، تحليق طيور تحت سماء ربيعية، حوالي عشرين طفلاً يصعدون جرياً من الدرج المركزي لمقر الشرطة حيث قضوا الليلة، معتقلين، محبوسين، بعضهم أكثر من ليلة، ضجيج مثل صخب استراحة التلاميذ. «تفهمون»، نفس الضابط المتأدب يقطب حاجبيه، رقيب، نصوح، يحاول في نفس

الوقت تبرير موقفه «تفهمون، هؤلاء الأطفال مُهمَلُون في كل أرجاء الدرب مثل الآخرين، لا أحد يحرسهم في بيوتهم، لا أحد يعرف إن كانوا يذهبون إلى المدرسة، لا أحد يراقب إن كانوا يعودون في المساء، وهكذا يركضون، يلعبون الكرة، يسرقون فاكهة من هنا، قبضة فول من هناك، فول عند صاحب «طايَبُ أُوهَارِي»، من أولئك الباعة أصحاب العربات الصغيرة، إنهم يحدثون الضجيج، يشاكسون الكلاب، المتسولة الهائمة، يلعبون لعبة الحرب، يدخنون أعقاب السجائر، كل ما يعثرون عليه، حتى الكِيف، إنهم ملوك، تفهمون في هذه الحالة...».

إذن تفهمون، منذ ثلاثة أيام لم يعد عبد الرحيم إلى البيت من المدرسة، لم يظهر له أثر، بُوجَمْعَة يتحدث عن ساعات القلق تلك، تبكي الأُم، تبتهل الجدة في صمت، يحكي بُوجَمْعَة بإيجاز، متحكما في حسرته : كان عبد الرحيم قد تبع زمرة من الأطفال الأكبر سناً، ثلاثة أيام، ثلاث ليال وهو يهيم في الخلاء، يختفي في الأنقاض، في الأكواخ المهملة «أولاد الحرام». بوجمعة يتحكم في غضبه، يتمالك قوة عضلاته، مثلما يكون أمام مَرْدَا الذين يعاودون استفزازه، «أولاد الحرام !» لو أمسك هؤلاء الحرامية لَلَوَى عنقهم، صوته يضيع وسط همس محتشم، خجل وحسرة مختلطان «ذهبت به إلى الطبيب، أدركت ماذا جرى، كانت قطرات دم على سرواله، خرموه أولئك الأنذال، أولاد الحرام، أولاد القحاب»، يخنقه الغضب، الانفعال،والطفل، فرحته وسعادته، كان يتذكر، باح له بُوجَمْعَة بهذه المأساة وحده، حدث ذلك قبل زمن طويل. لماذا يتذكر هذا الأمر في هذه اللحظة، كان بُوجَمْعَة يتحدث بصوت منخفض هادئ، بدون فوران، حتى عندما كان يلعن أولئك الحرامية، صوت يفرض الصمت والاحترام.

كانت السيارة تتقدم، تقص الماضي في قماشة جديدة، تشق الشارع العريض، تحفر ممرّاً، تترك على جهتي الطريق البيوت المصففة المكعّبة، مجوفة مثل بطن لاحتضان الدكاكين، موجة عاتية تلتوي على نفسها وتتلاشى ممتصّة نحو الهوة، تندثر إلى حبات نور، زبد الأيام. انتبه إلى أنه تاه، هو الذي كان من المفروض أن يعرف لم يعد يتذكر كيف يجد الطريق نحو المركز، المدينة كبرت بقوة زلزال، قلبت الفضاء الاعتيادي، لم يعد يجد طريقه وسط ضخامة المدينة. شعور غريب يختلط فيه الاعتيادي بالجديد، يتجه في مختلف المحاور المتشابكة، المتقاطعة، أكيد أنه سيعثر أخيراً على الطريق الصحيح، ذلك البيت الواقع في عمارة متقادمة، مؤرخة في صفحة قديمة من كتابه، من حياته، غرفة عارية، فراش على زربية فوق الأرض، أكيد أنه سيعثر عليه !

ينفذ إلى أعمق، يُطَمئن نفسه، يذوق هدوء ذلك اليقين، وبدون شعور ينزلق على طول تلك الانحدارات، كان في أجواء أخرى، طعم لذيذ يتجدد فوق شفتيه : طعم عسل تينة صغيرة سوداء، كَويزية، اسم عذب، عمر قصير في الحديقة، في أسفل جدار ذاك البيت الذي يسكنه فصلا واحداً، من صيف لآخر، ماتت شجرة التين الأخرى، بياض الجذع، فروع عارية لاتزال منغرزة، بياض موت بلا كفن، يعود إليه الطعم اللذيذ، عيناه تبرقان، تتنوّران، تضيء البسمة وجهه : كانت حفلة ذلك المساء، تينة صغيرة سوداء مفعمة باللذات، من فوق قامتها الطويلة ألقت عليه نظراتها، عارياً كان يسبح في أعماق تلك النظرات، عارياً يا للفضيحة، يا للجنون، كان يرقص ثملاً في أمواج النور الحميمي، رغبته العنيدة تعبث به بقسوة، تدفع به إلى مغامرات عجيبة، لا أحد يتصور أدنى ارتعاشات هذا الانفعال، كانت الحفلة ستلفظ أنفاسها عند الفجر، كان في طريق العودة، ينزلق بين البيوت المكعّبة المصففة في هدوء، بين عالمين، كَوْنين، جنباً إلى جنب، متحاذيين، منغلقين الواحد في وجه الآخر، ترادف، شظف قاسٍ، ممرات، مآزق، عبارة بلا صوت، بلا صدى، جير مطفَأ، بياض النسيان، شربت الرمال الصمت، عالمان ! مثلما كان يحدث له كثيراً، تهمُّ به الجملة في جنون متكرر : ما الذي كان يسعى إليه وراء ذلك العناد، حكّمها الواحد على الآخر، بسذاجة كما لو كان ينتظر قدح شرارة من احتكاك ذَيْنك العالمين ؟

قبل أن ينام، مرّر أصبعاً نبيها فوق الآليات الموضوعة، فتح كناشه الصيني، مساحة سوداء محفوفة بالأحمر، وبدأ يقرأ بنوع من اليقظة : إغراء الكتابة يمكنه أن يستدرجه في سحر الخيانة، كان يقرأ كما لو كان الكاتبُ غيرَه، فعْل انعكاس المرايا، المسافة، على بعد ألفي كيلومتر، مسافة لا تقاس، يكتسب النظر مزيداً من الحدّة، حدّة شفرة مشحوذة «ما يخرق الشاشة من أجل حساسية متيقظة، دقيقة بحيث يمكنها تفريج الجفون، هو المجابهة السرية لعالمين غريبين كلا منهما عن الآخر غربة جذرية»، صورة عمياء، غياب صورة بلد لم يُسَمَّ إلا عرضاً في اصطناع استوديو، ابتذال برنامج باريسي، كان قد أتى ذاك المساء، من طنجة إلى باريس، طنجة، سَارعُوا إذن إلى محل الاكسسوارات لاقتناء أزياء خادعة، فولكلورية، قديمة، مختلطة الألوان، أذواق جنسية لواطية، كان قد جاء، مشعث الرأس، يحمل معه كتاب «الخبز الحافي»، يجلس مستقيما على الكرسي، ربما كان قد شرب شيئا ما، أقل من العادة، لمواجهة امتحان تلك المناسبة. المنبوذ، المرفوض، الهامشي الذي حُرِمَ في بلده من الكرامة التي يستحقها الكاتب، «ولد السوق»، بلا أسرة، بلا علامة مميزة لانتماء عائلي مجيد، ها هو هذا المساء يستعيد مكانته، يُنتخب، يُحمل على الأمواج. إلى جنبه : كُتّاب،

كُتّاب كبار كما كان يُقال، يلهون بدغدغة بعضهم البعض بعبارات مقتضبة، بذكرياتهم، إنهم يرتدون بذلة اللامعنى، كل شيء على يديهم يتدنى إلى مستوى التفاهة، إلى المظهر المزوّر. يتوقف عن القراءة، يقول لنفسه إنه لم يكن هناك كبير فائدة لإعادة قراءة ما كان قد كتبه قبل عدّة شهور في تلك المذكرة التي كان يُضمنها خواطره. كان بعيداً جداً عن ذلك المناخ، عن ذلك الجو، هنا، الآن، المسافة ملغاة، كان قد خرق الشاشة، انتقل إلى جهة البلد الكتوم. يغلق كناشه، ينهض، يخطو بعض الخطوات ليختبر صلابة وحضور الأرض تحت قدميه، يتوقف فجأة مضطرباً : شيء غير مألوف، غير متوقع كان قد عبر البحار في صناديق سرية، ربما كان قد وصل إلى هناك ! لم يكن إلا وهم المظهر الخارجي لشيء أجنبي، مضطرباً يتوقف، عاجزاً عن الكلام، لم يكن يعرف أين تمرّ الحدود بين الكونَين ! يبتسم مرحاً : كلبان خزفيان متقابلان فوق الرفّ، كلبان غارقان في التأمل ينظران إليه في استهزاء. هؤلاء البشر لن يفهموا أبداً، كان يقول في نفسه : ماذا يمثل ذلك الرجل الذي يتحدث عن كره الأب، كره التحدّي، التجديف، ثمرة الغضب، ثمرة قسوة الحياة التي لا ترحم ! ماذا يمثل ذلك الحقد الذي ينفجر ويهز السماء ؟ في الطراوة المطفأة للأسرة البورجوازية الصغيرة يقولون، في اطمئنان، إنها العقدة، ذاك الشيء المرمي في نتوء القبو. لن يفهموا عضة ذاك الخبز الحافي، الجوع الذي ينتشل الحشائش من بين القبور ليتغذى منها، يخاصم الموت على حبّات الرمل، لا ! الرأي الرخو لهؤلاء السادة البدينين ينحني نحو الفاقة، الحرج، والباقي إحصائي : سبعة عشر مليون من الأطفال يموتون ما بين المحار والكبد الدسم. بؤس ! كلمة ملقاة بعشوائية فوق وسائد الترف، زينة فضائحية لسخط مقنع بمشاعر إنسانية، أن يقدم رجل من هناك ليقول، يكتب قتل الأخ لأخيه : مشهد مرعب، سرعان ما ينصرف إلى اللفظة المواتية، لفظة تغلق كل رؤية أخرى، لفظة مجرم، كيف يمكن اختراق الحاجز المنيع ؟ كيف يمكنه القراءة في اللعبة الفظيعة لهذه المأساة : رؤية قيمة، أجل قيمة اغتيال هذا الطفل، طقس بلا طقس، دفين في أحشاء الأرض، معاناة قديمة، طقس بلا طقس يمضي على القرابين المقدمة للموت، تتسامى، تغفر ليد الإنسان ضد كل معنى مفروض ؟ لن يفهموا، إنهم رجال الماضي. هذا الماضي المفرّغ فجأة، بدون أبعاد محسوسة، يجري مثل خط فصل، قطيعة نهائية. شيوخ بلا عمر، منذ الميلاد في رحم هزيل، بورجوازي صغير، مبولة منغلقة على الفراغ، لن يفهموا، لن يفهموا أبداً : كره الأب شيء قابل للاحتفاظ، سماد، نفايات نفسية، قابلة للتجميع والمتاجرة، لعبات مُطَمْئِنة لتمثيل معتاد، أماكن إقامة معتادة، مناطق اعتراف معطرة بالعلم التحليلي، عقول صغيرة لا تعبرها الريح الكونية. انزياح، تحويل اتجاه ! يهتز فجأة :

كان يعتقد أنه ترك تلك الأشباح حبيسة في زريبة ليلها، في عتمة عالم مشوّه عندما اصطدم الكلبان الصغيران فجأة، هزّة، علامة صادرة عن اللامكان، قذفت بهما من فوق رفّ مُفكّرنا، شظاياهما المندثرة غباراً تنتشر لتختلط بالتراب، رمزية منفطرة لعالمين مسحوقين !

أبكَمَ كان ينظر إلى الكارثة، أصداء السهرة تعود إلى مسامعه، نبرة غريبة في رأسه المضطرب : الصوت الجهير لخبير اليونسكو، أحمر مبيضّ، مائة مرة قابل للتوزير، للتكتيب العام، تقنقراطي صامد أمام الله، أمام الشيطان، يخطب وفمه ممتلئ دجاجاً، كسكساً، كبداً مشرملاً، سمكاً : كل هذا في عداد الماضي، إنه فلكلور، البؤس، مدن الصفيح، لاحظوا، قهقهة كبيرة، مفارقة كبيرة، حتى في هذا نحتل الصف الأول في الإنتاج العالمي، كل هذا متجاوز، كل هذه الحكايات ضد الغرب كانت صحيحة إبّان الاستعمار، أما الآن فالأمور واضحة، إما أن نكون حديثين وإما أن نندثر ونمّحي ! ينطفيء الصوت التقنقراطي، لم يعد يسمع منه إلا الصدى المتلاشي، يشعر بالنعاس يسيطر عليه، يذهب للنوم، نظرة أخيرة على بقايا الكلبين الصغيرين اللذين كان يحبهما كثيراً، كانا يُطَمْئنانه. كان ممدّداً على فراش عارٍ في حجرة عارية، بدأ النوم يسيطر عليه، كان إذن قد سافر من مدينة إلى أخرى، متى ؟ لم يكلّف نفسه عناء معرفة ذلك : كان في حجرة خالية تماماً، مضاءة من خلال نافذة صغيرة عالية، حجرة تنفتح على بهو في منزل خالٍ منحصر وسط البياض، أزقة ضيقة، أسوار، حرّاس يقضون الليل على شاطئ المحيط، البحر، الأبدية، كان في تلك المدينة التوأم، كُفٌّ ثلاث مدن، كان قد شيّدهن في صحراء رغبته، من تلك الحجرة كان يكفي دفع الباب لفتح كل الأبواب : كان تحت شجرة التين، على السطيحة الصغيرة، عطر عَسَلٍ، نعومة مخملية سوداء، كَويزية، تينة صغيرة، جوزية الشكل، في الفم تطقطق الحبيبات الحمراء ذات الرأس الأبيض، رغبة عنيدة، يكتنفها ضياء، رقيقة في شمس عاتية، كان هائما في جنون العبادة، راكعا عند قدمي آيْلاّن، أزتيك خرافي، بشفرة رزينة، وبدون أن ترتجف يده، كان سيشق صدره، يضع على الصخرة البيضاء قلبه المنتشل الدافئ دماً وحياة، تلك الصخرة البيضاء عند أسفل شجرة التين.

سطوح

منفتح، مغلق، هو القلب الذي ينبض يتوقف بلا عياء في فضاءات الصمت هذه، نظرته تسأل تلك الهندسة الزاهدة، المتراصة على عدّة مستويات، يَحدّها البحر في الأفق. خطواته، نظرته تحمله نحو اتجاهات عديدة. السطيحة التي كان يرقب من أعلاها، ينصت للحياة، كانت مستطيلة، محاصرة بجدران عالية إلى حد مّا : وعندما يجلس المرء ينغلق السر من حوله، ويظل المنفذ الوحيد هو السماء. كان يرقب، ينصت كما لو كان يحبس نَفَسَه، مصغيا لنبض بعيد : هدنة ! خضوع العينين، البصر : كلمة خارجية وحيدة، مجرد تحريك الشفاه قد يكسر ذاك النور.

متيقظاً، كان واقفا هناك على تلك السطيحة في اتجاه البحر. طه حسين، ضرير، كان يحبذ الذهاب قرب حاجز، يجلس في أسفله خلال ساعات وساعات، يشعر بلذّة لا متناهية. لِمَ كان يفكر في هذا صباح ذلك اليوم ؟ الأصوات التي كانت تهُمُّ به، تحاصره، تنهال عليه من حين لآخر، هادئة في شساعة صمت البحر. كان ينظر : السطوح تجري ببياضها نحو البحر. على يسار الجدار الذي كان يتكئ عليه، أنقاض منزل، «خَرْبَة»، سطح من القرميد، أصفر شاحب، آجر أصفر مغطى بالطحالب. على ذلك السطح المهدم، حزم من الأغصان المجففة. وسط الساحة الترابية، أعمدة مغروسة في الأرض تمتد بينها حبال لتنشيف غسيل بئيس. تظهر امرأة تحت تلك السماء، عجوز بلا عمر، وبخطوها الوئيد تتجه نحو البئر، على اليسار في الساحة، لتسقي الماء. تتعلق نظرته بحركات تلك الحياة اليومية : دليل بعد أدلة أخرى تندرج في غفلة عنه ضمن صفحات ذلك الكتاب الذي كان يعتقد أنه أغلقه دون ضجيج وهدير العالم، لون الأشياء ولغز الأصوات والوجوه. من ورائه، المسجد الصغير الذي يفوق السطيحة علواً،

صومعة صغيرة تثقبها أربعة نوافذ، قرميد أخضر، عمود، علم أبيض في القمة. لن يظهر المؤذن، كان هناك مكبر صوت في أعلى الصومعة لبث الآذان، خروج على التقاليد ! هذا الصباح، على السطيحة المقابلة، صعدت امرأة مثقلة تعباً، ضائعة الذاكرة، لتنشر في الشمس معاطف، سراويل، ملابس مهترئة، مكمشة، آه لو كان في إمكانها أن تتكلم ! يستمر البصر في «طوافه». لسبع لفّات ! رجس ! قلب ملؤه الاحترام، متيقظ، منتبه، كما لو أن تلك الحياة بمحاذاة المسجد، حنية زرقاء هائلة ممتدة بكل علوّها توحي برحلات انقرضت. تنفذ النظرة الوقحة إلى الساحة المفتوحة : على الجدار الأبيض أياد رسّمت وحشاً بحرياً، أزرق وأسود، اخطبوطا ربماً. لعبة خيال على مرأى ومسمع الناس.

تكتسي الأشياء دقة الحياة اليومية : ينشف الغسيل في الريح، مدخنة فرن عالية سوداء، خليط أشياء تم التخلّص منها. حياة منغلقة، حياة مفتوحة. كان يظل هناك ساعات، بدون حراك في انتظار مستعجل أحيانا كما لو أن شيئا ما كان سيظهر في الأفق. يوما بعد يوم. كان يؤاخذ نفسه على النسيان، هناك، في «الخَرْبة»، تعرفون، على اليسار عندما نكون في مقابل البحر، هناك في المقدمة ركام من الأحجار الكبيرة السوداء. لم يتحدث عنها. كان بودّه ألا ينسى شيئاً، ألا يهمل شيئاً من تلك الألفة. أي شيء : لا عجلة الدراجة، ولا حزمة البصل، ولا أرجل الطاولة الحديدية المكسّرة، كان يحس وكأنه أصبح محاسباً، تراكم الأشياء يثير فيه رغبة لا منتهية. كان يُجمّع الحياة، أيام الغنى، أيام الفاقة المحتشمة. منذ ذلك الحين،كان يتعهد بذلك، أصبح دقيقاً. تثير الديكة إعجابه، والطيور أيضاً تغرد في نفس الحين، تتجاوب في حوار لا يتبدل منذ الأزمنة بلا قياس. كان دقيقا : هناك في الأسفل وسط الزقاق صوت الأم يدوّي، صدى أصم تمزقه نبرات عالية حادّة، وبكاء الطفل المعاقب يتصاعد، يسيح مثل سطل ماء مهرق، تلطيخ مفاجئ.

أيام فاقة محتشمة : أمس في «الخَرْبَة» كانت المرأة من كل الأعمار تغسل الملابس : دست كبير من البلاستيك ذي اللون الحار، ميكا، اللغة الجديدة للأزمنة الحديثة : أين ذهب إذن الدلو الخشبي، «الأرتيزا» كما كان يُقال، مليء بمخلوط الماء والصابون، أما الآن على الأرض، علبة «تيد» عصرية، تافهة وناجعة، حمراء مبقورة شاذّة. أيام غنى ! على السطيحة، سطيحة الفقراء : ملابس، زرابي فاخرة، وسائد الديباج الأحمر، أحمر من آخر موضة. أحمر قانٍ. هي استعدادات عيد الفطر. أحمر يطغى عليه السواد، أحمر الحناء على الأيدي والأرجل : كتابة دموية لرغبة نباتية.

أصوات تتحدث في وحدة تلك السطيحة الهادئة. حكي منسوج في بصبر وحرارة رزينة، من أشياء مدركة بسعادة وئيدة. حول قماشة خضراء كبيرة، ممدّدة على أرضية السطيحة، رجال جالسون على الفرش، مجتمعون لجلسة زهد كبير : الذِّكْر، ذِكْر اسم الله، ترديد ابتهالات وأدعية إلى حد الدخول في الحال. أدعية مثيرة للمشاعر، الوِرْدُ الخاص بالطريقة التيجانية. حكاية دقيقة لسعيد يذكر الوجه المبجل لوالده.

أيام اكتمال لا ينتهي. تبدّد الضباب، ضوء ملؤه الهدوء والرقة، البحر هادئ فجأة، ناعم، بلا ارتعاش، ولا أدنى طية. يوم الجمعة : تنوّع على سطيحة اليسار : أياد مجهولة حزمت خمس قنينات من الميكَا، قنينات زيت كريسطال، طواويس حمراء عجيبة، باقة غريبة معلقة على الجدار. شيئا ما إلى اليسار، أياد مجهولة أخرى، لربما هي المرأة العجوز، نشرت على ركام الأحجار الكبيرة المنسية وسائد بيضاء وبُنية. ذاك الصباح في الساحة الصغيرة مباشرة عند أسفل المسجد، أمام النظرة الزرقاء للوحش البحري المرسوم على بياض الحائط، شاب وشابة يأكلان رغائف مطلية بالزبدة، آلة تسجيل تبث أغنية عاطفية تشبه «الريكَي». تنهض الفتاة، تستعد للخروج، يرافقها الشاب إلى الباب، تهرب فجأة مستعجلة، همسات، ينتصب الوحش البحري بدون انفعال، والمسجد أليف لا مبالٍ. رمضان : الذنب، لسان النار للوحش البحري، الغرب يهمس عند أسفل المسجد. دنس ! حفيف الدناءة.

يحقق الزوال وعود الصباح. بهاء ومجد ضياء فاتن. تظهر المرأة العجوز وسط الأنقاض. تتجه نحو الباب، هناك، مباشرة تحت السقف المنهار. تتربّع. ينظر إليها لكنه فجأة يشيح ببصره محتشماً. إنهُ بدون شك ما يحل محل مرحاض : مجرد ثقب في الأرض. بعد لحظات تنصرف. يلاحظ ملابسها، ترتدي نوعاً من الفوقية الملقاة فوق جوبة بدل المنديل المخطط بالأحمر والأبيض الذي ترتديه النساء عادة هنا، يُشَدُّ حول الخاصرة بحزام أحمر عريض. دقيقاً، كان يشعر برغبة كبيرة إلى الدقة : لُكَرْزة، ذاك الحزام الأحمر الضخم حول الخاصرة.

قرب البئر يلاحظ فجأة ولأول مرّة فتاة بِرُوب أزرق، إنها تنظف بالماء الحجرة الوحيدة التي لا تزال قائمة من بين الأنقاض. شعرها يحجب جزءاً كبيراً من وجهها. مفارقة بين هذه النظافة، هذا الحرص الشديد على التنظيف وبين الساحة المُوحلة، ذلك السقف المهترئ، ذلك الركام من الأحجار السوداء، غريب. الوسائد المنشورة هذه الصباح منسوجة من الحرير المطرز. لحظة وتظهر العجوز من جديد في الرواق المؤدي إلى الباب الخارجي، «السّطْوَان»، كما يقول في نفسه، ذلك الرواق الضيق الذي يحجب المدخل المباشر إلى داخل المنزل. تمشي بخطوها الوئيد، مرتدية جلباباً رماديا، تحمل في يدها سلّة، ربما ليست عجوزاً كما

يبدو ! لكن تحت أي ثقل ترْزَأ ! حياة منفتحة، حياة مغلقة. ذِكْر ! هؤلاء الرجال الوقورون، الجالسون على زربية خضراء كبيرة منشورة على أرضية السطيحة، يردّدون نفس النص المقدس إلى حد إلغاء أجسادهم وحضورهم الشخصي. ذِكْر ! بياض تلك السطوح المكرّرة، سعة الضياء الوارفة، كان يبحث يائساً عن معبر له إلى نقطة تماسٍّ حياة منصهرة. أين يمكنه إيصال الحبل المقطوع، أثر الحكي الذي يستمر دائما من المنطلق.

حميمية. هي السطوح ممنوعة على الرجال. هناك، أمامه، على السطيحة المجاورة، ظهرت امرأة لتزند النار في الريح. ظن أنها جميلة : تحتدُّ رغبته، تحت تلك الفُوقية الطويلة، جسد ناعم بُني يتحرك طليقاً. توقف من غير احتشام : أنوثة محلقة الزغب، يتكوم الحكي حول عضة قديمة، حدث ذلك في زقاق ضيق، على طول الأسوار، حيث قيل له إن هناك نساء. أول مرة ! أجل كانت المرة الأولى، سنوات عديدة فيما بعد بقي محتفظاً بأثر ذلك الجنون، تلك الحمّى التي كانت تعْقِد جسده، تنشف حلقه، تحرق بإبرها الحديدية جفنيه الطريين المراهقين. كانت على عتبة الدار، أوْمأتْ إليه، تَبِعَها. حجرة عالية فوق السطيحة، نافذة وحيدة، فراش على الأرض. كانت طيبة، شابة، ولربما شابة جداً. لم يكن يتذكرّ جيداً. كل ما حفظته ذاكرتُه هو رؤية ساقيها الطويلتين البُنيتين، كعبيها العاريين على الأرض، بُنّيُن يحيط بأسفلهما بياض، جَمْعَة ترقص في النور، تنظف السطيحة بالماء، تحيي رغبته : طول ساقيها الرقيقتين خبز محروق، ونظرته كانت تجري في هروب مجنون نحو الماضي، يحاول تدقيق مشاعره : سيل جاف مزروع بالأشواك. فتور تنحل ببطء فيه العقد التي كانت تحبسه. تبعها، صعد الدرج ليجد نفسه على السطيحة داخل شذى القرنفل : الحكي يكتب نفسه، يتكوم على الجنس الناعم.

الجمعة : البحر صافٍ صفاء براقا. النساء ينظفن البيت، السطوح وحتى الزقاق بدلاء ماء كبيرة، حيوية ونشاط عجيبان. بألفة تكاد تتحول إلى تعاطف يبحث ببصره عن المرأة العجوز. إنها هناك، هي أيضا منهمكة في التنظيف الكبير، «التّسْيَاق». رأسها مغطى، ترتدي فُوقية مشمرة فوق سروال وارف. إنها مسنة بكل تأكيد أو منهكة مبكراً. سمراء الجلد داكنة، بنت عبيد. وجه جديد : طفل جميل جداً، سروال قصير وقميص، يعبر الساحة.

بدقة، يؤاخذ نفسه على نسيانه شيئاً معيناً في استكشافه. قرب البئر، في أعلى جدار الحجرة التي لا تزال قائمة، ثلاث نوافذ على شكل حُدْوة الفرس، مغطاة بقطع الكرطون. في إحداها، صفاية قهوة بيضاء، شاذّة، غير ملحوظة. على السطيحة في الجهة المقابلة، جاءت

فتيات صغيرة لتلعبن، صراخ وضَحكات. أيادٍ خفية تركت حقيبة مفتوحة تبرز منها أحزمة مطرزة، كومة من الصوف، جَزَّةٌ بُنية وبيضاء، تنشف في الشمس.

يتقشَّر الزمن مثل قشرة جير رقيقة، غبار الأيام. الشمس تنحدر في الأفق، ساعة المغيب التي كان ينتظرها دائما في خشوع رزين، متأثراً كما لو كانت حياته هي التي ستختفي وسط البحر. غموض. السماء محتلّة بألوان عارضة وسرعان ما يهجم الليل، مثل الفجر، بشفافيته الداكنة على بياض المدينة. ترتعد الفتائل وسط قناديل مبتكرة : قنينات مِيكًا من نوع سِيدِي حْرَازَم مقسومة إلى نصفين. غناء الغيطة النحاسي، انفجارات، نفخ طويل أصم يصدر عن النفّار، اعياد احمرار تلهب السماء.

أصوات تتحدث، والقلب ينفتح على الزمن الملغى. حكيٌ. أَغُوسْتِين سَامُوزَا ! على سطح مَرْكبه الذي يبحر على هوى الأمواج، يراقب أغوْستين سامُوزا، من خلال نظارته، المدينة، بيوتها البيضاء المتكئة الواحدة على الأخرى، المحاصرة داخل أسوار قوية، تعلوها هنا وهناك صوامع وقبب بيضاء ثمانية الشكل تحتضن الأولياء حماة المدينة. يتلمس أصبعه الخارطة، يتأكد من اسم معيّن. غناء الغيطة النحاسي، نفخ طويل يصدر عن النفار. أنصتْ ! مذكرة : الأصبع المتأمل الخشوع يقلب الصفحات، يتأخر البصر لحظة على النقش الدقيق. مشاهد شرقية. ينتظم الحكْيُ في انسجام. يسجل دُونْ أغوسْتِين سَامُوزا بدقة كل خواطره. مذكرات مضطربة، حنين لا حدَّ له يلقّح أطراف الحكي، يكتنفها بهالة حائرة، كان قد رسا يوم الجمعة وكان البحر هادئا، حمله أحد الرجال على ظهره من مركبه إلى الرصيف حتى لا يبلل لباسه الاستعراضي. قوبل بتأدب كبير وتحفظ رصين. حركة ملوّنة، في الأزقة تتجاوب مع ما كان ينتظره من أحلام فاخرة. كان يمرّ بجنب البيوت المغلقة على نفسها بغيرة كبيرة : على عتبة سرّ لا يفتض، لم يكن بصره يستطيع الارتفاع إلى السطوح المحرّمة. ريشته الحازمة سجّلت الأثر اليائس لحزنه : قلبه حبيس مِلزمة، وأحجار الرصيف تدوي تحت خطوه، حياة ممنوعة، مهموسة عبر انفراج الأبواب، نظرة هاربة، والحكْيُ معقود على الغياب. مرهقاً كان يشعر برعشة تسري عبر بطانة حنجرته، جلده المُلَمّع لا يقول شيئا عن رحلاته الطويلة، لا شيء غير حكيُ الرياح، القشرة الدقيقة للأيام والرذاذ، خضرة الطحالب، دُون أغوسْتِين سَامُوزَا، جرح فاغر في الجنب، يتطلع من أعالي سطح مركبه الشراعي إلى السطوح البيضاء المتدرجة وهي تختفي ببطء.

ليلة مهيمنة، مملكة لا تنتهك، هبة رياح شرقية تلفظ أنفاسها. رمضان ! يحتل الأطفال الشارع ليل نهار : من الأسفل تتصاعد الأصوات، الضحكات، دقات الطبول المرتجلة، علب

الصفيح، علب زيت «كُرِيسْطَال»، يعلقها الأطفال على أكتافهم وينقرونها بالعصيّ، صراخات متحمسة عند سماع نفخ النفّار الطويل. في البعيد إيقاع التعْرِيجَة المجنون : فتيات، نساء، أيادٍ، أصابع تنقر على جلد الدفوف المتوتر، أجساد تصعد في عدْوٍ جنوني نحو غزو السماء. في الخربة وما حولها يخيم الهدوء، الراحة. آبار نور، تلك السطوح المفتوحة على مدخل البيوت. لم يكن يستطيع رؤية المرأة العجوز القابعة في الغرفة الوحيدة التي لا تزال صالحة للإقامة، لكنه يتخيلها، يتوقعها منهمكة في إعداد طعام السحور.

لا أحد ينام. أصوات تتحدث : أنصتْ !

صعد، وهو طفل، رفقة والده إلى السطيحة، قلب نابض. صعد على سلم صغير ليبلغ علوّ الحَوَيْطِ ويستطيع رؤية البحر. يتابع ببصره أصبع والده الموجه نحو الأفق. «انظر، ترى ذلك المركب الكبير، ذا الأشرعة الوارفة، الأبيض مثل طائر منشور الأجنحة. انظر، إنه قادم من بعيد، من بلدان أجنبية». كان وهو طفل، ينْبهر عند سماع حكايات أبيه.

بدخيلة الحروف، الكتب، في كلام الرجال، في خط البحث المفتوح، يتقدم الحكْيّ مثل سبيل متدفق. أنصتُوا لما يُقال : «السي صالح... الله يذكره بخير، ردع اللصوص، قُطّاع الطرق، فأصبح من الممكن لأي شخص أن يتجه إلى الديار المقدسة في أمن وسلام. السي صالح، رجل التقوى والورع، زاهد متصوف، سياسي محنك، سيد الغنى والتجارة»، الصوت الودّي، المولع، الباحث عن الحقيقة، يبوح بالنتائج الأولى لبحث طويل النَّفَس، نزر قليل، كلمة تصدر صدفة في بحر حديث ممتع، تلميح عابر وفي عينيه الخصبتين كان يُولّد ويعيد ميلاد المدينة السعيدة : مدينة مولده، ميناء بعيد على شاطئ المحيط الأطلسي، ميناء حرٌّ في ذلك الزمان، مزدهر، مستقل في ظل السلطة الحكيمة للسي صالح... كان يحلم بإتقان الأشياء، باكتمال الحرف، بيديه كان يلاطف نعومة الأقمشة التي كانت البواخر الكبيرة تشحنها إلى أوربا، كان يعجب بمهارة نقاشي الأحجار المتمثلة في أقواس أبواب المدينة. كان يتحمس لحرارة حرية الرجال، استقامة النظرات، رقة القلوب النبيلة الشهمة. مدينة المستقبل !

صخب جنوني، فرحة الأطفال في الشارع، هناك في الأسفل. لو نزل فلربما قذفوه بالأحجار ؟ لا إنهم ليسوا شريرين، لكن مشاكسين، سيتبعونه مازحين، مرحين، هو الرجل المجنون المسكون، يسلّي الأطفال، ويقدّم ولايته لاحترام الرجال الناضجين. زمن الرجال الملهمين قد ولّى : فالملاجئ والعمارات لا تتوفر على سطوح.

هذا الصباح، قبل رحيله، تنبعث صدفة من الشارع حركة مجنونة، حركة. إفراغ مواد بناء، صراخ، نداءات، عربات، حنيات خشبية، منقلات تسد الممرّ. على السطيحة بين تلك التي كان يقف عليها والخَرْبَة، بدأت المواد تتراكم : آجُر، قطع الحديد، إسمنت، تمّ رسم قاعدة جدار سيُبْنَى. سيُشَيِّدُ جدار، كان يعرف بحزن أنه لن يرى بعدُ تلك المرأة العجوز التي قاسمها الأيام من بعيد لفترة زمنية.

ستنطفئ السطوح عمياء تحت سقوف الغياب. كل السطوح. جدار يُبْنى.

الرحيـــل

كان على وشك الرحيل ! مطار جديد، براق، ناعم، عملي إلى أقصى حد، وجه الحداثة الصارم. الصوت الأجوف شبيه بالكرسي البلاستيكي الأحمر البارد الذي كان يجلس عليه. خليط لغات «أيها المسافرون، الطائرة المتوجهة إلى... من فضلكم»، أذن شاردة تلتقط نتفاً. كان هناك ينتظر. هناك وفي أماكن أخرى. «أبداً، أبداً لم تكن بمثل ذلك الجمال بكُعيبتها فوق الرأس. منبهراً كان يهمس في نوع من الطمأنينة، آيْلاَن، أبداً لم تكن بمثل ذلك الجمال، كان متأكداً أنه على وشك الموت»، بيَدٍ متشنجة إلى حدٍّ مّا، كما لو كانت ترفض أن تقول المستقبل، كتب هذه السطور على صفحة من يوميته، صفحة عالية مثل غرفة في كناشه الصيني، بالرغم من أنه كان قد أحكم إغلاقه وطمره في أعماق حقيبته. على سبورة الذهاب والوصول كانت الأضواء تتراقص، لم يكن ممكنا قراءة شيء مما كان يقبض قلبه. كان هذا يُطَمئنه شيئا ما. يتلفّع في سلهامه الكبير، في المجهول، في الحمرة الداكنة لسلهامه، مثل ذلك «التراب الصيني» الذي تُسْقلُ به الصواني، أواني النحاس، عندما كان طفلا في مدينة مولده، ورّبما لذلك السبب كان يحب أن يلجأ إلى سلهامه، «أيها المسافرون، من فضلكم». كان على وشك الرحيل ! كانت هي الراحلة. أفكار مجنونة تهزّه، جاره المبتسم لا يلاحظ شيئا. رغبة في الانطلاق نحو مدرج المطار، الارتماء في وجه البوييننغ 727، أجل 727 دُونْ كِيشُوتْ يصرخ في مواجهة الطيور، في وجه الربّان، ربما كان قد أحبّ بدوره، «أبداً لم تكن بمثل ذلك الجمال، آيْلاَن، كان متأكداً أنه على وشك الموت»، إرهاب ! عملية إرهابية ! من يدري، ربما جسده كان مصاباً بالرصاص على مدرج المطار ! الحمد لله، الشرطة حريصة، لكن لم تكن لديه أسلحة ! أفكار مجنونة، ذات يوم ستنتهي به الأمور إلى مأزق ! كانت

تأتي لرؤيته في الصباح، تحرس تنانين اللهائب الزرقاء فوق فستانها مدخل عُريها. كانت عيناها تحجبان عمق البحار، أسنان صغيرة مثل أسنان سمك الشيق، بيضاء، ناصعة، عضّة حادّة، حُبسة تتكوم في حلقه : كانت على وشك الرحيل، تنانين رخامية هادئة تسهر في حرص شديد. جاره يبتسم، لا يلاحظ شيئا : «أنتم راحلون» هكذا يسقط السؤال المبتذل، لم يكن يدري من أين صدر. أجل، بكل تأكيد كان على وشك الرحيل، ماذا كان عساه أن يقول غير هذا ! قاعة المطار جديدة برّاقة. أي مفخرة للبلاد، أي إنجاز جريء ! كانت الأمتعة مشدودة، بسيطة، عَمَلية، دون زحمة زائدة، كان المسافرون أيضاً منغلقين، مُمَغْيرين، عمليين، دون زحمة فائضة. اخترق مثل المسافرين الآخرين المراقبة الالكترونية : يمرّرون آلة كشف على كل أجزاء جسده، لم يلاحظوا شيئا. الحمد لله، إلا شيء معدني، لكنه لم يكن متأكداً إن كان لا يرغب في الانفجار، الصراخ من الألم، تحطيم عالم الإسمنت، الفولاذ، البلاستيك، الميكا كما يُقال عندنا، لكن كل هذا لا يزال إنسانيا إلى حد ما ! أفكار مجنونة، من عساه يفهمه في كنيسة الصمت تلك ؟ كان بودّه أن ينهض. فجأة، وبوثبة واحدة، سينتشل نفسه من ذلك التحجّر، سيرتمي عند قدميها، كان يعرف ذلك، ما ينتظره شبيه بماء بارد يُلقى على جرحه، ستضع فوق رأسها يديها السوداوين، الهزيلتين، الجميلتين، المرهقتين، المحروثتين كالحقول التي غادرتها لتوّها : «يَا وُلِيدِي، يَا وُلِيدِي»، الصوت الرقيق يبتهل إلى الله، يهدئ نار جرحه. فكرة مجنونة. ماذا جرى ؟ تلك المرأة العجوز وصلت لتوّها إلى قاعة الانتظار، يرافقها رجل، زوجها أو قريبها. إنه فلاّح يرتدي جلبابا صوفيا، عمامة فوق الرأس، طويل القامة، نحيل، لحية قصيرة مبيضة، يتقدم متردداً، حائراً، تائها، مسافر غريب وسط ذلك الكون. ثم هي ! ينظر إليها في اضطراب، في انفعال، لم يكن يدري لماذا، لم يكن يسعى لمعرفة السبب. تتمسك تلك القروية المرعبة مثل طفل بيد الرجل، تلك المرأة العجوز في قاعة المطار تقف كما لو كانت على عتبة «النّوالة»، حتى لباسها لا يوافق المقام، نعلان من البلاستيك الأزرق، لا يزال يذكرها، بلا جلباب ولا حائك، قماشة بيضاء بسيطة ملقاة مثل خمار فوق «قَرَاجِيّة» مهترئة مشدودة حول الخاصرة بخيط صوف أحمر سميك. ذاك الوجه ! مؤكد أنه ليس وجه أمه. ذاك الصوت الذي يكتنفه في رقته، «يَا وُلِيدِي، يَا وُلِيدِي»، لا يزال يدوي في داخله، لكن من أين كانت قادمة ؟ جاره يبتسم في طيبوبة : «هؤلاء الأشخاص قادمون من البادية، مساكين، إنهم تائهون ينبغي مساعدتهم. كيف يمكنهم ركوب الطائرة ؟ عجيب». هو أيضا كان تائهاً، لحسن الحظ أن لا أحد لاحظ شيئاً، لا أحد تنبّأ بشيء. يكتنفه المجهول. كان متأكداً أنه سيرتمي عند قدميها : تلك المرأة العجوز شاهدت على مرّ الأيام

طلوع الشمس وانسدال الليل، ضمت الطفل إلى صدرها، أرضعته من ثديها، كانت تعرف الأحجار التي تشد خيمتها، كانت تعرف كيف تصبر على الجوع وتتفانى في البذل والعطاء، لو تحدث إليها لأجلسته على الحصير الملقى على الأرض، لقدّمت له كأس شاي ورغيف «مَحْرَاش»، خبز الشعير الذي يحبه كثيراً. سوف تنصت إليه، تفتح له قلبها «يَا وْلِيدِي، يَا وْلِيدِي». لا، لا، يتمالك في داخله، لا، أمه هو لا تتحدث هكذا. «آبْنِينِي، آبْنِينِي»، أجل، هكذا، كان صوتها، تدوي النبرة في شقوق قلبه. لو كانت ما تزال حيّة ! لكنه لا يجرؤ على قول شيء، ثم إنه لم يعد طفلا. يتلفّع في سلهامه ليخفي جراحه. جارةٌ يبتسم بطيبوبة، لا يلاحظ شيئا. سطر في لائحة الذهاب ـ الوصول. مساحة المسافرين الهادئة ترتجف وتبدأ في التموّج. الذهاب : «المسافرون، الباب رقم 5». الصوت قادم بلا مبالاة من بعيد جداً، يخترق الزمن. ينهض ببطء، يحمل سلته الثقيلة. سلّة، ليست حقيبة سفر عملية وكتومة. ظن أنه يلمح في أعين المسافرين نظرة استنكار. يتبع بخطو وئيد حشد المسافرين المتوتر، على طول ممرّ بارد وجديد، نوافذ زجاجية كبيرة تطل على المدارج من جهة، ومن الجهة الأخرى جدران ملساء، أسهُمٌ صارمة تشير إلى الباب رقم 5. كان يمشي في مدينة قفراء، هائلة، يسير مستقيما وسط سحر الضياء والصمت، يدخل في رِيَاض، تنفرج الغرف على حديقة في قلبه، كانت تنتظر. «أبداً لم تكن بمثل ذاك الجمال !». آيْلاَن، آيْلاَن، كان يحب أن يناديها بذلك الاسم السرّي الذي لم يحمله أحد من قبل، آيلاَن، احتكاك، رعشة ضياء بيضاء، ملاطفة جناح منشور.

كان يمشي طوال الممر، سلّته تبدو له أثقل فأثقل، كان وحيداً تقريبا، كان حشد المسافرين المحموم يسرع في خطوه، وها هو بعد حين يتكدس مثل ذباب مجنون عند خرطوم الطائرة. وحيداً أو يكاد في برودة ذلك الديكور، أمام لا مبالاة عين المِيكَا. عين المِيكَا ! كان قد بدأ يفهم مدلول تلك العبارة العامية. نظرة بلاستيك، عين كاذبة، عين منافقة، عين اصطناعية، عين مفقوءة، عين مطفأة في جَمْد مقشّر. «المسافرون، الباب رقم 5»، باب الكتاب. مضيفة. المِيكَا تبتسم مرحبة «وِيلكُوم، بِينڤنِيدَا، أهْلاً، مرحباً». لم يكن في استطاعتها أن ترى في السلهام البرتقالي قلبه المحروق، لم يكن في استطاعتها أن ترى، «آيْلاَن، آيْلاَن»، كان يئن خفية، كان يحب نحيبه، كان يزلق على طول المنحدر فوق الزربية وسط المسافرين المزدحمين مثل ذباب مجنون، كان ينحدر مثلما لو كان منجرفا في نفق غرامياته الضائعة. كان يبحث ببصره عن مواساة : أين كانت المرأة العجوز والرجل المرافق لها ؟ مرتعدة مثل طفل تائه، كان يرى نعلها البلاستيكي الأزرق، «حاجَا مَزْيَانَا

رُوميًّا»، نوع من التبرج عند فوات الأوان. الغضب، الاستنكار، سحابة سوداء تتراكم فوق جبينه ولا أحد يعلم لماذا. ساعات، ربما أيام من الصبر، من الشمس المحرقة، من الرياح الفارسة تهب على السوق، وهي جالسة أمام كومة من الحنّاء فوق قماشة قديمة في انتظار زبون يهديه الله، ساعات وهي جالسة، أيام لجمع ثمن ذاك النعل قرشاً قرشاً، هكذا كان يتخيلها مثل أولئك النساء الصامتات اللواتي يفدُن على سوق لغْزل، يبعن الأعشاب، الحبوب، الحشائش، الخبز اليابس، كان يراها تحل بيديها المترددتين قطعة القماش المعقودة بإحكام مثل صرّة تحفظ فيها نقودها، وتخفيها على نهدها داخل فَرَاجِيّتِها. الصرة. الكلمة تطفو على السطح، تنفجر إلى دوائر، أمواج متراكزة. يلمُّ به الغضب، يطغى عليه، كان يلعن رسل الطاعون، أولئك الباعة المتجولين فوق درّاجات قديمة يبيعون الأواني البلاستيكية. كان يفكر، أين هي الآن تلك المرأة العجوز بنعليها الأزرقين ؟ «يَا وُلِيدِي»، «يَا بُنِيني».

القانون صارم جداً، والمضيفة ببذلتها الرملية اللون ترتدي قفازيها قسراً. لعلّها تضع فوق رأسه يديها المحايدتين، اللا مبالِيتين، المقفّزتين.

كان يشعر بالعياء. ظن أنه سيموت. حديقة فارسية، «تشهارباغ»، تتراءى في الغياب البعيد، في طيّة صفحة. هدأ في خشوع، وبكفّ محقوفة تناول شيئا من ماء الحوض دون إرعاب الطيور. ببطء، ببطء كبير يبلّل شفتيه. تُلين العذوبة جسدَه المتصلب. صفحة الماء تعكس صورته، وجه يسبح في طمأنينة شفافة. ربما كان ذلك مجرد إحساس. حمى عينيه الحائرتين تهدأ في ذلك التراقص السائل العميق. زهرة، ملاطفة عابرة، يد امرأة. رقة ضياء مثل أول يوم ميلاده، ينهض ليخطو بضع خَطوات على طول تلك الممرّات، كان يمشي في داخله، أغنية، صوت في البعيد، صدى فجر سعيد، على عرف اللحظة كان ينحني، يتعرف على نفسه : أمير أسير، لكنه يبسط سلطانه على حديقته. سيل جارٍ، كلمة، قطرة دم تتلألأ من قلبه الهادئ، المطمئن : يد طاهرة، متيقنة من سعادتها وفنّها، ترسم حياة صافية، نظاماً سعيداً لتلك الحديقة، متخشعاً كان يمشي بخطى شاردة، يتوقف حيث تثبت نظرته. كان يحب تلك الأزهار التي يجهل أسماءها، كان يحب صمتها، عطاء غيابها. كان لا يعرف كيف يسمي الأحلام، مُنفتح العينين، كان أميراً جميلا، شهماً، أسيراً، يطأ جمال حريته. حفلة ربما : شعر امرأة، سيلان نيران، حكيٌ مرن مثل عارشة، جسد، همس ينبوع، تراقص المياه والأنوار. طائر ملغز يحط فجأة. قيق أسود ! لا لم يكن يعرف كيف يسميه : هي فكرة في ركن جفن ينغلق. حديث، هو، آخرون، كانوا عديدين، يتحدثون : أغنية على طرف اللسان، كلمة، لذة عنيدة، تجري في عروقه. من المرتفع، من حيث سيصدر الصوت : أمير، جميل،

شهم، أسير، غارق في الشهب الجارفة ينتظر الأرض. سينفرج الجفن. يرسم الجدار الأحمر الأمغر حدود عينيه : أمير جميل شهم أسير الحدائق المنطفئة : يد طاهرة تهديء الرماد المحترق. رسم، نظام موفق، يستقبل الأميرُ مصيرَه. كانت الريح قد تحركت، وطارت الورقة.

زفاف : معركة أفاعٍ ذات رؤوس سوداء مسطحة، ثعبان، عينان شريرتان محفوفتان بالأسود، «بُوسَكّة». كان حبيب جالسا جنبه، كانت أمه قد أعطته قطعة براقة من جلد أفعى، كان يحفظ هذا الحَرْز النفيس في حقيبته. الصوت البرئ السعيد، صوت حبيب الودّي، «انظر»، ينطق الحروفَ الفرنسيةَ بلكنة بربرية «انظر، إذا كنت تحمل حرزاً كهذا، فلن تخشى شيئاً. لا شيء يمكنه أن يحدث لك». الحمد لله، لا شيء يمكنه أن يحدث، كان يردد الجملة لحبيبٍ في شكل صدى، «لفعة بوسكّة»...

تدابير أمنية. المضيفة جميلة، وجهها يبدو غريباً تحت كمامة الأوكسجين، يداها مقفزتين بشكل صارم. تناسخ. ينظر حبيب إلى قطعة جلد الأفعى البرّاقة، قطعة جلد الأفعى المرصّع بالمعيّنات، الذي أعطته إياه أمه، تدابير أمنية. جالساً في مقعده، وقد وضع الحزام وشده، بين السماء والأرض، يفتح حقيبته بتأنٍّ ويخرج منها كناشه الصيني، يفتحه على الصفحة التي كانت الفوضى، والغليان، والاضطراب والتواءات الكتابة قد زعزعت فضاء بياضها الهادئ. كان قد اخترع كتابة المنحول، كان يعتقد هذا، يتمناه، كان يريد محو الآثار، قلب الثوابت، التلذذ بتيه المسافر الغريب، الضياع وسط ذاك التيه الهائل، الضخم، اللا متوقع، سيلان غريب لحكْي لا تستوعبه الذاكرة.

منبهراً، كان يهمس بيقين هادئ : أبداً لم تكن في مثل ذلك الجمال، كان متأكداً أنه سيموت. كان يعيد قراءة ما كتبه دون قراءته بين السماء والأرض، يضع كفاً في أخرى ليتأكد من حضوره، ليرافق حلمه، رؤيته للضبط الحاد الذي يتخلل الأحداث السارية في جسده. بعين كاشفة، محدقة، كان يشخص في الكلمات المنثورة على تلك الصفحة، على مظهرها العادي، اللغة التي كانت تتحاور بها فيما بينها، انعدام الدلالة في خطاباتها المجردة من السببية والكيفية. كتابة منحولة. كان يبتسم : أمهَرُ الأعين لا يمكنها النفاذ إلى غياب المعنى، كان يعيش حياته، يعيش موته، أبداً لم تكن في مثل ذلك الجمال ! لا شيء أو تقريبا لا شيء، تمرّد على القول : هناك على الطريق عرْيٌ قاحل للمشهد في أعلى الهضبة، نخلة وحيدة فريدة، منزل وحيد، مسجد وحيد فريد، منظر أمغر على طريق مراكش، أمواج صمت عميقة، طيّات الصحراء، متلفعاً في سلهامه كان، جالساً على مقعد السيارة كان، متواريا في التراب الأحمر كان، في عُري حياته المفاجئ، فوق عرف لحظة كانت آيْلاَن تتراءى. مربوطاً

إلى مقعده بين السماء والأرض كان يقرأ دون أن يقرأ تلك الكلمات على صفحة مذكرته، تلك الكلمات المنعقدة انعقاد شجرة عجوز على عروتها، كان بودّه أن ينزع منها صرخة حيّة، تلك الشجرة، شجرة أركَان تتحدّى الزمن، تلاحقه، تبعث فيه عذوبة سعادة هادئة لم يكن يسعى إلى استيعاب معناها.

فجأة أحس بنظرة تلقى عليه. مضيفة الميكَا تنظر إليه بطيبوبة وحنان، توقفت العربة الصغيرة بإزائه. أغلق كناشه الصيني باستعجال كما لو كان يخشى أن يفتضح أمره، انغلق على نفسه لكي لا يفتح إلا وجه مسافر معتادٍ. وقاية الجسد والروح، هذه الوجبات الصغيرة المعقمة ضرورية، زهد الأجواء العليا، تجفيف الذوق، إطفاء العطر، فم رملي، شفاه حجرية، لحم ميت منخور، تقطيع الحياة إلى أشلاء معقّمة مقدّمة للا ستهلاك بدون ضجيج، بدون تأثّر !

كان العميان قد صعدوا على متن الحافلة «الله، الله»، دعاء، رجاء، صوت ملحّ منبعث من ليل الأزمنة في أعينهم المطفأة «آمَنْ يَعْطِي صدقة على الله»، «ها البيض ! ها البيض !»، طفل في منتهى الجمال، ضحوك، وسيخ يقدم بيضاً مسلوقاً، ملح وفلفل زيادة. علك، كوكا كولا، خيوط أحذية، مشط بفرنك، تجارة، تجارة رائعة، البيض المسلوق، بصل، يمكنكم شراء أغراضكم، رائحة صوف مبللة، عرق، قرنفل، شحمة محروقة، بنزين، سجائر «كاميل» رطبة عسلية، «كازاسبور»، «فاقوريت»، كِيف، ريح، حبات رمل، قُمّل يعيش بحرية فوق قفا الفلاح القوية، نفايا الطفل كريهة الرائحة، طفل يرضع ثدي أمه، إجاصة سوداء، مشلول معلّق على عكازيه بين المقاعد، قرع، خنب، لمعان الحنّاء، زيتون أسود برّاق، عيون سوداء متألّقة في الليل، نداء مجنون للجسد الأملس، بخور المجذوب، عين الشر الممرّغة في الرماد، ضحك، أنين الكَمْبْري، تمزق النّيرة الحاد، ضحكات، حديث، سيل الكلام الجارف، تحية، اعترافات، حكايات حياة خاصة، أنّة المريض المنبوذ، منبّه مُلحّ، آخر جرعة شاي بالنعناع. وقاية !

يُظهر وجهاً مُطمئناً عادياً كأي مسافر مربوط إلى مقعده. المضيفات قاسيات، لكنهن رقيقات وخدومات، يراقبن كل شيء في يقظة كبيرة.

آيْلاَن في قمة العري الأمغر : فريدة ووحيدة ! بياض الحلَيب : الحليب والتمر، دخل المجذوب العاشق المتيم إلى المدينة، أميراً شهماً، أبيّاً، يرتدي أطماراً مرقّعة، «دَرْبَالَة مرقعة». في تلك المدينة الزاهية، كانت قدماه تشقّان العتمة، والنورُ ينبجس من بين أحجار الرصيف.

«سيداتي، سادتي، بعد لحظات...»

بعد لحظات «الله يجعل السلامة»، حبيب يهمس «لا شيء يمكنه أن يحدث، لَفعة بوسَكُّة»، كان يمسك بين أصبعيه قطعة جلد الأفعى. موجة صغيرة تتكون، تحرك سطح

المسافرين، «الزموا مقاعدكم»، تحرص المضيفات على النظام، يقظات، باسمات، ومتجمدات، الزموا مقاعدكم، أطفئوا أعينكم، شدّوا قلوبكم. بعد لحظات. كان عليه أن يتعلّم كيف يعدّ الزمن، يغلق حقيبته بإحكام على كناشه الصيني، على الآثار المجنونة لتيهه. مسترخياً كان، شعر بنَفَسه منجذباً، ممتصّاً نحو الأسفل، مهزوزاً بارتجاف يبدو له مرعباً. خائفاً كان، حائراً كعادته دائما، كان يُسائل جسده. الهبوط بدون شك ! دخل في الطقوس ليطمئن نفسه، ردّد في داخله الكلمات الملائمة، وبالحركات الواجبة قام.

غريبا كان هو ولم يكن، كيف الشك في هذا. يقدم جوازه، خاتم الشرطة يطبع هويته، يفتح حقيبته أمام الجمركي اللا مبالي، أشياء عادية، أقمصة، ثياب، فرشاة أسنان، موسى، صابون، مسافر عادٍ جداً، لا شيء من ذلك الاضطراب الذي كان يمتصه إلى أسفل أو يقذف به في فضاءات لا منتهية، لا يلاحظ الجمركي شيئا، الأحلام في نقطة الصفر. كان يتلفّع في سلهامه الأحمر، في أراضي عشقه، «أبداً لم تكن في مثل ذلك الجمال». الموت المنجز، يُلمُّ به حماس كبير، ينتشله من ذاته، أو كما قالت الأسطورة : يوم دخل المجذوب، العاشق المتيم، إلى المدينة، داهم البحرُ الأسوارَ «ألَكُمْ شيء تصرحون به ؟»، ينتفض حائراً. يتوزع المسافرون كالبيادق على طول الشبابيك، عجلة القدر تدور، على النقالة تتقدم الأمتعة متعثرة، أيادٍ متلهّفة تهوي مثل الكواسر، يدخل في الطقس، كان ينظر إلى تلك النقّالة، والوجه بلا وجه لأشباح طيّعة ينتظر كل منها حصته.

الصويرة ـ باريس ـ لومولان

1981 ـ 1982

دار توبقال للنشر
بمستواها العربي
تختارُ لك كتباً أنت بحاجةٍ إليها

صـــدر

□ سلسلة : المعرفة الأدبية
● جيرار جنيت
○ مدخل لجامع النّص (طبعة ثانية)
● رولان بارط
○ درس السيميولوجيا (طبعة ثانية)
● ميخائيل باختين
○ شعرية دوستويفسكي
● عبد اللطيف اللعبي
○ حرقة الأسئلة
● يُمنى العيد
○ في القول الشّعري

□ سلسلة : المعرفة الفلسفية
● محمد وقيدي
○ حوار فلسفي
● عبد السلام بنعبد العالي وسالم يفوت
○ درس الإبيستيمولوجيا
● جمال الدين العلوي
○ المتن الرُّشدي (مدخل لقراءة جديدة)

توزيع سوشبريس

دار توبقال للنشر
بمستواها العربي
تختار لك كتباً أنت بحاجةٍ إليها

يصدر
سلسلة ذاكرة الحاضر

ذاكرة للنسيان

محمود درويش

توزيع سوشبريس

إدمون عمران المليح

أيلان أو ليل الحكي

رواية

في تلك الغرفة العالية المنفتحة على السماء، كانت الحفلة قائمة، يدان طويلتان ناعمتان، يداها هي، تضمانه في حنان، لذة هادئة، بدون ضجيج، بدون إشارة آلية، حرير ناعم، زمن مجرد، هو لم يدخن، خشية المرض، دخن الشبان، هو لم يدخن، كان يشعر بخفة لذيذة، لحظة سحر، والتشنج الذي كان يحبسه يذوب، مسامير الذاكرة اقتلعت، يتنفس بسعادة، وقد تخلص من الأرواح التي كانت تثقل صدره، آيْلاَن ! صوت خافت، أنين، تنهيدة، هناك حيث السعادة، الموت، زهرة منحنية على الحلم، لم يجرؤ على قول أي شيء، كلمة، نفس، وكل شيء سيتحطم، ينعدم، جمالها، كان يود أن يصرخ بأنها ذميمة، وأمامها انهال عليه جنون كالصاعقة : أن يرتمي عند قدميها، يموت وسط ذاك النور الوهاج، ينعدم، أن يختطف رقة وجسامة الليل العذبة إلى الأبد، كان منذ فترة طويلة قد تعلم كيف يتعقل، للأسف، وقبل الأوان، كان يعتقد من غير تفكير في التخلي حقا عن الرغبة في العشق لأنه وجد ملجأ في عدم توضيح أي شيء، كان يرقص على حبل ممدود مع أنه غير ناقص خفة ولا جرأة، والخلاعة الوحيدة التي كان يمتع بها نفسه هي ذاك الاسم الذي أعطاها إياه من غير علمها، آيْلاَن ! لا أحد يمكنه كشفه، بل حتى هو أحيانا كان يمكنها أن تكلمه برقة، كان يستطيع سماع صوتها، ولم تكن لتتوقع تلك النسخة الأخرى من ذاتها، آيْلاَن التي تنظر إليه دون رؤيته، تمشي على حافة السيل كما لو أنها في الليل الجسيم العذب، تدعوه إليها بنظرة، برجفة، بنَفَس، وها هو على وشك الاندثار في الفراغ، مبرنم بقدر مأساوي، يؤرجحه ثقل قلبه، كانت تخاطبه، تقتفي خطواته، تتابع أفكاره وعذاباته، بضحكة فرحها، بيديها الناعمتين تقوده، كان يحبها، يذوق سعادة صافية، فجأة كل الذي واراه بصبر في أعماق نفسه بجميع ما يتوفر من حذق وذكاء لحشرة سامية، كل هذا ينبثق من ذاك الانشقاق، ذاك الثقب الفاغر الذي يحمله في قلبه، كانت هي الغريبة، غريبة تماماً، صورة حبيسة لحظة زبد لمَّاع، تجلّ عارض من خلال نوافذ القصر، قلعة سوداء على قمة صخرة وعرة تصدمها الرياح، يعدو خياله جموحا، بين السماء والأرض، رأسه كتاب من ألف صفحة تصفعها الريح، كان قد اخترع امرأة محل جميع النساء اللواتي أحبهن، يهرب، ينهار وقدماه تنزفان دماً تمزقهما أحجار صَوَّان الحادة، أحجار العشق الصلبة، كانت هي وليست غيرها، كانت في حضنه، تلاشت صورة القصر الذي اخترعه، سراب عابر، تنظر إليه في حنان، حنان بعيد، يناديه صوتها الذي لا يمكن لشيء أن يستعيده أو يقلده، يدعوه، كان على وشك الارتماء، تداهمه الموجة العاتية، ترسم منحنى خاطفا كالبرق، تلفظ أنفاسها على طول الحافة لتولد أخرى، موجة أخرى تدوي دوي السوط، كانت هي تلك المرأة، جسد موهوب، تبتعد نهائيا، على شفتيه أصبح يرشف الآن مذاق الغياب القاسي، كان يجد نوعاً من المواساة، يكتب، كما لو كان يعزّم. لا تكتمل المرأة إلا بالخيانة، تستطيع منح المرء كل السعادات إلا تلك التي يرغب فيها، لا شيء كان يستطيع إشقاءه، كان قد تعلم أن الحيوانات المعطوبة تتيه في الغاب لتموت، أين سيختفي هو، أين سيواري ذاك الانشقاق الفاغر الذي ينزف منه دمه غزيراً، لقد أصبح الآن يتقمص شخص عطيل، يحترق في لهيب غيرة قائمة ومتعالية، يترقب على وجه ديدمونة علامات الضعف والاندحار والخيانة، لم يكن يدري أين يهرب، كان محاصرا بالمرايا، يسعى إلى حبس صورة له فتتلاشى، تغرق، تختلط بالأخريات التي تستولي على الفضاء في دوي صاخب، معاناته، نقطة هاربة مثله هو، آيْلاَن !

الموزع الوحيد في المملكة المغربية
الشركة الشريفية للتوزيع والصحف
(سوشبريس) - الدار البيضاء

32 درهماً

5